مقالات
ESSAYS

LAILA AL BALUSHI

ليلى البلوشي

هواجس غرفة العالم

مكتبة ١٢٣٥

هواجس غرفة العالم

مكتبة | 1235

هواجس غرفة العالم/ مقالات
ليلى البلوشي/ كاتبة من عُمان مقيمة في الإمارات
الطبعة الأولى، 2014

حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 752308 / 751438 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com

تصميم الغلاف: ديمو برس/ بيروت، لبنان
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

2 9 2023
مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN: 978-614-419-423-2

مقالات
ESSAYS

مكتبة | 1235

ليلى البلوشي

هواجس غرفة العالم

تاريخ الكلمة عريق . . الكلمة المخلصة . .المسؤولة . .
الوفية . . النقية . . الصادقة . . العادلة . . التي لا
تخش في الله لومة لائم . . الحرّة . . الإنسان . . .

/

إلى كل إنسان حرّ

/

أهدي كلماتي . . انفعالاتي . . أفكاري

غرفة حريم السلطان

في ظل هذه الحروب برزت المرأة . . كائن الرحمة والسلام والوعي ؛
ولو لم تكن المرأة وطنا لعاش جميع الرجال لاجئين . .!

نساء هلأ لوين..!

مكتبة
t.me/soramnqraa

يروي «علي الوردي» موقفا مرّ به حين كان في أمريكا . . فيصف المشهد بقوله : «كنت في أمريكا فنشب نزاع عنيف بين المسلمين عن «علي» و«عمر» - رضي الله عنهما - وكانت الأعصاب متوترة والضغائن منبوشة ، فسألني الأمريكي عن عمر وعلي هل يتنافسان الآن على الرئاسة عندكم كما تنافس ترومين وديوي عندنا . .؟ فقلت : إنهم كانوا في الحجاز قبل ١٣٠٠ سنة والنزاع الحالي حول أيهما أحق بالخلافة . . فضحك الأمريكي من هذا الجواب حتى كاد أن يستلقي على قفاه وضحكت معه ضحكا فيه معنى البكاء وشر البلية ما يضحك . .»

هذا هو الوضع المضحك المبكي في آن . .! كل يوم يزداد هذا العالم اشتعالا . . كل يوم نسمع عن ضحايا ومجازر وبشر متعاركين وهم جيران وأصحاب بناية واحدة والباب للباب . . ترى ما يُفقيء القلب مرارة وما يورث المشاعر وجعا مرا . . وتتساءل ما سبب كل هذا . .؟ وأين التسامح الديني الذي كنا فيه . .؟ وهل الدين هو السبب أم المتاجرين به . .؟ من الرابح ومن الخاسر . .؟

الرابح دون شك أصحاب الجشع والثروة والمصالح و كراسي السياسة ، بينما الخاسر واضح وضوح الشمس هو الإنسان العادي الذي

جعل عقله ألعوبة في يد طرف لا يهمه سوى مصالحه وكل طرف نار والبشر هم عيدان ثقابهم . .؟!

نعود إلى الوراء أعوام . . قبل أن نولد في زمن آبائنا فتبهرنا حكايات التعايش البشري في العالم الإسلامي بين سنة وشيعة كانوا إخوة وأصدقاء وجيران ويبهرنا أكثر التسامح الراقي بين من هم مسلمين ومن هم مسيحيين . . . القرآن بجانب الانجيل والمسجد بقرب الكنيسة والحياة كل يوم أجمل وأهدأ وكل متعايش مع الاختلاف في منتهى التسامح والطمأنينة سائدة في عالمنا العربي . .

بينما الغرب الذي كان مضغوطا لعقود في التعصب والعنصرية حيث البشر طبقات ، وهناك من هو أكثر إنسانية من الآخر ، وهناك من هو وضيع في منزلة الحيوان تجاوز مراحل تاريخه الأسود كي يبني نفسه ، وكي يرتقي ، وكي يشمل هذا الرقي كافة أفراد المجتمع دون تفرقة أو مس حريات الفرد وأصوله وانتمائه . . ومن هنا انطلق الغرب بكل قوة نحو الحداثة ولكننا بقينا . . بقي العرب بل تراجعوا آلاف سنين ضوئية نحو التخلف وضيق الأفق والعدائية والشك والسفك والدم بضمير بارد . .!

المأساة الحقيقية اليوم هي أن ثمة أناس يعتقدون أن هناك انتماء واحدا مسيطرا يفوق كل الانتماءات الأخرى وفي كل الظروف حتى بلغ مرحلة جعلها «هوية» . . هذا الانتماء للوطن بالنسبة لبعضهم والدين بالنسبة لآخرين . . محاولة تذويب الانتماءات المختلفة في انتماء واحد شامل هو ما ولّد تلك الصراعات المتدامية في أوطاننا العربية ؛ وبلغ هذا الصراع حده لدرجة تعاظم شعور التهديد وبضياع الانتماء الديني . . ويبقى السؤال الأهم : كيف نعود كما كنا أكثر

تعايشا وأعمق اطمئنانا وأشمل محبة . .؟!

هذا السؤال عاد بذاكرتي إلى فيلم ظريف يدعى «هلأ لوين» حرصت مخرجته اللبنانية «نادين لبكي» إلى غمس الفكاهة والطرافة فيه لتبسّط نقل الفكرة ولتسري في روح الاختلاف بمذاق المحبة والرغبة في التعايش السلمي ، هذا الفيلم أهم ما فيه نساؤه . . نساء من نوع مختلف . . نساء عجزن كل نظريات الفلسفة والفكر والمنطق من تفسير أساليبهم الواعية لتقويم القلوب . . قلوب أبناء ضيعة واحدة من مسلمين ومسيحيين دون تفرقة بينهم ، المسجد قرب الكنيسة ، هذه القرية البسيطة لا يصلها بث إذاعي أو تلفزيوني واحتفالا بالألفية يحضر أحد سكان القرية صحنا لاقطا وتتسرب الأخبار عن الحروب الطائفية الدائرة ومن ثم ينتقل إلى القرية هواء ذاك الاقتتال الطائفى . . تتطور الأمور بين أهل القرية الذين عاشوا معظم حياتهم على أخوة وحب وتسامح ، تبدأ في قريتهم انقسامات طائفية ؛ ولأن نساء القرية يدركن خطورة ذلك يحاولن بشتى الطرق المبتكرة إبعاد هذه الخلافات عن قريتهن كحرق الجرائد و تخريب الصحن اللاقط حتى إنهن يحضرن راقصات أوكرانيات لإلهاء رجالهن عن الاقتتال ، ثم يقمن بخبز الحلوى ودسّ الأدوية المخدّرة فيها كي يقمن بمحاولة سحب السلاح من القرية ودفنه ، يشعرن بأنهن حققن شيئاً وجاهدن لحل مشكلة ليست متجذرة في الضيعة المنعزلة فقط بل في كامل لبنان بل كامل الجسد العربي . .

الرجال يقتلون ويرفضون التعايش بحجة الحمية والغيرة الدينية وهلم جرا من الحجج التي كانت مبعثا لموت ملايين من البشر بدم بارد وبطولة استعراضية ؛ لأن كل حزب أو كل مذهب أو كل ديانة تغذي

روح العداوة والبغضاء في النفوس حتى تمتلئ فتضخ ما فيها من كراهية عمياء دون السماح لفكرة عاقلة تخبرهم أو تنبههم عن فداحة غبائهم وفداحة ما يورثونه لأجيال قادمة أبناؤهم وأحفادهم . .

المرأة التي وصفتها معظم الديانات بالشرّ . . ومعظم العباقرة والفلاسفة بأنها شيطان هي من تسعى وبإمكاناتها البسيطة لردم فوهات العداوة والموت ووقف نزيف الدم ؛ كي يتعايشوا بسلام مع أزواجهم وأبنائهم وكي يسود السلام وتحيا الأرض . .

ما يعوز عالم اليوم بشر أكثر إنسانية وأكثف تحملا لمعنى المسؤولية وأعمق إيمانا بحقوق الآخرين ، ليس فقط في الحرية والعدالة والكرامة بل في احترام وجهات نظرهم وتقبل آرائهم مهما غدت عنهم مخالفة ومتباينة وجدلية وغامضة ومستهجنة وناقصة ومبتورة . . متى تفهم ومتى تعي عقولنا الضيقة مبدأ «حريتي وحرية الآخر» كفعل وفاعل ومفعول وليس كمبدأ جامد ، ثابت ، فارغ من معنى التنفيذ مع سبق الإصرار والترصد . .؟!

من ضمن أحداث الفيلم في مقهى آمال . . وآمال امرأة يؤدي دورها المخرجة والممثلة في آن «نادين لبكي» حين يتعارك رجال من مسلمين ومسيحيين ؛ لأن النفوس محتقنة على بعضهم تصرخ فيهم آمال بكل بقوة وكأن لسان حالها يثبت أن في قاع كل منا دكتاتور . . يسقط هذا الدكتاتور الداخلي بكل استبداده وحقده وغيرته وعنجهيته وأنانيته المنتفخة . . يسقط . . يسقط . . يسقط . . أن أكون إنسانا وكفى . .!

ويبدو أنه لن يوقف نزيف هذا العالم سوى نساء ؛ فواقع اليوم يثبت تعقلهن ووعيهن الأكمل بعد أن فقد الرجال العقل والحكمة

لوقف النزيف الإنساني الدموي ، فكل منهم يناصر مصلحته وجشعه ما بين مكانتهم السياسية والدينية وكأننا في مباراة أي فريقين يجني أعلى نسبة من القتلى لصالح حزبه . .!

في ظل هذه الحروب برزت المرأة . . كائن الرحمة والسلام والوعي ؛ ولو لم تكن المرأة وطنا لعاش جميع الرجال لاجئين . .!

ولم يكذب أحد أشهر فلاسفة العالم «سقراط» الذي عبّر بيقين ذات يوم : «عندما تثقف رجلاً تكون ثقفت فرداً واحداً وعندما تثقف امرأة فإنما ثقفت عائلة بأكملها . .»

فصول في نساء «إشراقه»

«تناهى إلى عيوني دمع البنات . . نساء في أعمار مختلفة التقيتهن أثناء يومي العملي . . هل حدث أن أخذت قلبك كل يوم في يدك . . انتزعتيه ومت لثواني ثم عدت بعد أن رأيت نور الله . .؟»

عبارة اختزلتها الشاعرة والكاتبة السودانية المقيمة في فيينا الدكتورة «إشراقه مصطفى حامد» العضوة الفاعلة في منظمة الاتجار بالبشر . . هذه الإنسانة المنطلقة في خدمة البشرية في كل مكان يمكن اختصارها في عبارة «امرأة في مجموع إنسان» ؛ ففي جوفها ملايين الحكايات معجونة بوجع الحياة ولذتها ، هذه المرأة التي جنّدت روحها الإنساني المؤتلق للمرأة من وجوه عدة وتبنت مشروعا حياتيا مهما بدأته وما يزال الدرب يفيض لها بوجع مفرط . . فتجارة «الاتجار بالبشر» أو كما تسميها الدكتورة «إشراقة» مافيا الجسد «هو درب يفضي إلى أوجاع مريرة وحقائق تدمي القلب وتغرس دبوسا حادا في ضمير الإنسانية عن ملايين من النساء معرضات وبشكل يكاد يكون يوميا لشتى أنواع العنف والاستعباد والاستغلال والتشييء كيفما يحلو ويلتّذ لأصحاب المتاجرات في سمسرة أجساد النساء . .!

تعرض هذه المقالة حقائق تصفها لنا الدكتورة «إشراقة» المختصة في شؤون الاتجار بالبشر وتسرد فيه بعض من معاناة تلكم النسوة

اللاتي تعرضن للعنف الجسدي والنفسي تصف فعلها اليومي في حضرة العنف المستبد : «بؤس العالم الذي ظل يملؤني عقب كل مواجهة مع حالة تقتلني ألف مرة وتبعث فيني الحياة مليون مرة وتوبخني وكأنني المسيح المنتظر لانعتاقها لم أرى في حياتي نساء في مثل قوتهن واستعدادهن للتغلب على كل المرارات التي تعرضن لها» . .

ثلاث بنات على بحر من دموع وبقايا أغنيات . . كما تصفهن الدكتورة «إشراقه» وتسرد حكاية الدمعة الأولى تدعى «مانجوت» كانت تغني وهي منكفئة على سرير وبقية جسدها على الأرض ، يشترك تقاطيعها وصوتها مع ذات الحزن ، كانت تصلي وتتلو بلغتها الأم أغنيات فاتحة كل أبواب الظلم وقسوة الزمان ثم تصاعد هذا الغناء إلى بكاء يغرق الغرفة التي شهدت ما شهدت من أحزان هذه الفتاة التي وجدت نفسها في وضع لا يحسد عليه فقد أخبرتها «الكوين» المسؤولة ولاسمها هذا مغزى فهي ملكة في اضطهاد بنات جنسها . . أخبرتها أن تعد نفسها ، أن تمسح دهانا لامعا على شفتيها المتشققات نتاج فقر وعليها أن تتقن أفعال يحبها الرجال في هذه البلاد ، لكن حينما أبت «مانجوت» مطالبها ومقاصدها كانت اللغة الوحيدة المتداولة في تلك العوالم هي لغة الضرب المبرح والتلويح بحديدة صدئة تسلخ جلدها إن لم تذهب إلى شارع الاستعراض ولائم يتحاباها رجال مخمورين ومحبطين يبحثون عن لذة مؤقتة وتلك الصورة النمطية عن المرأة الإفريقية . . تصف الدكتورة وضعها الوجودي ثم تسرد تراتيلها النفسية عليها علّها تجد بقايا روح : «كانت أول الضحايا التي علي رعايتها ، والخروج بها إلى بر الأمان ، قدمت لها قبل هذه الفاجعة إرشادات فيما

يخص وضعها القانوني، إقامتها، دورات اللغة وأحلامها أن تصبح ممرضة» . .

كل مفردات الفجيعة تتعنف في روح «مانجوت» ففي شجن الذاكرة تسترجع صور عدة هناك في الخرطوم خوفها الأعظم من ذلك القسيس البلدي الذي أقسمت أمامه على قدح عليه ماء ساخن وسكين حادة أن لم تعد مبلغ رحلتها إلى أوروبا وتطيع سيدتها في كل صغيرة وكبيرة فلها أن تهيئ نفسها لسكين يلاحقها أينما كانت . .

وبعد أن قامت الدكتورة «إشراقه» مع شابة أوروبية تعمل كشرطية في قسم مكافحة جرائم الاتجار بالبشر بالقيام بالإجراءات اللازمة واحتضان «مانجوت» ووضعها في أيد أمينة ؛ ولكن لا فكاك لها فقد هددت باغتيال أمها وأخوتها إن صرحت للسلطات بكلمة فغابت عن الوعي . .

كما لا فكاك للدكتورة وفريقها الإنساني فبعد الانتهاء من مأساة «مانجوت» استلمتها مأساة أخرى حيث اتصل بها الضابط المسؤول في مكافحة الاتجار بالبشر من مدينة أخرى وكان عليها أن تذهب وتشهد انهيار أحلام «انديرا» تحت أقدام الشيوعية في روسيا القديمة ونتاجها كان ملايين نساء اللائي تعرضن لمافيا الاتجار . .

«خرجت وتركت الشارع يئن تحت وقع أقدامي، مشيت كثيرا . . كنت منهكة وبي تحدي بأني سأبقى في هذه الوظيفة وسأبقى فهناك بنات أفريقيات، آسيويات، وشرق أوروبيات وعربيات يحتاجنني ضمن فريق المؤسسة التي تعمل في هذا المجال من خمسة وعشرين عاما دون كلل أو ملل وبأفق سياسي يتناول صراع الشمال مع الجنوب . .»

مكتبة
t.me/soramnqraa

وتمضي الحكايات النازفة التي توجع صميم القلب فها هي أنثى أخرى تدعى «إنجيلا» و تسرد مأساتها الدكتورة «إشراقة» في معزوفة حزينة . . هي تلك التي تتحدث السواحلية وفي عينيها تبرق أحلام تكسرت ذات رحلة طويلة من صحراء إلى بحر إلى ايطاليا إلى شاحبة الوجه . . دامعة العينين قالت إنها حامل . . ذات ١٩ ربيعا الذي غدا مع الحبل غير الشرعي خريفا شاحبا . . «انجيلا» الطفلة ولا تريد الاحتفاظ بثمرة تكبر فتغدو حالها كحالتها إن لم تكن أسوأ ، كان عليها أن تجد وسيلة للإجهاض أو تقوم بوضع الطفل في أقرب مستشفى ولمن لا يريد الاحتفاظ بالطفل فما عليها سوى الضغط على زر كهربائي وسيخرج لها سرير للوليد معّد بكل ما يلزم عليها أن تضعه وتذهب في حال سبيلها وتقوم الدولة برعايته إلى أن يعرف دربه ويعتمد على ذاته . . فأجهضت بسهولة وبعد يومين اقتيدت وهي منهارة إلى مشفى الأمراض النفسية والجوع كان يمزق أحشاءها بمعدتها لم تستسغ الطعام الأوروبي وكانت ترجو في الحصول على وجبة عصيدة الأفريقية . .!

ثمة صراع يتأكل في قاع الدكتورة إشراقة ما بين وظيفتها وما بين إنسانيتها تجاه أولئك النسوة المقهورات وهو صراع يمتد إلى أعمق جوف في الحنايا فتقرّ معلنة : «صور البنات الضحايا تلاحقني في صحوي ونومي . . في المكتب ، في المطبخ ، في الحضانة ، في المدرسة ، في الشارع ، في العمل العام ، في السياسة وصوتي يعلو . . صوت لأجل مهاجرات ومهاجرين . .»

إنها ليست واحدة أو اثنان أو عشرة بل أكثر من تسعين امرأة عايشت الدكتورة «إشراقة» تاريخ صراعهن الجاحد في حياة ضيقة

ومظلمة أشبه بزجاجة متفحمة فرغ فتيلها . .!

ويبدو أن صراع المرأة ممتد ما امتد تاريخ البشرية ، نساء ولدن من رحم المرارة والحنق والقهر خاصة في مجتمعات العوز والفاقة والمرض . . هل لأن جنسها أنثى فقط . .؟ تساؤل اطرحه وأنا اذكر عبارة قرأتها عن المرأة على لسان «ممدوح عدوان» حينما تحدث عن ورطة الإنسان الأعزل في كتابه «حيونة الإنسان» : «وثمة من قال إن السائر في الليل في شارع خال قد يحس يشعر بأن هناك خطوات تتبعه وأسباب هذا الخوف عديدة ، وهي مشتركة بين الرجال والنساء ولكن يضاف هذه الأسباب سببان متعلقان بالمرأة وحدها : الأول هو الخوف من خطر التعرض للاغتصاب والثاني لمجرد كونها امرأة . .!»

وقريب من هذا دون شك ما أكده الكاتب الساخر «جلال عامر» - رحمه الله - : «مجتمع لا يهمه الجائع إلا إذا كان ناخبا ولا يهمه العاري إلا إذا كان امرأة . .!»

لكن د . «إشراقة» من أولئك النسوة اللاتي وقفن في الفجوة وهتفن جسارة : أنا هنا أحاول أن أنقذ العالم . .

نداء إنساني - ما من شك - يحرّض على ولادة الشمس في حقب الظلام يوما ما . .

العصابة الوردية في الهند..!

الهند . . بلد العجائب والغرائب . . بلد البهارات واستعراضات الأفاعي . . البلد قال عنه «مارتن توين» إثر زيارته للهند في القرن التاسع عشر : «هذه هي الهند حقا ، أرض الأحلام والغرائب والثراء الفاحش والفقر المدقع ، للجن والعمالقة ومصابيح علاء الدين ، والنمور والأفيال» . .

تحظى الهند حاليا على الصعيد العالمي بمكانة عالمية معروفة نتيجة التطورات الهائلة في مجال الاقتصادي ، وهي التي وصلت لمرحلة تنافسية مع اقتصاديات العالم الحديث في الدول العالمية . .

في الهند . . كل شيء قابل للتطور وقابل للتقدم وقابل لرفع مستواه ، ولكن مكانة المرأة على ما يبدو ما تزال على الصعيد الاجتماعي تعاني الضغوط نفسها ، ويلاحقها شبح الإهانات والضرب والتنكيل بها وحقوقها عند فئات من المجتمع ، ولعل أوضح مثال هو آخر تقرير صحفي نشرته إحدى الصحف المعروفة عن تعرض نساء الهند للضرب والقتل ، تقرير أشار إلى أن الهند من أكثر الدول إساءة إلى المرأة . .!

حيث نشر التقرير عدة جرائم اعتداء ولعل أكثرها عنفا هي تعرض فتاة شابة في إحدى الحانات لهجوم من عصابة مؤلفة من ١٨ رجلاً ،

قاموا بجرها على الطريق من شعرها ، وحاولوا تعريتها من ملابسها وهم يبتسمون أمام الكاميرا التي كانت تصور كل ما فعلوه ، وكانت الساعة نحو التاسعة والنصف مساء في أحد أكثر شوارع غواهاتي ازدحاما ، وبعد مرور ٢٠ دقيقة على عملية الاعتداء لم يكلف أحد نفسه عناء الاتصال بالشرطة رغم أنه أمر يسير إذ إن معظم الموجودين يحملون هواتف نقالة ، وكانوا يستخدمونها لتصوير مشهد الاعتداء على المرأة ، حيث كان الشبان يقومون بنزع ملابس الفتاة والاعتداء عليها بينما نحيبها يرجو من أي شخص في الشارع تقديم المساعدة لها ، وظهر ذلك من خلال كاميرا أحد مصوري قناة تلفزيونية كان موجوداً والتقط الصور التي أظهرت استمتاع المشاهدين في الشارع . .!

والطامة الكبرى أن الصور حين تم نشرها عبر قناة إخبارية تحركت الشرطة قليلا تجاه القضية دون أن تكلف نفسها السؤال عن المعتدين والقبض عليهم . .!

ولكن سكان غواهاتي - حيث جرت الواقعة - قرروا أن يحلوا المشكلة بطريقتهم ، فقاموا بنشر يافطة كبيرة على الشارع الرئيس في البلدة تحمل أسماء جميع المشتبه فيهم بالتعرض للفتاة ، وبعد مرور ستة أيام على ذلك أمر رئيس حكومة ولاية اسام التي توجد فيها مدينة غواهاتي الشرطة باعتقال المشتبه فيهم الرئيسيين ، كما أنه التقى بالضحية وقدم لها ٥٠ ألف روبية (٥٨ جنيهاً استرلينياً) . .

ويدرك معظم الهنود مدى قسوة الحياة التي يمكن أن تعيشها النسوة في هذا البلد ، الذي يعد أكبر ديمقراطية في العالم وحتى بعد مرور ٤٦ عاماً على وصول انديرا غاندي إلى السلطة باعتبارها أول رئيس وزراء امرأة عام ١٩٦٦م لكن ما حدث هنا والتقطته الكاميرات كان دليلاً

على عدم احترام المرأة خصوصاً في ولاية اسام التي يعتقد فيها أن المرأة تنال أكبر قدر من الاحترام في الهند . .

وقالت مذيعة أخبار في إحدى المحطات : «لدينا نساء وصلن الى منصب رئيس الحكومة ، ومع ذلك ونحن في عام ٢٠١٢ فإن المرأة لدينا تعاني مرارة كبيرة عندما يتعلق الامر بسلامتها» وأردفت موضحة أن عدداً من الشخصيات المهمة في ولاية براديش منعوا المرأة من امتلاك الهاتف النقال ، ومن اختيار زوجها ، أو أن تترك المنزل دون مرافق ، أو أن تكون حاسرة الرأس . .!

وسرعان ما ختمت مذيعة الأخبار قولها بأسى واضح : «إنها القصة ذاتها ، طالما أنه ليس هناك احترام للمرأة فإنه ليس هناك احترام لثقافتنا ، أما بالنسبة للقانون فليس هناك من يكترث» . .!

والمشكلة الكبرى هو عدم وجود قانون خاص ضد الاعتداء الجنسي على المرأة في الهند ، وليس ثمة قانون يردع الفرد المعتدي على المرأة سواء بالضرب أو القتل وغيرها ، ويبدو أن هذا هو ما يجعل الرجال في هذا المجتمع يتمادون في سلوك التعدي على المرأة ، وغالبا تعامل كمتاع تباع وتشترى ، ويحكى أن رجلا قام بذبح ابنته ؛لأنها أحبت رجلا مسلما فأراد بذبحها أن يجعلها مصدر تهديد ووعيد لبقية الفتيات في المجتمع . .!

في بعض القبائل يقوم الرجل بربط قدم امرأته بالجرس ؛ كي يسمع وهو نائم صوت الجرس على مدار ٢٤ ساعة ، فيطمئن استبداده الذكوري أنها تعمل وليست بليدة بينما هو نائم ويشخر دون أن يعاونها أو يوفر لها مالا وطعاما ومستلزمات الحياة . . وهل من حسيب . .؟!

وتشير إحصاءات المركز الدولي للأبحاث المتعلقة بالنساء إلى أن ٤٥٪ من النساء الهنديات يتزوجن تحت سن الثامنة عشرة ، كما أن الأبحاث ذاتها أشارت إلى وفاة ٥٦ ألف امرأة عام ٢٠١٠ م ، وأشارت إحصاءات اليونيسيف في عام ٢٠١٢ الى أن ٥٢٪ من الفتيات المراهقات في الهند ، و٥٧٪ من المراهقين الصبيان يعتقدون أن من المبرر أن يضرب الرجل زوجته ، وأشار مكتب السجلات الوطنية للجريمة في الهند إلى تزايد نسبة الجريمة ضد المرأة في الفترة ما بين ٢٠١٠م إلى ٢٠١١ م ومعظم هذه الحالات كانت تتعلق بنزاعات حول المهر . .!

تقول امرأة هندية : «نحن نعبد آلهة إناث ولكننا غير قادرات على حماية النساء . .!» ويبدو أن كل تلك الأجواء في الهند ونتيجة لتفاقم جرائم الاعتداء على المرأة ، ولا جدوى القانون في مجابهتها هي التي كانت وراء ظهور عصابة من النساء الهنديات أطلق على أنفسهن «العصابة الوردية» . .

وهي عصابة أفرادها من نساء يقمن بملاحقة الرجال الذين يضربون النساء ، وأولئك الذين يسيئون معاملة زوجاتهن وضربهم بالعصا . .!

هذه الوسيلة قد تحمي بعض النساء لكنها قطعا لا تحل الأزمة التي تتفاقم في الهند عن وضع المرأة فيها ، كما أنه أسلوب لا يساهم سوى في زعزعة العلاقة بين ما الرجل والمرأة ، وبث سياسات التهديد والخوف والقسوة ، فلابد أن تسود علاقات ودية وعلاقات محبة وسلام ما بين المرأة والرجل والمجتمع الذي يضمهما ؛ كي يكون مجتمعا فاعلا ومتقدما وإنسانيا في كافة مراحله وخطواته . .

قال «غاندي» مرة : «من بين جميع الشرور المسؤول عنها الرجل

ليس هناك ما هو أحط وأشد إثارة للصدمة وأكثر وحشية من إساءة معاملة النصف الآخر للبشرية ، أي المرأة » . .!

يا ترى لو كان «غاندي» رجل السلام والمحبة حيّاً ماذا كان سيقول في وقت الحاضر . .؟!

تدبير منزلي..!

حوار واقعي

- المرأة : زوجي لا يصلي ويتعاطى المخدرات .
- المجتمع : عليك بالصبر ؛ لعل الله يهديه . .
- الرجل : زوجتي لا تجيد الطبخ . .
- المجتمع : كيف تصبر عليها كل هذه المدة ، عليك بغيرها . .؟!

***

في سنوات التعليم السابقة قامت وزارة التربية والتعليم في الإمارات بتحديث المناهج الطلابية ، وكانت ضمن تلك الجدولة التحديثية إلغاء مادة التدبير المنزلي أو ما يسمى بالتربية الأسرية من جدولة التلميذات الإناث كون هذه المادة كانت مخصصة للإناث فقط في حدود حصتين أسبوعيا ؛ لتعليمهن فنون الخياطة والطبخ والاتيكيت أي ما يجهزها ربة بيت جيدة في المستقبل ، بينما الذكور ولعدم وجود تعويض يحل محل تلكم الحصتين ؛ فكان يسمح لهم بالخروج المبكر في نهاية كل آخر أسبوع من الدوام المدرسي . . وعلى مدار سنوات كان الحال على هذا النحو وكانت مادة التربية الأسرية مبعث خصب للتندر على الإناث من قبل الذكور ؛ ففي وقت هن يقضينه لتعلم أصول الطبخ والخياطة كانوا هم يزجون الوقت في لعب كرة القدم أو ألعاب أخرى كانت متاحة في ذلك الوقت . .!

ولكن في أواخر التسعينيات قامت وزارة التربية والتعليم بخطوة ملموسة من نوعها وذلك بإلغاء مادة التدبير المنزلي من مناهج مدارس الإناث وفرضت عوضا عنها مادة الحاسوب وهي المادة التي شملت الجنسين الذكور والإناث معا ؛ بعد أن لمست وزارة التربية والتعليم أهمية مسايرة عصر التكنولوجيا والانفتاح العولمي ، كما أن منهاج التربية الأسرية أو التدبير المنزلي ما عاد لها تلك الأهمية القصوى في مجتمع متنام يوكل فيه جميع أفراده - مسؤولياته - بشكل واضح على العاملات في الاعتناء بشؤون البيت والطبخ وهلمّ جرا . .

لكن هناك مجتمعات ما تزال تشكّل مادة التدبير المنزلي أهمية ؛ في تلك التي ما تزال تحدد المرأة في حيز واحد متوحد كـ«ربة بيت» فقط . . رغم أن الأنثى اليوم توزعت مهامها إلى أمور شتى واكتسحت ساحات العمل بقوة ومنهن من تزعمت مناصب عالية في وطنها . . هنا أريد أن أقول : لماذا مادة التدبير المنزلي ليست ضمن مناهج الذكور في تلك الدول . .؟ ولماذا هي مخصصة للإناث فقط . .؟!

فإذا ما كنا في عصر يشهد للمرأة دورها القيادي في معظم أفرع الدولة ، وساعات عمل المرأة ليست أقل من ساعات عمل الرجل ، بل ثمة وظائف تتضاعف فيها ساعات عملها عن الرجل ، وهذه المرأة إضافة إلى وظيفتها خارج المنزل فإن لها أعمال أخرى تترقبها داخل البيت ، خاصة إذا كانت زوجة وأم ، في الحياة العامة مع حداثة المجتمع وغلاء المعيشة بات عمل المرأة من الضروريات وليست ضمن الكماليات ، وأصبحت هذه المرأة تشارك في مصروف المنزل كالرجل تماما وربما أكثر ، والرجل في مجتمعاتنا غدا من أهم أهدافه البحث عن زوجة تعمل ويفضلها على التي لا وظيفة لها . . فلماذا مع التطورات

التي تجرف المرأة ومتغيرات المجتمع تظل مهام المرأة نفسها والنظرة عينها من المجتمع بينما الرجل لا تطرأ عليه تغيرات الحياة والمجتمع . .؟!

الرجل يتمدد بذكوريته في المجتمع ، فمهامه لم يمسها تغيير وبجانبه امرأة تتحمل أثقال الحياة سواء ما يخص الأبناء أو المنزل ، بينما المرأة تتقلص لا تكاد تجد نفسها مع مسؤولياتها الجسيمة في داخل وخارج المنزل . . أليس من المفروض أن يكون ثمة توازن في المشاركة بين هذين الجنسين ، فلماذا لا يدرس الذكور منهاج التدبير المنزلي ويتعاطوا بعض المسؤوليات قبل أن يتحولوا إلى رجال برتبة أزواج . .؟!

وفي هذا مكسب للجنسين فكلاهما يساهمان في بناء حياتهما الزوجية وتربية الأبناء كثنائيين متوحدين في زمن طرأت عليه تغييرات جمة ولكن بقيت بعض الأعراف التقليدية على الصعيد الاجتماعي جامدة وثابتة عن منظومة التغيير ، كما أنه يساهم في القضاء على النظرة الدونية لدور المرأة المهم في المنزل ؛ فهناك بعض مجتمعات تحمل نظرات عدائية تجاه الأنثى خاصة تلك المنغلقة والمتشددة والتي ترى أن المرأة تختصر كربة منزل فقط وكل مطالبة لها خارج هذا النطاق إنما هو تمرد والخروج عن العرف ، حتى أولئك الذين يدّعون التحضر والقبول السطحي لنيل حرياتها ففي أعماقهم تظل المرأة كما هي . . . لهذا على هذه المرأة أن تتحمل وحدها مهامات الداخلية والخارجية بما أنها هي التي طالبت بالمساواة بين الجنسين فعليها أن تكون رجلا في خارج المنزل تكد وتصرف مثله وفي الوقت نفسه تمارس دورها الأنثوي الكامل بلا أي تقصير داخل المنزل . . ومع أي تقصير حاصل فإن الرجل الإزدواجي على أتم الاستعداد ليفرض تهديداته وشروطه إما الزواج من

أخرى أو منع عملها خارج المنزل . .!

بينما ثمة نمط رجولي متفهم لمدى ما تكابده المرأة من مسؤوليات خارج المنزل ، فتقوم هذه الجوقة بمساندة المرأة قدر المستطاع في داخل المنزل ، وكثير من نساء عربيات يشكرن ويقدرن أفضال رجالهن عليهن في مثل هذه الأمور . . فهناك رجال يطبخون ويكنسون ويغسلون ويعتنون بالأطفال في غياب الأم مع الوظيفة لهذا ثمة أسرّ استغنت عن الخادمات وبعضهم قلل من وجودهن في منازلهم . .

و آخرون يرون أن على المرأة التي أعلنت صوت تحررها بمساواتها مع الرجل أن تتحمل عبء مطالبتها بالمساواة ، فكثير من حركات التطرف النسوية تركت أثرا سيئا لدى بعض الذكور فيردون عليه بتطرف مماثل ، لكن ما يفوت مفاهيم البعض أن المرأة تريد التكامل مع الرجل لا التماثل معه وشتان ما بين التماثل والتكامل . .!

قصارى القول : على المجتمعات أن تسعى في القضاء على النظرات العنصرية تجاه المرأة وإرساء قوانين وواجبات يتحملها كلا الجنسين في جميع نواحي الحياة العامة وخاصة ، فإذا ما كانت بعض الدول تقوم بتدريس إناثها التدبير المنزلي ، فإن عليها التفكير مليا مع تطورات المجتمعات والتغييرات الحاصلة أن تدخلها ضمن جدولة الذكور ؛ كي يتفهم الرجل مهام المرأة ويعدّ شؤون المنزل جزءا من مسؤوليته . .

والغريب أن من ضمن جدولة بعض المجتمعات هو جعل مادة التربية الرياضية والتربية الوطنية مختصرة على الذكور فقط ، بينما الإناث فلا يحق لهن القيام بهذه الرياضيات أو تبني مفاهيم المواطنة والوطنية لا لشيء فقط لكونها أنثى . .!

أليست هذه الأنثى عندما تتحول إلى أم هي من تغرس في نفوس أطفالها معنى الوطن والوطنية بل الأم بحد ذاتها وطن كبير ؛ فبأي سبيل تفعل ذلك وهي في مجتمع يقلّص من وطنيتها في عالم ذكوري يرى أن الوطن والمواطنة شأن يناقشه الرجال فقط . .؟!

ومن عجائب تلك المجتمعات أنهم يرون أن عمل نسائهم في محال لبيع المستلزمات النسائية وخلافه جرما وحراما بحقهن ؛ فهذا الإجراء غير المسبوق في تلك المجتمعات سوف تفتح عيون النساء على بعضهن البعض وتسلب حق الرجل أحقية الرقابة واختيار ما يلاءم نسائهن وفقا لقاعدة «ولي الأمر أدرى بأمر امرأته» . .!

أليس من حق من تدرس إجباريا التدبير المنزلي أن يكون من أولى مهاماتها بيع ما يستلزم من ملبوسات تخصها وحدها . . ألا يسقط هذا الفعل المجتمع الذكوري الذي نأى عن نفسه منهاج التدبير المنزلي كونه شأن خاص بالنساء في فخ التناقض وفوق هذا يعمل هؤلاء الذكور كخياطين وطهاة في خارج منازلهم . .؟!

لا أقول سوى ما قالته الكاتبة «غادة السمان» : «هذه هي المرأة التي صمموا على تحطيمها باسم الدين ، لماذا . .؟ ولمصلحة من . .؟ وهل يرضى الدين الذي كان تنظيم الفعاليات الإنسانية بشكل مجتمع فاضل من أولى غاياته ، هل يرضى مثل هذا الدين بإعدام هذه الفعاليات المثمرة باسمه هو . .؟ وهو الذي كان أول من كرمها وقدرها . .؟» . .!

المرأة اليهودية بين معول التلمود وجرافة الحاخامات..!

المرأة اليهودية في الذاكرة الكونية عبر قرون التاريخ ما هي سوى مثال الأعظم للمكر والخبث والخديعة والإغواء ؛ فالتاريخ ما يزال يذكر ما سببته المرأة اليهودية «استر» في ضخ بحار الدماء التي أريقت بسبب حقدها ، وكيف مهدت «بوبيا» اليهودية الطريق لقيام نيرون بحرق روما وقتله أمه ، وكيف رقصت «سالومي» عارية بين يدي هوميروس وكان قطع رأس يوحنا المعمدان هو المكافأة ، كيف ارتقت «روكسلانا» من محظية إلى زوجة رسمية للسلطان العثماني سليمان وبالتالي تم رسم تاريخ تركيا منذ ذلك الحين؟ كيف هدد نتنياهو بإحراق واشنطن إذا ضغط كلينتون من أجل السلام وبالتالي ظهر فستان مونيكا ليحيق في شرف أحد رؤساء البيت الأبيض في فضيحة مدوية . .؟!

لكن ما سوف نكاشفه في هذه المقالة مختلف كل الاختلاف كتلك المرأة اليهودية المخادعة والماكرة والمغوية ، سوف نفغر الضوء على المرأة اليهودية الكسيرة والمخدوعة والنجسة والتي لا حول لها ولا قوة ولا حقوق في فتاوي الصهيون وتلمود اليهود ؛ فالمرأة عند هؤلاء ما هي سوى متاع أو سلعة أو لعبة أو قطعة شطرنج يحركها رجل كيفما شاءت مشيئته ، المرأة هنا هي تشييء كتحفة ، كعطر ، كتمثال حسبما الحاجة والمهمة المطلوب منها القيام به . .!

في التراث القديم للمعتقدات اليهودية نجد أن العنصر الأنثوي ينتمي إلى اليسار وهو جانب الصرامة وهو أيضا جانب النزعة الشيطانية ؛ لذا نجد المرأة ارتبطت بهذا التصنيف ، فذهبوا إلى أنها غير قادرة على أن تصل إلى درجات الفكر العليا . . وتأتي هذه الاعتقادات جنبا إلى جنب إلى اعتقاد آخر وهو أن امرأة خلقت من طين وتدعى «ليليت» مساوية تماما للرجل ثم تمردت عليه وعلى علاقتها معه وليليت هنا شيطانة . .!

يقف الرجل اليهودي كل يوم ليفتتح طقسه الصباحي بدعاء تناقلته الأجيال وحفظته عن ظهر غيب ليبارك يومه : «مبارك أنت أيها الرب لأنك خلقتني رجلا ولم تخلقني امرأة . .» . .! ولا عجب في ترديد هذا التطهر اليومي ؛ فالمرأة على المستوى الديني وكما جاء في التلمود - المحرّف - تصنف ضمن العبيد و القصر ؛ لأنها شخصية غير استقلالية لارتباطها بزوجها ، تعفى من ثلاثة أشياء هامة بالنسبة للرجل حيث يحضر عليها تلاوة الإيمان الشيماع في المجمع بصوت مسموع ، ووضع علبة التمائم على يدها ، وتعليق قائمة الشريعة على القائمة اليمنى للأبواب . . وربما مبعث هذا عائد كون في زمن التلمود يبارك ولادة الذكر وتكون الفرحة عامرة بينما عند ولادة الأنثى فالفرحة باهتة . . وعلى ما يبدو نتيجة ذلك لا يعطي للمرأة نفس الحقوق مع الرجل ، المرأة مطالبة بحفظ جميع وصايا التوراة السلبية التي تبدأ بـ«لا» ، وهي غير مطالبة بحفظ وصايا التوراة الايجابية والتي تبدأ بـ«افعل كذا . .»!

ويتبدى التباين بين الرجل والمرأة في العبادات ، فلم يكن هناك كاهنات وأعفيت النسوة من كل الوصايا المرتبطة بزمان ومكان

محددين ، فهن لسن مكلفات بأداء شعائر الحج ولا أداء الصلوات في المعبد وإن ذهبن إلى المعبد يتم فصلهن عن الرجال ، عدا ثلاث شعائر تقوم بها المرأة هي : شعائر الطهارة الخاصة بالدورة الشهرية ، وإيقاد شموع السبت والأعياد ، وخبز خُبز الحلا - الرغيف الذي يقدم في وجبة السبت - والشعائر الثلاث مرتبطات بالأسر ، أي بالمرأة المتزوجة بينما المرأة غير المتزوجة فهي لا تتمتع بمكانة عالية . .!

أما على صعيد الشرائع الزوجية كما جاء في التلمود ؛ فإن مهام المرأة اليهودية الحقيقي يكمن ضمن الزواج والأسرة ؛ لهذا مسموح للأنثى بالتزين والتطيب ؛ كي تتزوج بسرعة ثم التزين يكون خاضعا فقط لزوجها كي تحتفظ به . .! لكن هذا التزين مباح عدا يوم السبت ؛ لأن فيه كسر حرمة هذا اليوم ، أما من حيث التعدد فإن التلمود قد أباح تعدد الزوجات مادام الوضع المادي مريح ؛ فالوارد عندهم هو أن النبي إبراهيم أبو الآباء كانت له زوجتان ويعقوب زوجتان والنبي داوود ثماني زوجات وسليمان الملك كان له عدد لا حصر له من الزوجات ، ولكن مع مرور الزمن فترت هذه المسألة حتى صدر عام ١٩٥٠م قانون يمنع تعدد الزوجات . . وكذا يمنع تعدد الأزواج للمرأة ؛ والمرأة المتزوجة إذا توفي زوجها ولم يكن بينهما أبناء وكان له إخوة فعلى أحدهم أن يتزوجها وينسب الابن البكر لأخيه المتوفى حتى لا ينقطع نسبه من بني إسرائيل ، وفي حال رفض الأب تقديم نسله لأخيه فسوف يقام طقس يسمى «مخلوع النعل» وهو أن تصعد زوجته وهي تصيح أمام الشيوخ وتعلن رفض أخ الزوج أن يقيم اسما لأخيه في بني إسرائيل فيأتي الشيوخ ويكلمونه في الأمر فإن أبى تأتي زوجته أمام الشيوخ وتخلع له نعله وتبصق عليه وهي تردد مقولتها : «هكذا يفعل بالرجل

الذي لا يبني بيت أخيه» فيدعى اسمه في إسرائيل بيت مخلوع النعل ، ولا زال اليهود الارثوذوكس محافظين على هذا الطقس إلى اليوم . .!

مع الإشارة إلى أن المرأة المطلقة أو التي كانت في ماضيها مدنسة وهي العاهرة أو غير يهودية فلا يسمح للكاهن بالزواج من أي منهن . .! ويبيح التلمود لليهودية أن تزني بغير اليهودي ولا حرج ولو كانت متزوجة ، كما صرحت للرجل اليهودي أن يزني بغير اليهودية ولو أمام زوجته مادامت الزانية غير يهودية . .! ولكن من أقبح ما جاء في التلمود البابلي قولهم : «من رأى أنه يجامع أمه فسيؤدي الحكمة ومن رأى أنه يجامع أخته فسيأتيه نور العقل . .!»

أما وضع المرأة اليهودية في فتاوي الحاخامات كما وردها كتاب «فتاوي الحاخامات» للدكتور «منصور عبدالوهاب» نستعرض بعض منها :

١- كل من يحق له القضاء يحق له الشهادة ، ونظرا إلى أن المرأة لا يحق لها الشهادة فلا يحق لها الجلوس على كرسي القضاء كقاضية ، بل يمنع شهادة المرأة كونها تشهد بشكل عاطفي أكثر من الرجال .

٢- لا تستطيع أن تكون المرأة رئيسا لدولة أو ملكة ولا أن تتولى أي منصب ينطوي على أي سلطة .

٣- الابنة في كنف الأب يزوجها كيفما يشاء ، وللأب الحق في تزويج ابنته دون أخذ رأيها .

٤- لو كان هناك رجلان أو أكثر يأكلون ومعهم امرأة ، فإن المرأة لا تأكل معهم .

٥- المرأة التي تتعلم الشريعة لها أجر لكنه ليس كأجر الرجل لأنها غير ملزمة وأجرها أقل من الرجال .

٦- كل من يأخذ بمشورة زوجته مصيره جهنم . .!

٧- صوت الطفلة التي يزيد عمرها عن ثلاث سنوات عورة ؛ لذا لا يجوز لها الإنشاد أمام الرجال .

٨- من المستحسن الامتناع عن كشف الرأس في المنزل حفاظا على قدسيته ويحكى أن امرأة تقية كان جميع أبنائها الثمانية من رجال الدين وعندما سئلت عن كيفية نيل هذا الشرف ، أجابت المرأة : «لأن جدران منزلي لم تر أبدا شعري» . .!

٩- رفض رئيس البلدية مصافحة النساء خوفا من النجاسة حيث أنه لا يدري متى تكون المرأة حائضا . .!

ويبدو أن ارتفاع صوت المرأة اليهودي كان على لسان «بتي فريدان» من أنشط العناصر النسائية اليهودية الأمريكية والتي ولدت في أمريكا ودرست علم النفس وفي عام ١٩٦٣م قامت بنشر كتاب الشهير «السر الأنثوي» الذي سلط الضوء على قضية المساواة ودحض النظرة الدونية للمرأة واختصارها كأم وزوجة فقط ، وقامت بتأسيس المنظمة القومية للنساء «ناو» ١٩٦٦م وفي عام ١٩٧٠م قادت مظاهرة تضم ٥٠ ألف امرأة للمطالبة بالمساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات كما قامت بتأسيس بنك النساء والمجلس العالمي للمرأة . .

ويمكن القول أن حركات الاستيطان اليهودي أرخت الضغط على المرأة اليهودية ؛ حيث تفشي حالات الدعارة مع بروز ظاهرة زواج اليهوديات من رجال غير يهود ودخولها معترك حياة التجنيد مع الرجل وهذا بالتحديد في صالح حركات الصهينة وتظل المرأة اليهودية مجرد

أداة لتوجيه مصالح الحاخامات والصهيون ولا أفرط من دليل بقاء مشكلات الطلاق على حالها حتى اليوم ؛ فالمرأة التي تطلق لا تمنح وثيقة طلاق وتظل منفصلة عن الزوج دون أن يكون لها الحق في الزواج مرة أخرى ، كما مشكلة الهوية اليهودية . . والغريب حقا هو أن القانون الإسرائيلي يعرّف اليهودي من ولد لأم يهودية ، أمام من ولد لأب يهودي وأم من الأغيار ليس يهوديا . .!

بعد الاستعراض تاريخ وشأن المرأة اليهودية وتدني وضعها الإنساني يضع بقية نساء العالم خاصة «المسلمة» في مكانة سامقة مع الإسلام وشأنها الإنساني على كافة الأصعدة الإنسانية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية . .

إنهن نساء أولئك الملثمين..!

«قبائل الطوارق» تلكم القبائل المعروفة بالأصالة والقوة ، والرجل منهم لا يأكل لحم إبله الذي سار عليه في الصحراء ، رجال تجشّموا صون صفات أجدادهم على نحو مقدس حتى على المستوى التكوين الجسماني من طول القائمة والبسالة والصلابة والإخلاص خاصة الوفاء بالعهود ؛ لدرجة أن المؤرخين وصفوا وفائهم للعهد بأنه «إسراف» في مجتمع ذكورهم يتسمون بهذه السمات وأكثر ؛ فماذا عن إناثهم . .؟!

وإذا ما عرفت قبائل الطوارق بحياة حافلة بالأساطير والدهشة والغرابة والبساطة والطيبة في الوقت عينه فلنسوتهن أساطير وقصص معلوكة بالغرابة ليس هذا فقط ، وإذا ما كانت قبائل الطوارق يطلق عليهن بالاسم الأصلي لهم بـ«إيماجغن» أو «تماشق» وهما مرادفان لأمازيغ ومعناها «الرجال الأحرار» فيمكنني القول بيقين تام أن هذا المعنى ليس قاصرا على الرجال وحدهم ، بل حتى لنسائهم نصيب الأسد من هذا المعنى فهن «نساء أحرار» . .

تقول الروائية التشيلية إيزابيل الليندي : «حيث توجد نساء توجد حضارة» . . ولكني أضيف حيث توجد الطارقية توجد حضارات معجونة بسحر الأنفة والدهشة وأشياء أخرى آسرة ؛ فـ«نساء الطوارق»

كما نقلت من إحدى أساطيرهم : أسطورة الصحراء التي تحكمها «ملكة الجن» والتي كان سكانها هم جنودها ، ولكنهم ظلوا تحت سطوتها حتى أخذوا يسترون وجوههم خشية أن تتسرب الأرواح الشريرة لجنود الملكة إلى أجسادهم ، فكان عقاب الملكة بأن حرمت أبناءهم من الملك والسلطة في مملكتهم ، وجعلت الحكم في يد النساء ، وعيَّنت الملكة «تين هينان» ، والتي حكمت في «أرض الهجار» . . وعن تلك التسمية «الرجال الملثمين» تقول الأسطورة التي يرويها الطوارق عن توارثهم للثام ؛ بأن رجال أكبر قبائلهم ارتحلوا بعيدا عن مضاربهم لغرض ما ، فجاء العدو يطلب خيامهم التي لم يبق فيها غير النساء والأطفال وكبار السن ، فنصحت عجوز حكيم النساء أن يرتدين ملابس الرجال ويتعممن وبأيديهن السلاح ؛ فيظن العدو أنه يواجه الرجال حقا ، ففعلن وقبل التحامهن مع العدو ظهر رجال القبيلة ووقع العدو بين رجالها ونسائها وانكسرت شوكته . . الطارقية هنا كما أثبتت الأسطورة لم تكن فقط تلك الملكة التي أسست «مملكة أهاكار» بل كذلك كانت محاربة تذود عن أبناء قبيلتها بجسارة لا تقل عن جسارة الرجل . .

وبعد هذه المعركة عزم الرجال على تلثيم وجوههم حتى غدا شأنا مقدسا عند قبائل الطوارق ، لكن المدهش أن نساؤهم مكشوفات الوجه واليدين والجيد أما النقاب فهو شأن خاص بالرجال ، ولباس المرأة الطارقية عبارة عن ثوب طويل من القماش ، وكما قيل إنه شديد الشبه بالساري الهندي غير أنه ساتر ، كما أنها لا تزين وجهها بالمساحين ولا صدغيها بالحلي إلا بعد أن تأتيها عادتها الشهرية ، وحينئذ وحسب التقاليد السائدة عند هذه القبائل يقام احتفال الطمث الأول للبنات

وهو احتفال يسعد المرأة ؛ لأنهن يفعلن ما تفعله النساء الأخريات من وضع مساحيق والتزين بالأقراط والأساور ، والمرأة الطارقية هي امرأة مستقلة وتتمدد هذه الاستقلالية على نحو أكبر في حال زواجها ، وغالبا الزوج الأول نتيجة لتدخل الأهل ينتهي بالانفصال ، بينما لهذا الطلاق حكاية أخرى لا تقل غرابة عن مثيلاتها ؛ فالطلاق يتم في وسط احتفالي تحتفي فيها المرأة لنيلها حريتها فترتدي أفخر ما لديها من ثياب وتتزين بأروع ما لديها من ثمين الجواهر ، كيف لا ، ويحق لها بعد هذا الانفصال أن تختار رجلها ؛ لتقترن به دون الرجوع لأهلها ، حيث يحق لها بعد زواج الأول وربما لإقناع الأهل أن تدخلهم في بقية زيجاتها قد يودي بالعلاقة القائمة بين الزوجين ، كما يحق لها أن تتزوج أكثر من مرة ، بينما الرجال قلما ينكحن أكثر من امرأة ، لا في حال مرض زوجاتهم ولا في حال عدم إنجابهن الأولاد ، فلا يتم الزواج الثاني إلا بعد تسريح الأولى بالانفصال . .!

ولأنها امرأة تتباهى بحريتها وعزة نفسها ؛ فترفض المرأة الطارقية أن تقترن بالرجل المتزوج أو أن تشارك الحياة مع رجل يفكر في امرأة أخرى ، كما أنها لا تقبل مطلقا في أي ظرف كان أن تتعرض بالضرب من قبل الرجل ، وهو تصرف يعد عارا للرجل الذي يمد يده على امرأته وإذا وقع هذا الضرب ، فإن القبيلة بمجموع رجالها ونساءها تزدري هذا الرجل . . حتى تغدو حياته مستحيلة ؛ لدرجة التفكير الجاد في الرحيل بعد هذا النبذ والخزي من قبيلته ، وهي نظرة الازدراء نفسها تخنق الرجل في حال تسببه في حبل المرأة خارج مؤسسة الزواج ، فهو من يدفع الثمن لا هي . .

ويعرف أن مجتمع الطوارق هو مجتمع «أمومي» كالمجتمع الياباني

الذي يتصف بالصفة ذاتها الذي جعل المرأة اليابانية تستعيض عن تقلص مكانتها في المجتمع إلى دورها المهم في البيت الياباني ، هو ما جعل اليابان مجتمعا أموميا بامتياز ، إلا أن المرأة الطارقة في - مجتمعها الأمومي - لها دور في داخل البيت وخارجه ؛ فهي التي تقرأ وتكتب بعكس الرجل ، ولهذا يُنسب الرجل أو الإنسان عموماً إلى الأم ، فهي قبائل تصل نسبهم من الأم فإن كانت الأم طارقية فهو طارقي . .

كما أنها من ناحية الأعمال فإنها تصنع الخيام وتنصبنها وحقائب السفر والأواني الفضية كما أنها تساهم في عديد من الصناعات تكون هي مبتكرها ومنشئها الفعلي ، والجميل أن الرجل يعاون زوجته في أعمال الطهي ، كما يقومان كلاهما يدا بيد لرعاية الجمال والأغنام وحرث الحقول ، ليس هذا فقط . . فللمرأة الطارقية نصيب في مشاطرة الرجال في حفلات سمرهم حيث خليط من الشباب و الفتيات وأكثرهم عشاق بمباركة أفراد القبيلة كلها بينما تصدح الأغاني ، ويمكن القول كما يؤكد أبناء من هذه القبيلة أن الغناء والموسيقى عند الطوارق كالأوكسجين ، إنهم يتنفسونه بشكل طبيعي ويعيشون عليه ، فهم يرقصون بمناسبة وبدونها ، فالرقص هو الوجه المعبر عن سلوكيات وانفعالات شتى لهؤلاء القبائل . .

ومهما قيل عن نساء الطوارق ؛ هؤلاء العرب الأصائل ، فإن لهن خصوصية لا تصل بأي شكل من الأشكال في خصائص كثير من النساء في العصر الحديث ، في هذا العالم المتحضر ومهما تداعت بعض منها في نسوة الطوارق وعصرنت شطرا من عاداتهم ؛ فإنهن أوفر حظا بأشواط عن مثيلاتهن في بقاعات شتى . . فهي امرأة مستقلة

قولا وفعلا تنتقي زوجها وتتزوج أكثر من مرة دون مشاورة أحد بعد زيجتها الأولى ويتم تطليقها بسهولة ، كما يحق لها الحب بمباركة القبيلة كلها ، فالقبيلة على ثقة بأن أفرادها من كلا الجنسين حريص على عدم الخروج عن مبادئه الأخلاقية والاجتماعية . . إنه مجتمع المرأة الطارقي عرف كيف يقتل إبليس الشكوك في علاقات المرأة و الرجل ، فها هي المرأة العربية وغيرهن من نساء مسلمات هنا وهناك ما تزلن مقيدات ليس حقوقا ومشاعرا فقط ، بل هن متهمات أبدا في مجتمع غُزل من خيوط الشك . .!

هل نجعل الضوء يصرخ على معاناة تلك الطفلة اليمنية التي وئدت طفولتها في زواج مبكر فرض عليها من مجتمع متخلف أم على المرأة الأفغانية التي تساق في مجتمعها كما تساق الأتون ، منبوذة حتى من شأنها الأنثوي ، وأقل ما يقال للنساء العاملات هناك بلعنة الويل والتهديد : «نحذرك بترك عملك في أسرع وقت ممكن ؛ وإلا فسنقطع أعناق أطفالك ونحرق ابنتك»! حتى وإن كانت هذه المرأة وحيدة بلا عائل تعيل أبناءها . .!

خصوصا - المتعلمات - وإن كن حفنة قليلة . . لا خشية على المرأة كما يعتقد ولا صونا لكرامتها ؛ بل خوف رجالهم من وصول المرأة لزمام السلطة . .!

ولكن ماذا عن مجتمع الإيراني حيث يرى أن تناول المرأة «الآيس الكريم» في الشارع جُرما تستحق عليه السجن وربما عقوبة الجلد . .؟!

والإسلام الذي يزّجون قدسيته في أفعالهم براء منهم إلى يوم الحق . .!

حكاية الجنس اللطيف في اليابان(*)

حين تقرأ في تاريخ اليابان تستولي عليك دهشة مفرطة عن سمو هذا التاريخ سليل إمبراطوريات شتى كان لها التأثير الأكبر في قلب العالم ، وحين تمعن النظر إلى تلك العادات المتأصلة ، البراقة كسيف ياباني يعزز مكانة صانعه الذي نقش عن دراية كبيرة شهرته على مقبض سلاحه ؛ ليثير الجدل عن حدته وعن أصالته المطلقة حتى اليوم . .

تناهى إلينا الكثير عن نظام الحياة في اليابان ، عن التزام شعبها بقوانينهم مهما غدت صارمة ، وهو التزام جبل عليه الجميع الصغار والكبار والشيوخ . . وذلك ليس بغريب على شعب يعيش على أربع كلمات كما أشار المعالج النفسي «إبراهيم الفقي» في إحدى برامجه المذاعة وهي : «صباح الخير» . . «كيف حالك» . . «التحسن المستمر» . . «المرونة التامة» . .

وحين تدنو من الرجل الياباني والمرأة اليابانية ترى حياة حافلة

(*) يمكن القراءة بالتفصيل عن هذا الموضوع وغيره عن المجتمع الياباني في كتاب «اليابانيون» تأليف أدوين رايشاور ، ترجمة ليلى الجبالي ، مراجعة شوقي جلال ، عالم المعرفة ـ وهي سلسلة ثقافية شهرية تصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت ، ١٩٧٨م . .

بمتغيرات عديدة ، تجد تناقضات صارخة كانت سائدة في العلاقة بين الرجل والمرأة ، بينما أعنف تفريق على مستوى الوظائف بينهما هو أن معدل أجر المرأة أقل بالنصف من معدل أجر الرجل ، وعلى مستوى العلاقات الجنسية فإن المرأة اليابانية مطالبة بالوفاء لزوجها والإخلاص له ، بل إن بعض العادات تحتم على المرأة المتزوجة ألا تتبرج ولا ترتدي ملابس جميلة أمام رجال آخرين ، وقد تبالغ إحداهن حتى يصل بها الأمر إلى تلطيخ أسنانها البيضاء بالفحم ؛ كي لا تلفت نظر الغريب إليها ، ويعد اتصال الزوجة بأي رجل من خارج العائلة أمرا خطيرا . .

بينما الرجل يمارس كافة حقوقه بحرية مطلقة ، فليس من الغرابة أن يرفّه الرجل عن نفسه بقضاء بعض الوقت في إحدى البارات قبل أن يذهب إلى منزله ، والمدهش أن نظرة اليابانيين إلى هذه الخطيئة باعتبارها في مقام تناول وجبة طعام الذي يتمتعون به في المكان المناسب ، فلم تعد قضية تعدد العلاقات الجنسية مشكلة في حد ذاتها أكثر من الشذوذ الجنسي ؛ لأنها علاقات يبيحها المجتمع . .!

ولا تتوقع مطلقا ثناءً من الرجل الياباني على المرأة اليابانية بل إنه يوصمها أمام الآخرين بـ «الزوجة الغبية» انتقاصا لشأنها ، وردود أفعاله تجاهها تكون جافة ومقتضبة ، هكذا كان سائدا في الطراز القديم وعند بعض الأزواج في الوقت الحالي ، والرجل الياباني ليس كالرجل الغربي فهو لا يوصف مشاعره علانية تجاه زوجته في الأماكن العامة ، ولربما ذلك راجع إلى أسس الزواج في هذا المجتمع ، فالزواج يكون تقليديا يتولاه الأبوين باختيار الفتاة لابنهم وفي حال الموافقة يتم اجتماع الأسرتين ؛ كي توثق بينهما الصلة لإتمام الموضوع وليس من الضروري أن يكون أساس التوافق في الزواج راجعا إلى إعجاب متبادل

أو وجود رابطة حب ، فطالما كان الزواج محددا باحتياجات الأسرة وليس نتيجة وجود صلة إعجاب أو حب بين طرفين فهو بحد ذاته كافيا ، ورؤية كل منهما الآخر قبل الزواج ليس شرطا أساسيا ، بل تقوم مقامها عادة صورة متبادلة بين الأسرة الخاطبين . .

والأسرة اليابانية تحرص على تربية الفتاة وتنشئتها تنشئة صالحة ، لتكون عنصرا قيما لا تشوبه شائبة في سوق الزواج ، وهذا حدا بعض الفتيات إلى إهمال دراستهن الجامعية التي تتعدى أربع سنوات من أجل الزواج والتفرغ له . .

والفتاة حين تتزوج ، بعض الأسر اليابانية يعدونها بمثابة الميتة ؛ لأنها تكون طيعة في يد حماتها ، وهي حين تكون زوجة تتقلص حياتها الاجتماعية وتكرس حياتها بإيثار تام لرفاهية عائلة زوجها تحت إشراف حماتها الصارم . . وتظل هكذا إلى أن تزوج ابنها لتتولى زوجته دورة حياتها ، بينما تمارس هي حقوقها الاجتماعية التي حرمت منها قبل ذلك . . بينما فترة قبل الزواج هي فترة الحرية بالنسبة للفتاة وهي الفترة عينها تمارس فيها حياتها الاجتماعية . .

وكل هذا بسبب تأثير فلسفة – الكونفوشيوسية – فمازال للمأثورة القديمة بعض الشرعية والتي تقول : «إن على المرأة أن تطيع أباها في صباها ، وعندما تصل إلى سن الرشد عليها أن تطيع زوجها ، وتطيع ابنها في سن الشيخوخة» . .

وهي نتاج المجتمع الأبوي الصيني المؤمن بسادة وقوة الذكر ، والتي كانت تنظر إلى النساء باعتبار أن وظيفتهن هي الحمل وتربية الأطفال وتخليد الأسرة أكثر من كونهن شريكات للرجل في الحياة أو موضوعا للحب . . ولا يدهشنا ذلك ؛ لأن قوام فلسفة كونفوشيوسية تقلص من

حق الرومانسية على أساس كونه ضعف والجنس مجرد عملية آلية للحفاظ على استمرارية العائلة . . وغدت المرأة في المجتمع المتحضر «المهذب» في فترة حكم توكوجاوا وصيفة خاضعة تماما للرجل ووسيلة من وسائل الترفيه عنه . .

لكن المرأة الريفية لكونها تعمل جنبا إلى جنب مع زوجها في الحقول ؛ فإنها ظلت محافظة على وضعها نظرا لاستقلالها المادي . .

وإذا كانت مكانة الرجل في اليابان تقاس بالمؤسسة التي يعمل بها وترنو أهميتها إلى أهمية كيانه الذكوري في المجتمع ، فإن المرأة اليابانية هي جنة المنزل الياباني وهي المؤسس والمدبر الأساسي له . . وهو تناقض صارخ يضاف إلى تناقضات فاغرة الدهشة لهذا الشعب ، فلا تعرف معنى غرابة الأطوار حين تكون في اليابان . .!

كما قالت الكاتبة أميلي نوتومب(*) في روايتها الصادرة عن

(*) رواية «ذهول ورهبة» للروائية البلجيكية أميلي نوتومب ولدت الكاتبة البلجيكية في عام ١٩٦٧ م في مدينة كوبي اليابانية ، من أب كان يعمل سفيرا لبلجيكا ، تنقلت معه بين الصين وروما ونيويورك واليابان ، فاشتاقت إلى مراتع طفولتها اليابانية ، فعادت إليه ، وعملت هناك في وظيفة ، والرواية تشير إلى اسمها الحقيقي ، وهي انطباعات روائية صدرت عام ١٩٩٩ ونالت عنها جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى ، حيث سردت عن جوانب التناقض السائد عند اليابانيين ، تحكي عن بطلة تعيش في اليابان وترتكب أخطاء كثيرة ، فتقديم الاستقالة في اليابان يعد إهانة للأعراف اليابانية ، وحين تهنئ البطلة رئيس شركتها على بلوغ طفلته سن الثالثة نراه يتذمر لكونها كشفت «عورة عائلة» . . .الخ ، الرواية صادرة عن وزارة الثقافة في دمشق ، ٢٠١٠م . .

اليابان «ذهول ورهبة» : «الأنظمة الأكثر استبدادا تتسبب في حالات انحراف عجيبة تجعلها تتسامح مع الظواهر الشاذة ، ولن نعرف معنى غرابة الأطوار حتى نلتقي مع ياباني . إن اليابان بلد يعرف معنى أن (يطق) الإنسان من القهر» . .

فالمجتمع الياباني هو «مجتمع أمومي» مذ أصالته الأولى يتميز بقيادة الأم للعائلة في طبقات المجتمع الدنيا ، وكانت «الشمس الإله» هي السلف الأسطوري للسلالة الإمبراطورية ، حيث كانت زعامة الإناث شائعة في القرن الثالث الميلادي ، وكانت هناك إمبراطورات تولين الحكم في القرن الثامن الميلادي ، وكن النسوة يرثن الممتلكات ويؤدين دورا هاما في النظام الإقطاعي . . وهنا انبثق تأثير الفلسفة الكونفوشيوسية للحد من حرية النساء لكون المرأة بعد تخطيها مرحلة التدريب ليس لها القدرة على حمل السيوف كقدرة الرجل ، ولعل هذا الحد هو الذي جعل المرأة اليابانية تستعيض عن تقلص مكانتها في المجتمع إلى دورها المهم في البيت الياباني ، هو ما جعل اليابان مجتمعا أموميا بامتياز _وهو النظام الذي ينسب فيه الأبناء لأمهاتهم - وعليه فإن المرأة هي التي تتولى كافة شؤون البيت ، فالرجل يضع راتبه كله في يد الزوجة ، وهي التي تقضي كل حاجيات البيت وتشتري السيارة وتعطي الرجل مصروفه ، ونرى كيف أن تأثيرات هذا النظام الغريب الذي قل من شأن الرجل في المجتمع الياباني ، فالرجل أي الأب رغم أنه هو الذي ينفق على الأسرة فإنه في الواقع أقرب ما يكون إلى الرمز ، لا نفوذ له في شؤون الأسرة ، والأم هي التي تدير ميزانية الأسرة بصورة قاطعة ، والأم هي التي تعنى بشؤون الأطفال وتنشئتهم تنشئة صالحة ، والجدير بالذكر أن المرأة اليابانية المتزوجة حين تكون عاملة ، إن رزقت

بطفل فإنها تستقيل من وظيفتها ؛ كي تتفرغ كليا لتربية الطفل وحين يبلغ سن المدرسة ، فإنها تعود لعملها مرة أخرى . . و قد لا تجد أما تعتني بتربية أبناءها مثل الأم اليابانية ؛ فهي ومنذ فترة رضاعة طفلها ، تبدأ بسرد القصص والأحاديث التي تنمي لدى طفلها الأخلاق الفاضلة ، وتغرس فيه حب الوطن والخير ، وعشق البطولة ، وتمجيد الآخرين ومن هم أكبر سنا ، إنها حقا أشبه بمدرسة فاضلة . .

واليابانيون لا يعرفون نمط الأب المتسلط المستبد المعروف في مدرسة فرويد لتحليل النفسي ، لكنهم يعرفون صورة ارتباط الذكر القوي بالأم ، واعتماده الشديد عليها حتى ليصل وصفه ارتباطا مرضيا بالأم على المستوى السيكولوجي . .

حتى أن الزوج نفسه أحيانا يغدو وكأنه الطفل الأكبر لزوجته الذي يحتاج منها رعاية لطيفة وتدليلا ، وهذا يتبدى جليا ضعف شخصية الرجل الياباني في أسرته وعادة هذا ما يكون مبعثا لمشاكل أسرية . . بينما في الوقت نفسه ينتظر من الزوجة أن تكون «سيدة محترمة» توفر حياة هنيئة لأسرتها . .

وهذا الجانب هو الذي يعزز من مكانة المرأة في هذا المجتمع الغريب والمدهش والمتناقض ، وفي السنوات الحالية نرى كيف أن المرأة اليابانية استطاعت أن تخوض عدة تحديات ، وغدت إلى جنب الرجل تمارس دورها في داخل وخارج المجتمع الياباني الذي ينحو في اتجاه تطوري نحو اكتساب قيم ومفاهيم عدة من الآخرين ، فقد أعطى القانون الياباني المدني في عام ١٩٤٦م المرأة وضعاً مساوياً للرجل في كل مظاهر الحياة على عدة أصعدة ولعل من أهمها منح المرأة حق الانتخاب في البرلمان والمجالس المحلية ، وتخصيص مقاعد لهن في مجلس النواب ، ومنهن

من ترأس المجالس البلدية والقروية ، وفقاً لمبدأ المساواة بين الجنسين . .

وتجد في الوقت نفسه تجدد قديمها بطريقة لا ينقصها الأصالة ، فالكيمونو اللبس التقليدي للمرأة لم يبق كما هو ، فالمرأة اليابانية اعتنت به بحيث أصبحت أقمشته تجاري ما هو مطروح في الأسواق الحديثة ، ولأن الكيمونو يستدعي من المرأة مبلغا طائلا لتفصيله ؛ فإن بعض النسوة غدون اليوم يرتدينه في أوقات المناسبات فقط ، وأولئك اللاتي يعشن في ترف اجتماعي . .

ويبدو أن المرأة اليابانية متوحدة في سماتها وفرادة خصوصياتها ولن تشبه قط أي امرأة في أرجاء العالم ، لا في غرابة وضعها ، ولا في أصالة قيادتها لأسرتها ، ولا في أمومتها المثالية تجاه أفلاذ أكبادها . .

فلا عجب حين تقول إحدى أمثالهم : «إن اليابان جنة الرجل» . . . .!

أسئلة في رجولة مقموعة
وأنوثة متحررة..!

قرأت خبرا من فترة قريبة عن العارضة الروسية «ماريا كوز هيفنيكوفا» البالغة من العمر ٢٧ عاما ، نجحت في حجز مقعد لها في البرلمان الروسي ، وهذه العارضة ظهرت على غلاف مجلة «بلاي بوي» الإباحية ، ويبدو أنها ليست الوحيدة التي أنظمت إلى البرلمان بمعية جسدها بل أيضا انظمت للبرلمان بطلة الجمباز «سفيتلا ناكهوريكنا» التي ظهرت عارية على غلاف مجلة والمتزلجة «سفنتتالا زهوروفا» عضو البرلمان عن حزب «روسيا الموحدة» وظهرت عارية في مجلة «جي كيو» وغيرهن . .!

ويبدو أن السياسة الروسية المشكوك في انتخاباتهم لها دأب غريب في اختار مرشحيها ؛ لتولي مراكز مهمة في القيادة السياسية في البلاد . .!

ويبدو أن «الجسد» في عصرنا الحالي غدا سلاحا «تحريضيا» من جانب و«إغرائيا» من جانب آخر حسبما جنس هذا الجسد وغاياته . .!

أما الجانب «التحريضي» فيتعلق بالرجل . . «الجسد» هو سلاح الأنظمة الفاسدة والمستبدة لقمع صوت وأحلام وتطلعات الإنسان والإنسانية ، ومسلسل قمع الجسدي متفشي وما يزال فجميع القوى عبر التاريخ عندما كانت تعييهم مآربهم لكتم طاقة وصوت كائن ما ،

فإن التخلص الأبدي من تلك الطاقة الصوتية أو الكتابية أو الثورية هو أقذر سبيل على مقاس دناءة تفكيرهم . . أما أساليب التخلص النهائي لاغتيال صاحب الجسد فما أكثرها . .!

يمحون وجودهم - حسبما اعتقادهم الساذج - أن برحيله سوف يغتالون تاريخه وصوت نفسه وأفكاره ونهجه ؛ لكن ليس برحيل الجسد تموت الرموز والقامات الإنسانية الأصيلة فها هو «غسان كنفاني» الصوت الفلسطيني رحل بتدبير صهيوني خبيث ولكن «غسان كنفاني» كرمز وقامة فكرية أدبية ثورية ما يزال قائما ، وها هو الثوري الأشد شهرة في كافة أرجاء الكون «تشي غيفارا» ما يزال يتضوع نورا وحماسة بين شرائح المجتمع العالمي والعربي ، إذا الأبطال خالدون مهما سحقتهم الأنظمة المستبدة . .!

ولأن أشكال الـ«قمع» تتعدد في بقاعنا العربي وهو في تكاثر متنام من قمع روحي وآخر جسدي وعقلي وفكري ولساني ونفسي ، بالمجمل كل ما له صلة بمسمى الحواس والوسيلة المثلى والوحيدة لمنع تفشي المحسوسات الداخلية والخارجية بكافة توجهاتها هو قمع «الجسد» ؛ فالأنظمة القمعية لا تفهم سوى لغة الضرب والسحق والبتر والنفي والحبس ، ولأن بقية المحسوسات معنوية . . فإن وحده - المسكين - الجسد هو واجهة القمع ، فلا غرابة في نظام الأنظمة القمعية السعي إلى جعل «جسد» الرجل مزارا للتخويف والعربدة وتوسيع نطاق العبودية وتفعيل كافة سبل استهجاناتهم عليه ، بينما مع النساء فالنهج مخالف تماما فهم يستعرضون عريهنّ وحكاية «فتاة التحرير» التي سحلت وتعرضت للإهانة والتعري من قبل عسكر مصر أشهر من نار على علم . .!

ولكن ثمة نسوة يعرضن أجسادهن للعري بملء إرادتهن لأغراض عدة حسبما كل جسد ومأربه . . فالفتاة «مدونة الثائرة العارية» علياء ماجدة المهدي التي نسبت نفسها لوالدتها والتي استعرضت نفسها عارية إلا من جوارب سمراء وحذاء أحمر - وهذا يذكرني شخصيا - بنهج «مارلين مونرو» في أحد أفلامها حينما استعرضت عريها إلا من حذاء والمشاهدين يومئذ اسقطوا العري وحدقوا إلى الحذاء المعروض . .!

السؤال الأول : هل الرجل يمشي عاريا في المجتمع الشرقي . .؟!

الفتاة العارية الثائرة من خلال جسدها تطالب بحقها في المساواة مع الرجل وكأن الرجل يمشي عاريا في الشارع ؛ فأي مساواة هذه ومن هو الرجل «الشرقي» الذي يرغب أو يريد أن تحرر نساؤه على هذا النحو من المساواة ، بل الذكورية الشرقية واضحة تماما في نظرتها إلى الجسد الأنثوي ، الجسد العاري قد يرتضيه المتحرر لصديقاته ولكن حين يتعلق الأمر بنسائه بأمه وأخته وزوجته فلن يرتضيه مطلقا وبشكل قطعي ، وما تصفيقه على عري غيرهن من النساء ما هو سوى استخفاف ومن باب التمتع لا أكثر وأقل . .!

وهذا أمر طبيعي فالجسد الأنثوي في معظم الثقافات «تابو» لأنه يمثل الشرف بالمرتبة الأولى ويمس كرامتها ، ولكن الأكثر غرابة هو سعي المرأة نفسها إلى التعري من أجل غايات وهمية وعلى رأسها المساواة مع الرجل . .!

حتى في أوروبا بلد التحرر والعري بات المجتمع لا يقبل بهذا التفسخ الرخيص ومن سنوات قريبة قامت فتاة سويدية تدعى «آنيا كارلسون» بطمس صور فاضحة للعارضة الألمانية «كلوديا شيفر»

بالطلاء الأسود ؛ لأنها تعرض إعلانا للملابس الداخلية في شارع عام ، ورغم رفع دعوة قضائية ضد تصرفها من قبل الشركة المعروضة ، إلا أن موقفها أخذ تأييدا واسعا من قبل الشعب والصحف والإذاعات لنبذهم فكرة استغلال جسد المرأة وهو ما سوف يؤدي إلى كارثة اجتماعية كبرى على مدار سنوات قادمة ، وهذا العمل الاحتجاجي حذا حذوه معظم المنظمات والأحزاب النسوية الأوروبية لوقف توظيف جسد المرأة لأغراض تجارية ، فهذه الإعلانات التي تعرض في الشارع تؤدي إلى تشتيت تفكير السائقين وبالتالي مخاطر حوادث مميتة ، بل هناك جوائز أعلنتها منظمات عدة منها جمعية «نساء الصحافيات» في فرنسا خصصوا جائزة لإعلان أقل خدشا للحياء بعد أن طغت الإعلانات الفاحشة نابذين فكرة تشييء المرأة واستغلال جسدها لأغراض تجارية . .!

وثمة دعوات شبيهة للفصل بين الجنسين في المدارس عند سن معينة ، وسعي حثيث من قبل جمعيات ألمانية لمنع «التقبيل» في الأماكن العامة ، فطبيعة مجتمع الألماني المحافظ تحضر هذه السلوكيات خاصة و أجيالها يتعاطون في المدارس مبادئ سلوكية محافظة جدا . .

هنالك كثيرات لا يفهمن مفهوم التحرر وأصله . . المطلوب من التحرر هو أن يحفظ للمرأة فضيلتها وكرامتها ولا يقضي على أنوثتها ومكاسبها الأنثوية ، فالأصل هو «التكامل» مع الرجل لا «التماثل» معه . . التماثل أمر ليس في صالح المرأة مطلقا وهي بذلك تعرض أنوثتها وإنسانيتها لدروب لا تحمد عقباها مع مرور الزمن . .

السؤال الثاني : هل تغيرت نظرة الرجل إلى المرأة عندما تعرّت . .؟!

ظاهرة «المتظاهرات العاريات» صارت من سمات الغرب ، كنساء الدانمارك في وقت ما سعين إلى التعري في المسابح العامة من باب المساواة مع الرجل ، ولكن النتيجة أن إقبال الرجال على تلك النوادي غدا أكثر كثافة مما حدا بالنسوة أنفسهن إلى التستر بالمايوه بعد أن فقدن الأمل من تقدير واحترام الرجال لهن وهن عاريات . .!

ولعل ما يحدث في بريطانيا التي أبدت فيه جهة معينة من فترة قريبة بفتح صالون حلاقة بالقرب من حي الأندية الليلية وتعيين فتيات عاريات الصدر للعمل وذلك ؛ لزيادة إغراء العملاء للإقبال على الصالون . . إذن الأمر خارج «سلوك الاحترام» المتوقع من الرجل للمرأة المعروضة كسلعة وداخل في «الربح التجاري» من قبل الجهات المستفيدة من الصفقة . .!

بل إن أشهر فلاسفة القرن العشرين «جان جاك روسو» الذي كان له آراء ثورية عن العدالة والحرية والمساواة خاصة ، والذي عاش بين أحضان النساء حتى يصعب على المرء من إحصاء عددهن ، يأكل من طعامهن ويسكن في بيوتهن ويستمتع بخبراتهن جسدا وروحا وفوق هذا لم ينطق في حقهن كلمة واحدة تنصفهن في المجتمع سواء في آرائه أو في كتابه «إميل» . . ورد فعل هذا الفيلسوف عائد إلى العرف الذي كان سائدا عن مكانة المرأة في المجتمع الأوروبي في ذلك الوقت ، ورغم أن المرأة الأوروبية قطعت أشواطا هائلة لإبراز مكانتها لا كشيء أو فتنة بل كجسد به روح و له كيان مستقل ولم تسلم كليا من آثار بعض النظرات المجحفة لها من الذكور ، فكيف الحال إذن مع المرأة العربية في مجتمعات ما تزال تطالب فيه المرأة حقها في قيادة سيارة أو بيع مستلزمات نسائية تخصها في محلات عامة هذا هو حال العرف

الشرقي المهيمن الذي يتفاوت شكليا فقط من مجتمع إلى آخر وتحتمل المضامين نفسها . .؟!

إذن لم يعـد «العـري» طريقـا إلى التـحـرير أو شـجب مطالبـات بل على العكـس اليـوم غـدت «الحـشـمـة» هي مـا تلفت النظر ، فـتظاهرة للمنقـبـات في وسط سـاحـات باريس تبـدو أكـثـر تأثيـرا وأعظم إفـرازا للنتائج من اللحم المكشوف كالفراريج . .!

مكتبة
t.me/soramnqraa

أسئلة في رجولة مقموعة
وأنوثة متحررة..

السؤال الثالث : هل المتحررة راضية حقا بالتخلي عن مكاسب «الشرقية» فيها . .؟!

في حوار لمجلة باري ماتش في عام ١٩٨٩م مع السيدة «عبيدة حسين» وهي كانت أول نائبة منتخبة في البرلمان الباكستاني ردا على سؤال حول الصعوبات التي لقيتها كامرأة سياسية علقت بقولها : «إنه أقل صعوبة لأنني امرأة ، ففي الشرق تتمتع المرأة بحماية ورعاية لمجرد أنها أنثى ، نعم بالتأكيد كان دربي ستكون أكثر صعوبة لو كنت في الغرب» . .

قياسا على هذه العبارة وغيرها لا يمكن النكران أن المرأة الشرقية تتمتع بمزايا وخصائص واستثناءات تفتقدها المرأة الغربية ، فهناك في أوروبا تصرف لا يدعوا للدهشة البتة حينما يشتري الزوج له نصف رغيفه ويترك زوجته تبتاع نصف رغيفها ولكن العربية التي لم تألف هذا السلوك في شرقها ، فإن أقل ما تفعله هو شتم الرجل ونعته بالبخل والمساس برجولته إن لم تتطور الأمور إلى الطلاق . .!

كما أن مطالب المساواة بين الجنسين في الغرب ومناداة المرأة بها أثرت عليها ، ففي الوظائف ثمة جهات لا تراعي حال المرأة الحامل ولا تحرر لها إجازات للوضع أو الاعتناء بالطفل ولا ساعات الرضاع . .! ولمن

يطالع كتاب «حياة منقوصة - أسطورة تحرر المرأة في أمريكا» لمؤلفته «سيلفيا آن هوليت» وهي تحكي تجربتها المريرة كأستاذة جامعية في إحدى الجامعات الأمريكية حين رفضت إدارة الجامعة منحها إجازة أمومة واضطرت نتيجة ذلك للإجهاض ، بل إن عميد الكلية أنذرها إن حملت ثانية فسوف تتعرض للفصل من وظيفتها ، ولكن نداء أمومة كان أقوى فحملت للمرة الثانية وأكملت مشوارها الوظيفي بمعية أربعة أطفال أنجبتهم تباعا . .!

السؤال الرابع : لماذا مفهوم التحرر عند المرأة يكمن في حدود الجسد وعند الرجل في نبذ المذاهب والأديان . .؟

وزير الداخلية الإيطالي السابق عندما طلبوا منه حظر الحجاب قال : «كيف تريدونني أن أفعل ذلك والعذراء كانت ترتدي الحجاب . .؟!»

النساء الرافعات لشعار التحرر في معظم دولنا العربية يعتقدن أن الحجاب قيد والتستر عبودية ، وأنهن كلما خلعن الحجاب وكلما قصرت التنورة عن الركبة فهذا هو التحرر ، كثيرا ما يتناهى إلى أسماعنا بعض من الفتيات يرفعن أصواتهن بعنجهية غريبة عندما تخلع إحداهن الحجاب فتهتف بفخر : أوووف ؛ تحررت أخيرا . .!

والجدلية تكمن أن هذه المرأة عندما تتحرر بمفهومها تظل ملاحقة داخليا بعدم الرضا عن من حولها في المجتمع وترفع صوت هجومها خاصة على المحجبات ، وتفكير نزع الحجاب ومهاجمة النساء المحجبات مبعثه قصور وعيها الفكري والثقافي والعلمي وهو بحد ذاته محاججة

ودفاع عن حيز حريتها الضيق المختصر في نزع الحجاب . .!

ورغم هذا معظم المحجبات أو اللاتي نشأن في بيئات محافظة على مدار سنوات يجدن سببا وجيها للعودة إلى التحجب والسير على نهج التربية والبيئة التي خرجن منها ، ولعل شريحة معظم الممثلات والمغنيات والإعلاميات خير دليل . .!

لكن التي ترعرعت في بيئة متحررة ، فإن الوضع يختلف تماما وليس ثمة أزمة وبل هي تمارس تحررها بشكل طبيعي دون أن تنبذ الفئات الأخرى المختلفة عنها مظهرا وفكرا و تحيا على سجيتها بلا عقد ، وفوق هذا نجد عند هذا النمط التزاما ورقيا في الأخلاق والمثل أكثر من تلك المرأة التي كانت في بيئة منغلقة ثم حررت نفسها على - حد قولها - من براثن الغابة التي حادت عن سربها . .!

«ثورة الحريم» حين تنحرف صوب الشذوذ والتطرف والبعد عن الواقعية والرغبة في الاستفزاز جهات معينة أو تحدي الجنس الآخر بدلا من البناء داخل بلاط القيم الإنسانية يبدو حينئذ أمرا داعيا للاستنكار والنبذ وخارج نطاق الاحترام . .!

بل السعي الحقيقي هو أن تدعو المرأة المتحررة إلى «ثورة كرامة» للقضاء على مفهوم «المرأة الدمية» ومحاربة الأفكار البالية التي تنتقص من حقها على أصعدة عدة في الحياة العامة والخاصة ، كثير من النساء محجبات وملفوفات في عباءات لأجل عيون العرف والعادات والتقاليد وأوامر ولي الأمر . . يبدو الأمر خارج نطاق الرغبة وخارج نطاق الاقتناع والمتحررة هنا من الطبيعي أن يغدو أولى مطالبها في جدولة المطالبة هو السفور انطلاقا من مطالب شخصية وتعميمها ، وهي تعتقد أنها بذلك تحرز تفوقا في سلم مطالبها التحررية ولهذا تقع صدمة موقف المجتمع

والذكور من خطوتها وندائها المتحرر بل حتى من قبل بنات جنسها ، فالمجتمع بعرفه والذكر بعاداته وتقاليده وقلة منهم من يلتفت بقين إلى مسألة الدين وحكمه في هذه المسألة . .! أما بنات جنسها فليس كلهن محجبات لدواعي أعراف أو ضغوط عادات وتقاليد بل رغبة داخلية كامنة في الستر والاقتناع الكلي . .

لهذا المسألة ليست في تعرية جسد بل في صحوة الأفكار وتطويرها بما يتناسب وقيم الإنسانية العامة ، تحرير من بعض القوانين الاجتماعية المتوارثة ووجهات النظر التقليدية التي لا تنطوي على أي معنى إنساني والتي تشوّه شخصية المرأة كإنسانة ، والتي تسقط إنسانيتها ككائن حي لها حقوق كما لها واجبات ، لها صوت وعقل ليس فقط جسد مغري ووجه فاتن . .!

بينما الرجل لا أقل قيدا من الأنثى في مجتمعاتنا العربية ، هذه الذكورية المنفوخة من قبل القبيلة بأنه نسر الصحراء وأسد الغابة تضع على كاهله شروط ومسؤوليات الرجولة مذ خشونة أظفاره . . ولرجل اليوم مفاهيم في قاموسه مختلفة تماما عن مفاهيم بيئته ونمط قبليته ، فكان من نتاج هذا التباين ما بين الرغبة في الانفتاح الخارجي وإرضاء المثل الداخلية ينشيء زعزعة في كيان الرجل ويسقطه في دوامة التناقض ، ومنهم من يسير على نهج التناقص طوال مشوار تعاطيه في الحياة مع الناس ليرضيهم وليلمّع صورته أمامهم ، والنمط الثاني يعلن عصيانه وتمرده على ملأ ويصب جام غضبه على الدين وأبسط طرق التحرر على - حد اعتقاده - هو الخروج عن الطريق المستقيم على شكل إلحاد وازدراء الأديان والمذاهب . .!

ترسبات العرف وتراكمات بعض العادات والتقاليد تظل غائرة في

نفوس أفراد المجتمع ؛ لهذا الرجل الشرقي عندما يرتبط بامرأة غربية تبهره حريات الغربية في امرأته في البدء ولكن حينما يمتلكها فإن الوضع يتغير ويبدأ الرجل بممارسة تنغيمته الشرقية المعروفة بالعودة إلى أصله الشرقي وأعرافه وتقاليده . .

إن مفهوم الحرية في كل المجتمعات العربية والمحافظة على الطريقة الإسلامية تنظر إلى الحرية على أنها تخلص من عقدتي الجنس والدين دون التفكير في النماء الفكري المختص في التعليم ، والنماء الوظيفي المختص في العمل ، والنماء الأخلاقي المختص بقيم ومفاهيم الصدق والوفاء والإخلاص واحترام الرأي الآخر ، وهذه الأخلاقيات هي عماد الحرية وجوهرها وما يفوتهم أن الحرية مسؤولية لهذا تشكل عبئا لمن اعتاد على العبودية . .

وهذه الجوقة هي أكثر من تنبذ مبدأ «حريتي وحرية الآخر» كشيء واقعي فاعل بينما يطبلون محافلهم بثرثرات عريضة وطويلة وممتدة عن الحريات الفارغة عن وزن الفعل الحقيقي . .!

السؤال الخامس : لماذا الرجل الداعي إلى التحرر يضع أول شروطه تحرر جسد الأنثى ويكون هذا السعي هو أهم أهداف تحرره . .؟!

تفاعل الكثيرون من الجنسين مع هذا السؤال الذي طرحته على حائطي في الفيس بوك . . وقد أجمعت آراء الذكور والإناث على أن الرجل المتحرر غرضه من تحرير جسد المرأة ؛ لأنه عبد شهواته وإطلاق هذه الدعوة هي غاية خصبه له . .!

وخرج الحوار بأسئلة طرحها المتحاورون . . أما السؤال الأول : «لماذا دعاة تحرير المرأة من الرجال يطالبون بمطالب لا تدعو إليها داعيات تحرير

المرأة؟!» أما السؤال الثاني : «لماذا دعاة تحرر المرأة يستثنون نسائهم منه . .؟!»

ويبدو أن «المرأة» سوف تظل صراعا ما بين المتدينين والمتحررين ؛ فالمتدينين ينادون بتغطيتها من رأسها إلى أخمص قدميها لئلا ينفذ إليها هواء ملوّث ، والمتحررون يطالبون بتحرر جسدها وكأنها عاهة يجب أن تعرض للتشميس . .!

وسؤال أخير : لماذا لا يسأل هؤلاء الصائحون بأصواتهم الترهيبية والترغيبية المرأة عن مطالبها . .؟!

اكتفي بوضع هذا السؤال والبقية لكم أيها القراء ، لتتجولوا في لغز إجابته فلا نية لي مطلقا التحدث عن لسان بنات جنسي ؛ لإيماني المطلق أن لكل واحدة منهن صوت ولم تلتهم القطط ألسنتهن . .!

غرفة المؤامرات

الكلمة براء من سوء نيّتك أيها الشيطان . .!

العرب من وجهة نظر يابانية..!

من البـؤس أن تكون عـربيـا والأكـثـر بؤسـا أن تعـيش في دولة عربية . .!

هذا ما جسسته بعمق وأنا أتجوّل كقارئة أولا وبنبض عربي ثانيا في سطور كتاب المؤلف الياباني «نوبوأكي نوتوهارا» في كتابه الذي خصصه عن العرب وقد كتب بلسانهم أيضا وانتخب عنوان «العرب من وجهة نظر يابانية» كونه قضى أربعين عاما وهو يرتحل بوفاء كالنورس في عواصم العربية وتواصل بصداقات شاملة مع الفلاحين في أرياف مصر والبدو في بوادي الشام ، فما أدق بصيرته وهو يتحسس جراحات الوطن العربي الغائرة ، تلك التي من المشقة ترقيعها إلا بجهد جهيد وبمسؤولية مشتركة ما بين الحكومة والشعب . .!

ولقد أشار في كتابه إلى نقاط مهمة قل أن يجسها سوى خبير بالنفس العربية ، فالمستعرب الياباني توصل نظير إقامته الممتدة في أصقاعه أن أول ما يفتقده الإنسان العربي في وطنه هو «غياب العدالة الاجتماعية» وقال بالعبارة : «تحت ظروف غياب العدالة الاجتماعية تتعرض حقوق الإنسان للخطر ، ولذلك يصبح الفرد هشا ومؤقتا وساكنا بلا فعالية ؛ لأنه يعامل دائما بلا تقدير لقيمته كإنسان ، واستغرب باستمرار لماذا يستعملون كلمة الديمقراطية كثيرا في المجتمع العربي . .؟

إن ظروف الواقع العربي لا تسمح باستعمالها لأن ما يجري فعلا هو العكس تماما . .»

لقد أفرزت غياب هذه العدالة الاجتماعية نتائج سلبية على سلوكيات الفرد في هذه المجتمعات ، لعل من أبرزها التوتر والإحباط والكآبة وهذا يمكن رؤيته بوضوح في شوارع المدن العربية ، فالناس ليسوا سعداء وليسوا مرتاحين وثمة صرخات في هذا الجو الخانق وهي صرخات مكبوتة ، وحين يشطر المرء ناظريه إلى الطوابير الطويلة لشراء الخبز أو رؤية الحافلات المكتظة تجري بينما يتعلق الركاب بالشبابيك والأبواب لكي يركبوا بأي ثمن كل هذا يشعر بمرارة هذا الإنسان . .!

بل إن غياب حق الفرد من العدالة الاجتماعية برز تأثيره على شخصية الفرد وتعاطيه مع الآخر في المجتمع الواحد . . على سبيل المثال سائق التاكسي مضطهد هو الآخر ، فهو ينتقي ركابه حسبما المكان ومظهره أما الذي لا ينال إعجابه فلا مكان له في التاكسي ، وهو شأن لا يمكن أن يحدث في اليابان كما يرى المؤلف . .! والأمر نفسه تجاه معاملات الفرد في مكاتب الحكومية المكتظة بالمراجعين ، لينهي الموظف الحكومي ذاك الطابور الممتد بلفظة «بكرة» وهذا يعني نفس المنظر والمراجعين كل يوم ، وثمة استثناء لمن لديه معارف من أولئك الموظفين فينهون معاملته بأسرع ما يكون . .!

كما تغيب مسؤولية الفرد تجاه أخيه الفرد في المجتمع ، فالسجين السياسي الذي هلك نفسه من أجل الشعب يتصرفون مع قضيته كأنها قضيته وأسرته وهي وحدها تتحمل أعباءها لا المجتمع ، وهو أخطر مظاهر عدم الشعور بالمسؤولية كما ذهب الكاتب . .!

ولا يقتصر غياب المسؤوليات تجاه الفرد ، بل إن الأفراد أنفسهم

يتعاملون مع ممتلكات العامة كالحدائق والشوارع ووسائل النقل بإهمال وغياب المسؤولية ، فالتوتر الذي ينجم من محيطه العام يفرغه في تدميرها أو إتلافها وكأنها ممتلكات الحكومة لا ممتلكاتهم هم . .!

كل تلك السلوكيات التي تمارس على نحو كبير وبشكل يومي هي مجبولة بالقمع ، فالمجتمع العربي هو مجتمع يتماهى في أساليب قمعه ، لعل من أبسط أنظمة القمع هي منع بعض الإصدارات في معارض الكتب ونشر بعض المقالات لكونها تتناول موضوع السلطة أو النظام ، وهي من المحرمات تداولها في أنحاء العالم العربي ، فالمجتمع العربي هو مجتمع قائم على نمط الحاكم الواحد والقيمة الواحدة والدين الواحد ، والتوحد قائم حتى على مستوى المأكل والملبس والآراء ؛ والناس تميز ما بينها بالكنية أو العشيرة أو الثروة أو بالمنصب . . وفي هذه التوليفة تذوب استقلالية الفرد . .

ويضيف الكاتب قائلا : «دائما كنت اسمع في التلفزيون والراديو وأقرأ في الجرائد كلمات مثل : الديمقراطية ، حقوق الإنسان ، حرية المواطن ، سيادة الشعب وكنت أشعر وأنا أتابع استعمال تلك العبارات أن الحكومة لا تعامل الناس بجدية ، بل تسخر منهم وتضحك عليهم ، فهل يستطيع المرء أن يتجاهل الصلة القائمة بين هذا الأسلوب الذي يستغبي الشعب والتوتر الذي يسيطر على جموع الناس العاديين . .؟»

في اليابان حين لا يستطيع المواطن الياباني التحدث بحرية يقول : «عندما افتح فمي ؛ فإن هواء الخريف ينقل البرد إلى شفتي» بينما العربي عندما لا يستطيع أن يصرح بما في نفسه عليه أن يقول : تحت لساني جمرة . .!

والمسألة ليست وحدها لسان مجمر بل اللسان وصاحبه يلقون في

مجمرة مشتعلة ، لذا الفارق شاسع بكثير والتوصيف أعمق في أوطاننا العربية يا أيها الياباني . .!

وهناك مسألة مهمة جدا تطرق إليها المستشرق الياباني وهي مسألة «الخوف» في أرجاء العالم العربي من خليجه إلى محيطه ، ثمة مفردات تكاد تغدو مستحيلة في سجل النشر في الصحف الرسمية وإذاعتها في المحافل العامة وأكثرها أهمية لفظة «النظام» ربما لأنها تحتمل تأويلات شتى تزرع شيطان الخوف عند السلطة . .!

وقد أورد عدة معالجات لكثير من القضايا التي تمس العربي وذلك من خلال القضاء على الخوف ووضعه في قمقم وسد فوهته بإحكام ، والبعد عن لغة النفاق والمجاملات كمواطن في وطنه وفرد لديه حقوق كما لديه واجبات ، فعليه ألا يظهر مجاملته على حساب مصالحه والتي هي حقوق مشروعة له شاء الآخر أم أبى . .!

والمطلوب من المواطن هو الإخلاص في عمله وشعوره بالمسؤولية تجاه جميع قطاعات الوطن فالملكية العامة كملكية الخاصة ، وعدم تشويه صورة الوطن عن طريق استغلال الوظيفة ، والأهم هو عدم التغافل عن قضية «النقد الذاتي» أولا كفرد مع نفسه و«النقد الخارجي» البناء وينصب في مصلحة رفعة الوطن وسموه مع الآخرين سواء سلطة أو حاكم أو فرد من الشعب أو مسئول أو مؤسسة . .

ناهيك عن تلك الفوضوية في تطبيق القوانين ، فهناك من هم تحت القانون وما هم فوق القانون ، وأساليب القمع المختلفة والتي يتم تحريضها على الصمت منذ الصغر ، والتعامل العنصري والنظرة الفوقية ما بين الأغنياء والفقراء . .

وما لا يقل أهمية عن كل ما ذكر هو أن المجتمع العربي ليس لديه

استعداد لتربية المواهب ؛ فمدارس اليابان مجهزة بكل الهوايات المتباينة التي يتعاطى معها الصغار حسبما تباين مواهب وقدراتهم ، أما الوضع في العالم العربي فيكاد يغدو مأساويا . .!

ولأن أشكال الـ«قمع» تتعدد في بقاعنا العربي وهو في تكاثر متنام من قمع روحي وآخر جسدي وعقلي وفكري ولساني ونفسي . . بالجمل كل ما له صلة بمسمى الحواس ، والوسيلة المثلى والوحيدة لمنع تفشي المحسوسات الداخلية والخارجية بكافة توجهاتها هو قمع «الجسد» ؛ فالأنظمة القمعية لا تفهم سوى لغة الضرب والسحق والبتر والنفي والحبس ولأن بقية المحسوسات معنوية ، فإن وحده - المسكين - الجسد هو واجهة القمع . .!

ديمقراطية تتنفس بهدوء
على طريقة «جين شارب»

إذا أردتم أن تحققوا حرية ، عدالة ، إنسانية ، حقوق مدنية ، ديمقراطية عامة بلا عنف . . فعليكم بهذا الكتاب المعنون بـ«من الدكتاتورية إلى الديمقراطية» وهو عبارة عن إطار تصوري للتحرر يتحدث المؤلف «جين شارب» في عشرة فصول مضغوطة من سبعين صفحة مع أخذ الاعتبار أن كل كلمة فيه ، وكل عبارة بين سطوره تشكل خطة وفكرة ودربا لتحقيق أيديولوجية ديمقراطية ، وببساطة أعمق لن تجد في صفحاته هذرا أو مساحة فارغة للثرثرة التي لا معنى لها . .

في الفصل الأول : (جميع أنواع النضال لها تعقيداتها ولها ثمنها) . .

يطرح المؤلف عن مواجهة الدكتاتورية بأسلوب واقعي ، فالحرية التي تحقق عن طريق العنف تضعنا أمام حقائق بشعة منها : حرب عصابات ، انقلابات عسكرية مستمرة ، تبرير سياسية العنف من خلال الحكومة الدكتاتورية ، اختيار المنفى من قبل الثوريين للهرب من البطش ، ظهور قوى خارجية لها أهدافها ومصالحها الشخصية . .!

وكل ما سبق يؤدي إلى تفشي دكتاتوريات أعتى قسوة من سابقتها ، أما بشأن الضغوطات الخارجية التي يستعان بها للتنكيل بالحكومة الدكتاتورية فهي جيدة كما يرى المؤلف ويتبدى عملها في

المقاطعات الاقتصادية ، أو فرض حصار ، أو قطع علاقات دبلوماسية ، ولكن المهم جدا هنا هو وجود حركة مقاومة داخلية قوية لأن غياب هذه الحركة لن يكون هناك ردود فعل دولية . .

في الفصل الثاني : (ليس كل من يستخدم «سلام» يريد السلام الحر العادل) . .

في هذا الفصل يسرد المؤلف عن خطورة المفاوضات التي تحاول من خلالها الحكومة الدكتاتورية فرضها على الشعب المناضل ، فعندما يكون نظام الحكم الدكتاتوري قويا ولكن يعاني من وجود مقاومة تقلق مضاجعه فإنه يعرض تفاوضا على المعارضة ،لكي يجرها نحو الاستسلام تحت شعار : «صنع السلام» . .

فلحكام الدكتاتوريين دوافع مختلفة مضمرة في هيمنتهم ، وهم يسعون لفعل ما بوسعهم للحفاظ عليها ، مهما كانت الوعود التي يقدمونها فهي تصب في اتجاه تأمين خنوع خصومهم من الحركات الديمقراطية . .!

بالمقاومة يتم تحقيق الأهداف لا التفاوض الذي يأتي أهميته حين انسحاب أو سقوط الحكم السابق ، وقد يستغرق هذا وقتا حتى تضعف الأنظمة الدكتاتورية ، فعبر التاريخ كما يرى المؤلف استغرق انهيار الحكم الشيوعي في بولندا عشر سنوات ، في حين انهار في ألمانيا خلال أسابيع . .

في الفصل الثالث : (يحكم بعض الرجال شعوبهم بإتباع الخدع ، لا المبادئ الأخلاقية ، هؤلاء الحكام يشبهون سيد القردة ، فهم لا يعون تشوش أذهانهم ولا يدركون أنه في اللحظة التي يدرك الناس أمرهم ينتهي مفعول خدعهم) . .

القصة «أسطورة سيد القرود» يحكيها المؤلف في هذا الفصل ، وهي أسطورة صينية من القرن الرابع عشر كتبها «ليو جي» فقد كان هناك رجل إقطاعي عجوز يعيش بفضل قردته الذين يقدمون له الولاء والخدمة ، فكان يجمع القردة كل صباح في ساحته ويأمر أكبرها أن يقودهم إلى الجبال لجمع الفاكهة من الأجمة المختلفة ، وكان سيد القرود يفرض على قردته قاعدة وهي أن يقدم كل قرد عشر ما جمع إليه ، والويل لكل من يتخلف بجلده دون رحمة ، كانت معاناة القردة جسيمة ولكنها لم تكن تجسر على الشكوى ، وفي يوم طرح قرد صغير سؤالا على القرود الآخرين قائلا لهم : هل زرع الرجل جميع أشجار الفاكهة والأجمة . .؟ فأجابوه : لا ، إنها تنمو وحدها . . فقال القرد الصغير : لماذا إذا نعتمد على الرجل العجوز ، ولماذا علينا أن نخدمه . .؟! ففرت القردة من أقفاصها التي مزقتها ليلا إلى الغابة ، وفي النهاية مات العجوز جوعا . .

في الفصل الرابع : (فبالرغم من مظهرها القوي إلا أن أنظمة الحكم الدكتاتورية لديها نقاط ضعف وتعاني من عدم الكفاءة وهناك منافسات شخصية بين أفرادها وتعاني مؤسساتها من عدم الفعالية وهناك نزاعات بين منظماتها ودوائرها) . .

سرد المؤلف هنا قصة «كعب أخيل» المعروفة عبر التاريخ ، الذي كان لديه مناعة ضد كل أنواع الأسلحة بفضل المياه السحرية التي استحم بها في مياه نهر ستايكس ، وهو بعد طفلا صغيرا ولكن أمه فاتتها وضع كعبيه في الماء ، وحينما علمت إحدى القوى بذلك استطاعت ضربة قاتلة منها أن تستقر في كعبه . .

حشد المؤلف نقاط ضعف كثيرة ولعل من أهمها هو سحب

التعاون ما بين العامة والمجموعات والمؤسسات وهي مهمة لتشغيل النظام . .

في الفصل الخامس : (الخيار العسكري واستخدام الأسلحة والذخائر والتكنولوجيا العسكرية وما إلى ذلك ضد الأنظمة الدكتاتورية لا تؤثر في مواطن ضعف هذه الأنظمة ، إنما يبرر لها استخدام قوتها الآتية ويضع حركات المقاومة في موقف ضعف لا تحسد عليه ؛ لأن الأنظمة الدكتاتورية غالبا ما تتمتع بالتفوق العسكري والتكنولوجيا العسكرية . . الحل هو «التحدي السياسي» . .)

السؤال : ما هو التحدي السياسي . .؟

يجب ألا ننسى أن هذه الكتاب يدعو إلى «اللاعنف» والتحدي السياسي هو من أهم أساليب اللاعنف حيث أنه يستخدم الأسلحة النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمواطنين ولمؤسسات المجتمع ، وقد أطلق على هذه الأساليب عدة أسماء مثل : الاحتجاجات ، والإضرابات ، واللاتعاون ، والمقاطعات ، وسحب الولاء وسلطة الشعب .

وقد عرض الكتاب عدة أساليب أخرى لتحقيق سياسات اللاعنف ، إضافة إلى آليات للتغيير وأهمها أربعة وهي : (التحول / اللاعنف والتفكك / التأقلم / تفكك) ويعنى بـ«التحول» وهي الآلية أقل ترجيحا بالرغم من حدوثها ، وهي عندما تتحرك عواطف الخصوم من خلال تأثرهم بالمعاناة والاضطهاد المفروضين على المقاومين الشجعان الذين يناضلون من خلال أساليب اللاعنف ، بينما عندما ينظر إلى مطالب المعارضة أثناء حملة محدودة بأنها غير خطيرة لهذا توضع على المحك وهو ما يسمى بـ«التأقلم» ، ومسميات «اللاعنف

والتفكك» و«التفكك» حينما لا يستطيع الخصوم التصرف كما يحلو لهم من خلال تغيير حالة النزاع والمجتمع . .

في الفصل السادس : (يؤدي افتقاد حركات المقاومة الديمقراطية إلى التخطيط إلى نتائج وخيمة ؛ لأنها جعلت الظروف تتحكم باتخاذ قرارات مصيرية ، فضلا عن ذلك إن افتقار التخطيط في كيفية تسيير التحول إلى النظام الدكتاتوري ساهم في ظهور ديكتاتوريات جديدة حتى بعد القضاء على الأنظمة الدكتاتورية السابقة) . .

يوضح المؤلف في هذا الفصل المقصود بـ«تخطيط إستراتيجية» بأنه إعداد طريق عمل تجعل من الانتقال من الوضع الحالي إلى الوضع المستقبلي المرغوب أمرا أكثر ترجيحا ، وتتكون الخطة التي تمكننا من الوصول إلى ذلك الهدف من سلسلة من الحملات ، والنشاطات المنظمة ، والأخرى المصممة ؛ لتقوية الشعب والمجتمع الراضخين تحت نير الاضطهاد وإضعاف الدكتاتورية .

فليس وحده الإخلاص للمثاليات ، والأهداف الإنسانية تحقق الحرية وتقضي على الدكتاتورية .

في الفصل السابع : (الأخذ في الاعتبار بأن لا يوجد وضعان متشابهان تماما ، ولكل نظام حكم دكتاتوري خصائصه الفردية ، وتختلف أيضا قدرات كل شعب يسعى من أجل الحرية عن قدرات الشعوب الأخرى) . .

هنا على المناضلين الالتفات إلى أهدافهم والعواقب التي في طريقها ، ومعرفة نقاط قوة وضعف السلطة الدكتاتورية التي يواجهونها مع معرفة نقاط قوتهم وضعفهم في هذا النضال .

في الفصل الثامن : (تحويل مسؤوليات النضال إلى مجموعة

مختلفة من السكان وحشد مصادر قوة إضافية وتطوير مسارات جديدة للعمل) .

هنا يمارس التحدي السياسي عن طريق نشر المسؤوليات ، كل جهة تقوم بمقاومة ، فالطلاب في المدارس يعلنون الإضراب عن مدارسها ، والعمال عن المصانع ، والقادة الدينيون يركزون على الحريات الدينية ، والكتاب والصحفيون يطالبون بفتح باب الحريات وإغلاق القمع . . وهلم جرا . . وكلها تستهدف القوة الدكتاتورية ويمكن هنا كسب تحالفات أخرى يكون لها أشد أهمية لعل من أهمها قوة الجيش وجعله يتعاطف معهم .

الفصل التاسع : (يستمد نظام الحاكم شرعيته من الطاعة والتعاون الذي يحصل عليه ، وعندما ينفذ «اللاتعاون» بواسطة قطاعات كبيرة من السكان فإن هذا يشكل خطرا كبيرا على النظام الحاكم ، فمثلا إذا توقف موظفي الحكومة عن العمل بفعاليتهم المعتادة أو حتى إذا بقوا في بيوتهم فإن هذا يضر بالأجهزة الإدارية بشكل خطير) . .

يرى المؤلف أنه كلما تضاعفت سيطرة الديمقراطية على مصادر الاقتصاد والأملاك والمواصلات ووسائل الاتصالات كلما ضعفت وانهارت القوة الدكتاتورية ، وفي حال قيام الحكام الدكتاتوريين التهديد بالقوة ضد المتظاهرين ، فإن هذه القوة تضعف من خلال طريقتين مهمتين هما :

١ - إذا كان المواطنون مستعدون كما هو الحال في الحرب للمخاطرة بنتائج خطيرة كثمن للتحدي .

٢- إذا قامت الشرطة والقوات العسكرية بسحب ولائها ، سواء كان هذا الولاء فرديا أو جماعيا أو عند رفضهم القيام بتجنب أو رفض

مباشر لأوامر الاعتقال ، والضرب وإطلاق النار على المقاومين . .

الفصل العاشر : (يعتبر تفكك نظام الحكم الدكتاتوري سببا لاحتفال عظيم) . .

مع الاحتفال ينبغي الاهتمام بأن لا يكون ثمة فراغ في السلطة يمكن من خلاله أن يفغر أطماع الكثيرين ، والمهم جدا هو الاستعجال في عمل انتخابات نزيهة ؛ كي يتولى الشخص المناسب المكان المناسب . .

وفي الصفحات الأخيرة من الكتاب ثمة «ملحق لأساليب العمل باستخدام اللاعنف» وقد حشد المؤلف أساليبا كثيرة ومتنوعة مثل :

- تصريحات رسمية : (خطابات للجهات العليا ، رسائل معارضة أو تأييد ، بيانات تصدر عن مؤسسات ، تصريحات علنية موقعة . . .)
- مخاطبة الجماهير العريضة : (شعارات وكاريكاتيرات ورموز ، لافتات وملصقات ، كتب وكتيبات . . . .)
- احتجاجات جماعية : (انتخابات صورية هزلية ، تفويض ، اعتصامات . . . .) .
- أعمال رمزية عامة : (رفع أعلام ، الصلاة والعبادة ، عرض لوحات فنية معبرة . . .) .

إضافة إلى أساليب أخرى كالمسرح والموسيقى والغناء ، المواكب ، تكريم الموتى ، التجمعات الشعبية ، الإضرابات ، والتدخل السياسي والاقتصادي والنفسي والاجتماعي . . . . إلى لا آخره .

يضع المؤلف في الختام قولا شائعا : «لا تأتي الحرية مجانا» . . وهو قول يؤكد على صحته .

قالوا: «الاتحاد الخليجي» فبكى «التعاون الخليجي»..!

الاتحاد الخليجي . . مصطلح جديد أعلنه أصحاب القرار في دول الخليج رغم تحفّظ البعض وممانعة آخرين هذا على مستوى «حكومات الخليج» أما على مستوى «شعوب الخليج» فسوف يستدعي الموقف مثل القائل «اتفق العرب على ألا يتفقوا» لا ندري من أعلن هذا المثل التي غدت كالبصمة يُعرف بها العرب و لا شك من قاله كانت له نظرة مديدة . . وانقسموا ما بين استنكار وشجب ورغبة وقبول وما بين تحفّز وقلق . .!

الاتحاد الخليجي . . يستدعي أيضا مصطلحا وجد قبله وله باع طويل «مجلس التعاون الخليجي» نحن أمام لفظتين مهمتين «اتحاد» المستحدث والمقترح الطازج ولفظة «التعاون» تلك اللفظة العتيقة كشيخ هرم . . وبما أننا نحن- العرب - شعوب من عادتها الوقوف على الأطلال مذ أيام الجاهلية الأولى ولكل طقوسه في هذا التباكي لذلك نقول إن لفظة «التعاون» تعيد ذاكرتنا أشواطا إلى الوراء ويسقطنا في أنياب التساؤلات ولعل أسنّها : ماذا كسبنا من التعاون الخليجي من خليجنا إلى خليجنا . .؟!

كل خليجي مقيم في وطنه لم يكسب من مجلس التعاون الخليجي شيئا يذكر والخليجي خارج وطنه وداخل وطن الخليج ماذا

كسب سوى مجانية التعليم والصحة والإقامة . .؟!

أما على مستوى التعليم فحقوقه مبتورة وليست كاملة الاستحقاق فمن الأول الأساسي إلى شهادة البكالوريا فقط مع حجب حق التعليم في فصول الروضة وفي فصول الجامعة ، والشاب الخليجي عندما يتخرّج من الثانوية في البلد الخليجي أمامه خيارين والثالث محبط : إكمال الدراسة في وطنه أو دفع رسوم لجامعة خاصة والمحبط هو ترك طموح الدراسة والبحث عن وظيفة راتبها أقل عن راتب ابن البلد لأنه خليجي ، هذا إن حصل على وظيفة مع سياسات أولوية ابن البلد . .!

على صعيد الصحة ثمة تمييز واضح فالخليجي بطاقته ملونة حسبما دولته فتختلف عن لون بطاقة ابن البلد هذا في زمن «التعاون» ربما في زمن «الاتحاد» ربما نتوّحد في ألوان بطاقات الصحة والزي الرسمي للرجال لأن المرأة زيها الرسمي موحد ومعروف ، ولون جوازات السفر دون أن نسقط فشل مشروع العملة الخليجية الموّحدة . .!

على صعيد الأحكام والقوانين فإن الخليجي حين يقترف جرما في غير بلده ينفى إلى وطنه لتتكفل به وبجرمه ولا يهم مطلقا إن كانت كل عشيرته مستقرة في البلد الخليجي الذي نفي عنه وحيدا ومكسورا وذليلا . .!

ناهيك عن ذل الانتظار لساعات عبر حدود دول الخليج . . وهذا - غيض من فيض - مما يعايشه الخليجي في بلد خليجي آخر . .!

أجل نحن - شعوب خليجية - أرهقنا التشاؤم والاكتئاب والبكاء على الأطلال ولكن أرهقتنا الوعود أكثر بل تشبعنا بها ومنها حد التخمة . . وأخالني اليوم أدركت مبعث ارتفاع السمنة المفرطة بين أبناء

دول الخليج إنهم منفوخون من الوعود المحبطة التي يفرغونها في التهام كامل الدسم . .!

هل «الاتحاد» يصنع ما فشل عنه «التعاون» . . تساؤل قابل للتأويل في زمن الاتحادات المؤولة . .؟! يذكرنا بأوبرا الحلم العربي «دا حلمنا طول عمرنا أرض يضمنا كلنا كلنا» ولم نجد سوى احتشاد مطربين ومطربات على مسرح عربي واحد . .!

الاتحاد الخليجي نريده اتحادا في ترف السلم وتقشف الحرب ، لا في السلم خارج الحقوق وفي الحرب داخل الواجبات . .!

الاتحاد الخليجي نريده أن يكون واضحا في أهدافه و خططه وتطلعاته لمستقبل مواطني دول الخليج على أصعدة كافة سياسيا واقتصاديا ودينيا وثقافيا واجتماعيا ، لا اتحاد قائم على مصالح خاصة تمثل أصحاب القرار ويجنون مكاسبها على حساب المواطن الخليجي حيّا كصوت في رفع شعارات تدعم وجودهم وميّتا كجثة للذود عن وطن ينافح عنه من أجل عين كرسي أو رِجل طاولة . .!

الاتحاد الخليجي نريده اتحادا بمعناه الحقيقي غير قابل لتأويلات الوعود وغير قابل للغة المجازات الغامضة وغير قابل لـ«لا» أو «نعم» بل اتحاد مستقيم يحترم المواطن الخليجي ويتم ترقيته من عضو صامت إلى عضو فاعل في قرارات تمس الخليج ومستقبله على مستوى السلم والحرب . .!

الاتحاد الخليجي نريده اتحادا على قلب واحد شرايينه موصولة من خليجي إلى خليجي نتحّد بعمق بعمق لدرجة إذا ما قال العماني أو الكويتي أو البحريني «آه» هبّ السعودي والإماراتي والقطري «لبيه» . .

ليضع أصحاب القرار في دول الخليج ببالهم بأن شعوبهم لم يعودوا

مختصرين في بدو وحضر ولا متربعين في مراتع الصحاري والفيافي المقفرة منفصلين عن العالم بل هي شعوب في قلب الحدث فرضت وجودها على مستوى الواقعي والافتراضي في الآن . . هي شعوب الفيس بوك والتويتر والواتس ساب . . . . وهلم جرا . .

على دول الاتحاد الخليجي قبل أن يعلنوا قرار «الاتحاد» عليهم أن يكاشفوا أساسيات هذا الاتحاد وأبعاده . . وإن عجزوا عن فهم معنى «اتحاد» فإني ناصحة لهم كإمرأة خليجية بالوقوف على تجربتين ثريتين واقعيتين في سبل الإتحاد الحقيقية فلينهلوا من مناهل خبرتهما للتّأهل . . الأول متجسّد في «اتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة» وهذا خيار محلي وأما الثاني متمثل في «الاتحاد الأوروبي» وهذا خيار خارجي . .!

ولا «اتحاد» بدون «اتحاد» على مستوى القرار والتشاور والتحاور بين الشعوب وحكامها ولتتداول تلك «الراءات» بشكل جدّي وفاعل على الأقل في مرحلته المتبلورة الأولى إن وجدت مرحلة أولى وتتابعتها مراحلها الأخرى . .!

خليجنا ليس واحد..؟

في جلسة مجلس التعاون الخليجي تصاعدت اقتراحات لتحويل هذا التعاون بين دول الخليج العربي إلى ما يسمى في «اتحاد» تحقيقا لمزيد من الأمن والتعاضد . .!

«خليجنا واحد» هكذا يقال وما أكثر ما يقال وما أقل ما يتجسد هذا المقول في فعل واقعي عميق ومرئي للجميع . . فأبسط اختلافات في خليجنا يكمن في التفاوت الاقتصادي ودخل الفرد وسبل المعيشة ، فيما تتوحد وبشكل يكاد يكون مدهشا في كتم الأصوات والقمع وتفشي الوساطات والمحسوبيات وخنق الحريات على مستوى المرئي والمسموع والمقروء . .!

أما على مستوى المعيشي والاقتصادي ، فالفرد الخليجي ما بين فقر مدقع وغنى فاحش . . بل التركيبية الاقتصادية مخلخلة بـ«أدق تعبير» وغير عادلة بـ«أكثف تعبير» فحسبما تقرير الذي صدر حديثا في مجلة «غلويل فايننس» على موقعها الالكتروني جاء فيه أن «قطر» احتلت المرتبة الأولى ضمن قائمة الدول الأغنى في العالم بمتوسط نصيب للفرد يبلغ ٩٠,١٤٩ ألف دولار ، وحظي متوسط نصيب الفرد في «الكويت» المرتبة الـ ١٤ ضمن قائمة دول الأغنى في العالم ، و احتلت «الإمارات» ١٨ بينما كل من «البحرين» و«السعودية» و«سلطنة عمان»

قد احتلت المراتب ٣٣ و٣٦ و٣٨ على التوالي . .!

بينما كشف تقرير «التنمية البشرية ٢٠١١م» الصادر عن الأمم المتحدة من وقت قريب أن الإمارات هي ثاني أعلى نصيب الفرد من الدخل القومي في العالم ، وهي دولة لا يوجد فيها مواطنون يعيشون في فقر مدقع ، بل إن عدد السكان الفقراء في الإمارات يبلغ صفرا . .

ففي قطر والكويت والإمارات معدلات دخل الفرد مرتفعة بل تعادل في دخلها الدول الأوربية كألمانيا وفرنسا والسويد وسويسرا ، وعدد الفقراء في هذه الدول من مواطنيه يكاد يكون معدوما والأفراد فيه يعيشون في رفاهية ، وحين يصل إلى سن معينة يتقاعد وتدفع له دولته راتبا تقاعديا مناسبا لمستواه المعيشي كفرد ، مع دفع إعالات شهرية لكبار السن من الجنسين مع عدم إسقاط حقوق الأرامل والمطلقات بما يوفر لهن حياة كريمة ويحفظ كرامتهن من ذل الزمن . .

بينما في كل من المملكة العربية والسعودية وسلطنة عمان والبحرين فأوضاع الخليجي لا تسر . . وما كان الخبر الذي نشرته إحدى الصحف الخليجية عن حالة عائلة سعودية مكونة من ١١ فردا تعيش في مقبرة لأب سعودي سبعيني يستلم راتبا قدره ٢٠٠٠ ريال . .!

هذه الحالة وغيرها مكررة وباستمرار ونجد مثيلها في البحرين أو سلطنة عمان ، في هذه الدول الأسرة تتساند على كتف شخص واحد هو الأب والذي غالبا يكون رجلا أميا ودخله على قد حاله وفي حال فقد رب الأسرة ، فإن الأسرة كلها تنهار ليس في فقر مدقع بل تحت درجة الصفر المعيشي . .!

وكثير من الناس في بقاع العالم العربي والعالمي لديهم اعتقاد راسخ على أن الإنسان الخليجي هو إنسان مرفّه والحياة تنساب إليه بسهولة ؛

ولهذا بعض الأخوة في المغرب والأردن حينما سمعوا باقتراح ضم كليهما ضمن التعاون الخليجي تناوش الأهالي فيما بينهم بفرح بأنهم أخيرا سوف يركبون الهمر وتمتلئ جيوبهم بالأموال ويأكلون السنيكرز على حد تعبير بعضهم ، لهذا فلا عجب أن ارتفاع أصوات بعض الخليجيين بالمطالبة بحقوقهم ينظر إليها من باب المبالغة والطمع . .!

فالسؤال الذي يطرح نفسه وبقوة : لماذا أوضاع الفرد في دول الخليج تتفاوت رغم أنها كلها نفطية ، ففي وقت يعيش فيه القطري والإماراتي والكويتي مرفها ، بينما السعودي والعماني والبحريني يعيشون في أوضاع اقتصادية متردية وتتفشى في هذه الدول الثلاث حالات الفقر المدقع لبعض مواطنيها . .؟!

فإذا ما كانت الحجج تكمن في تباين مساحات الدول وحجمها مع اختلاف عدد السكان ؛ فها هي اليابان عدد سكانها يفوق ١٣٠ مليون وهي من أكثر الدول تقدما رغم شح الموارد ورغم ظروف الطبيعة القاسية عليها من زلازل وفيضانات . .!

قطعا على رأس الأسباب هو «الفساد» وهو أحد أهم عوامل تفشي حالات الفقر المدقع فعلى الرغم أن سماء واحدة يستظل تحتها كل من صاحب ثروة وملايين مقابل معدم يفتقد أساسيات الحياة الكريمة . .! ومن نتائج هذا الفساد هو غياب العدل بين الناس وتوزيع الثروات بناء على العلاقات الاجتماعية والسياسية والتبعية المطلقة ، وغياب الرقابة القانونية وينتج عنه إدراج أرقام مزيفة لرصد الميزانيات التي تقدمها بعض الوزارات ، ناهيك عن غياب النقد الحكومي وإذا ما رفع المواطن صوت حقوقه يلاحق بتهم كثيرة أبسطها الخيانة . .!

عدم تعيين الكفاءات الجيدة في الأماكن المناسبة بل يكاد يشغل

الأفراد غير المناسبين لمراكز مهمة وحساسة في الدولة ، مع بقاء الأشخاص أنفسهم على الكرسي نفسه لسنوات مديدة وإذا ما تمت بعض التغييرات فهو تغيير شكلي بحيث يغير مكان الشخص فقط وترحيله إلى وزارة أخرى فينال لقبا جديدا مستبدلا بها لقبه العتيق ؛ فمعظم المسؤولين في أوطاننا ليسوا من جامعي مؤهلات وشهادات وخبرات بل من جامعي ألقاب وكراسي . .!

ولهذا تغيب الخطط التنموية الحقيقية المجسدة عبر أفكار متغيرة ومتضمخة بروح التجديد والتطوير والشباب . .!

إذن أساس خراب المجتمعات وتأخرها مليون سنة ضوئية في ركام التخلّف والتأخر هو «الفساد» وهذا الفساد أنواع . . فساد على عدة أصعدة ، ولهذا الفساد أحجام فساد من أكبر موظف في الدولة إلى أصغرها ، كلهم خائضون في الحلقة ذاتها من دوائر الاستفادة ، فالعنصر الصغير يسرق ولكنه يعرف أن مديره يسرق أكثر منه ، والرئيس الأعلى أو المدير الدائرة يسرق أكثر من الجميع ، ولهذا فإن مظاهر الخوف تحمل في طياتها معرفة كل طرف آخر . .

وأقرب من هذا ما جاء في قصة «مروان بن الحكم» مع وكيله في غوطة دمشق تلخص هذه اللعبة . . يروي ابن عبد ربه عن «مروان بن الحكم» أنه زار ضيعة له في الغوطة فأنكر منها شيئا ، فقال لوكيله : «ويحك ، إني لأظنك تخونني . . قال : أفتظن ذلك ولا تستيقنه . .؟ قال : أو تفعل . .؟ قال : نعم والله إني لأخونك ، وإنك لتخون أمير المؤمنين وإن أمير المؤمنين ليخون الله . . فلعن الله شر الثلاثة . .!»

الفساد مرض معدي وفتّاك وإن لم تقض المجتمعات عليه ؛ فعلى الأوطان السلام . .!

تساؤلات عن العُزلة العُمانية..!

منذ عامين وصل بريدي مقالة تتناول الشأن العماني معنونة بـ«عمان والعزلة السياسية» لكاتبها السعودي «عبدالله بن ناصر الخريف» وأسهب فيها حديثا عن العزلة العمانية على المستوى السياسي وسرد عن محايدتها في قراراتها على خلاف باقي الدول المحيطة ومن هذه السياسة نشأ مبدأ العزلة العمانية ويؤكد الكاتب في سطور مقالته : «ولم تلفت عمان النظر إليها مؤخرا إلا بعد عاصفة جونو التي ضربت سواحلها ولفتت وسائل الإعلام لها حتى أن هذا الموضوع أثارني حينما قرأت في البي بي سي العربية : الإعصار يضرب الدولة الصامتة . .!»

ومبعث استدعائي لهذه المقالة الآن تحديدا هو منذ فترة قريبة كتبت بعض عبارات تتناول الشأن العماني وكنت عادة اكتب «عُمان» بدون «سلطنة عمان» كاختصار حين لا تكفي المساحة عبر نظام «تويتر» التغريدي وكانت تردني تعليقات من بعض الإخوة في دول الخليج والدول العربية وعلى رأسهم أهل الأردن ، ولكن ما فاجأني حقا أن ردودهم لا تتعلق بعُمان بل تتعلق بعمّان عاصمة الأردن إلى أن تمّ استيعاب الوضع هو أن معظمهم كان يعتقد أنني اعني بالفعل «عمّان» عاصمة الأردن وليس «عُمان» رغم وضع الضمة على العين . .! وعندما

تم التوضيح أن عُمان المعنية هي سلطنة عمان تفاجئوا من فكرة أن يكون فيها مظاهرات أو اعتصامات مبررين دهشتهم أن عمان دولة مسالمة . .! والأمر لفت نظري فقمت بكتابة توضيح بالعبارة التالية : «هناك أمر غريب عندما اكتب لفظة «عُمان» أو «عُمانيون» يعتقد كثيرون أنني أعني «عمّان» عاصمة الأردن : ألهذه الدرجة «عُماننا» بـ«الضم» معزولة عن العالم . .؟!»

واستقبلت العبارة حشدا من الردود على الفيس بوك والتويتر وبعض الردود وصلت البريد الخاص وتفاوتت وجهات النظر فعزمت أن أعرض تلك الآراء في هذه المقالة وقد صنفتّها إلى آراء عمانيين داخل عمان وغير عمانيين المقيمين فيها وقسم يتناول آراء إخوتنا من الدول الخليجية والعربية ، وسوف استعرض بعض هذه الآراء التي تتفاوت في الرؤية وتعرض بعضها أسباب . .

وتهجم الأسئلة دفعة واحدة : هل فعلا سلطنة عمان منعزلة . .؟! هل هذه العزلة في صالحها . .؟! هل زمن اليوم يتصالح مع هذه العزلة . .؟!

بالنسبة للآراء العمانية وهي متفاوتة وبدورها مصنفّة إلى قسمين . . فالقسم الأول يرى أن «عُمان» ليست منعزلة إنما هناك حاقدون على وجوههم غشاوة بها سلبيات يبحثون في أتفه الأسباب ؛ وهؤلاء الذين نبذوا فكرة عزلة عُمان استعرضوا تاريخها القديم وحضارتها ومدى تأثيرها الفعّال في العديد من القضايا الخليجية والعربية . . بينما يرى القسم الآخر من العمانيين أن «عُمان» بالفعل دولة منعزلة وهذا هو الوضع الذي يجعل من «العزلة» «أزمة» حتى وإن تحدث عماني في وسيلة إعلامية غير عمانية يتهم بالخيانة و«نشر

الغسيل» ويتابع الرأي مضيفا : «يبجلون العزلة ويتهمون غيرهم بالخيانة والأجندة» لأنه تحدث عن مآسي وطنه في الخارج . .! والرأي نفسه يقرر أخيرا بأن عُمان وأهلها يحتاجون إلى قليل من الثقة وقليل من الانفتاح ؛ فمن غير المعقول أن يعد الانفتاح خطرا على عُمان . .!

وذهبت مجموعة من العمانيين أن الإشكالية الخلط ما بين «عُمان» و«عمّان» تعود إلى إسقاط حركة الضمة على العين وهذا ما يوجب كما يرون الخلط ؛ ولكن إحدى الآراء العمانية عرضت إشكالية مهمة بعيدة عن الإشكالية الحركات الإعرابية فصاحبة التجربة تقول : «اذكر مرة عرض لأحد الحكام الأجانب بالتحكيم في مباريات خليجي ١٩ والتي أقيمت في عُمان يومها ، عندما وصله الخبر ذهب إلى الإنترنت وبحث في خارطة العالم وهو يسأل : أين تقع عُمان . .؟! وأنهت قولها المذكور باستنكار مستفهم : «هل وطني منعزل . .؟! لم أنس هذا الموقف لسنوات . .!» وثمة رأي آخر يساند هذه المقولة أعلاه ويرى أن عُمان دولة ضمت لسنوات ولم تفتح لدرجة أن ثمة كثيرون من تأتي إليهم عقود للسلطنة فيترددون بقبولها ؛ والسبب عائد إلى كون عُمان منعزلة ولا يعرفون عنها شيئا واتبعت رأيها بتساؤل : ترى ما الأسباب؟!

أما الإخوة العرب المقيمين في عُمان أو الذين أقاموا فيها ردحا من الزمن ثم غادروها وصفوا عُمان بالبلد الجميل وذا ثقل تاريخي أصيل ولكنهم اشتركوا في فكرة أن عُمان لا ينقصها سوى مسألة «حريات»!

بينما يرى أبناء دول الخليج وبعض العرب أن عُمان دولة محايدة وتعيش بسلام وهؤلاء وافقوا أن عُمان هي أهدى دول الخليج ، بينما اتفق آخرون أن عُمان منعزلة كأخبار وسياسة عن العالم وأصحاب هذا الرأي اختلفوا في إيجابية وسلبية هذا الأمر ؛ فالإيجابية في كون العزلة

يجنبها الكثير من المشاكل هي في غنى عنها، بينما ذهب آخرون أن العزلة العمانية لا ترتقي بمستوى دولة لها وزن تاريخي عريق وأن عليها أن تشارك في القضايا الدولية بما يوافق ثقلها . . وهذا يتوافق مع رأي متسلسل عرضه أحد الإخوة الخليجيين حيث ذهب إلى أن ترشيح فكرة الانعزال لم تأت من فراغ؛ لأننا حين نضع الإمكانيات في كفة والمكانة في كفة سنجد أن عُمان لم تأخذ مكانها الصحيح ويضيف قائلا: «الانعزال ليس له علاقة بالماضي المشرق أبدا ولا ينتقص من عُمان الدولة لكنه يضع أكثر من علامة استفهام أمام كل محب لعُمان . .؟!»

وفريق ثالث ذهب إلى أن عُمان ليست بمعزل عن العالم ولكنها بمعزل عن الضجيج الإعلامي والمهاترات التي تنتهي . .! ورأي أخير اختصر مفهوم العزلة العمانية في عبارة: «عُمان ليست منعزلة ولكن فكرة الانعزال راسخة في الأذهان» .

إلى هنا ننتهي من عرض مجموع الآراء الذين اختلفوا في تناول مفهوم العزلة العمانية في الوقت الحالي، أما أسباب العزلة فاختلفت أيضا فمن اتفقوا على عزلتها ذهبوا إلى أن مبعث العزلة العمانية على مستوى السياسي تحديدا هو خوضها حروبا وصراعات داخلية أنهكت قواها وانشغلت بها وجعل ذلك تنتهج سياسة التحفّظ في التعامل وبحدود دبلوماسية واضحة . .

وهناك من شجب العزلة على المستوى الديني بحيث أن مذهب الإباضية صنع عزلة متفردة عن الآخرين . . بينما آخرون سلطوا العزلة على أسباب اجتماعية كطبيعة الملبس واللهجة . .! وجاءت عند البعض هذه الأسباب جامعة . .!

كل الذين تناولوا مفهوم العزلة العمانية لم ينطلقوا من مبدأ تاريخها العريق ولا أخلاقيات العمانية المعروفة ؛ فتاريخها مشهود ومتفق عليه ولا يحتاج إلى عرضه ولا الخوض فيه بل عزلة ارتكزت على مبدأ المحايدة وعزلة قلّصت من دور عمان الدولي وذلك تبعا لسياسة الهدوء والنأي عن الضجة الإعلامية التي تفتعلها باقي الدول وتثيرها ، فالأكثرية متفق أن عُمان لها دور إقليمي ودولي لكنه مشوب بالهدوء فهي تطرح قضاياها واقتراحاتها ومن ثم تذهب بهدوء كما جاءت . . والسؤال هنا : فهل الخطأ في هدوء عُمان أم الخطأ في تضخيم ضجة الآخرين عبر سلاح الإعلام . .؟! لا شك أن هذا العصر يحتمل الضجة أكثر مما يحتمل الصمت وأيضا زمن اليوم هو زمن الشعوب وليس زمن السلطات المطلق . .!

بمعنى هناك دول قد تكون في معمعة الأحداث على مستوى سلطات ولكن على مستوى شعوبها فهي تعزلها عن المشاركة في تلك الأحداث كـ«كوريا الشمالية» التي فرضت بروتوكولات غريبة على الشعب فلا صلة لهم بالسياسة سوى تقديس الحاكم وذرف الدموع عليه إن مات أو مرض . .!

وهناك سلطات يتفاعل شعبها مع الأحداث الخارجية ولكن حين يناقشون شأن الداخلي لأوطانهم ، فإنهم يعتقلون وهذه سياسة متبّعة في دول الخليج أما العربية فلها شأن متفاوت بعد ثورات الربيع . .!

وهناك سلطات تحرص على منظومة مشاطرة الشعب في قضايا الوطن من نواحي معينة وفي الوقت نفسه لها تحفظات قمعية في إظهار صورة الوطن على حقيقته خارج حدود الوطن . .!

مشاركات الشعبية في الخليج هي سلطة محددة ، فجميع

السلطات تتفق في سياسة رفض التام للتدخل الشعبي في موجب أحكامها الوراثية وكسر مبدأ الأب والرعية وانتفاء معنى الترشيح والانتخابات في هذه الدول على كرسي السلطة . .!

أما في سلطنة عمان فالسياسة كما أعلنها السلطان قابوس بن سعيد في خطابه بعيد النهضة الأربعين في عام ٢٠١٠م بنبرة واضحة حين قال : «ومن المبادئ الراسخة لعمان التعاون مع سائر الدول والشعوب على أساس من الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة وعدم التدخل في شؤون الغير وكذلك عدم القبول بتدخل ذلك الغير في شؤوننا»! . .

هذا مبدأ سياسة السلطة العمانية ، فهل ينطبق على مبدأ الشعب العماني . .؟ في المقالة القادمة لنا حديث في هذا الشأن . .

تساؤلات عن العُزلة العُمانية..؟

يبرز أمامنا في هذه المقالة التساؤل التالي : هل العزلة في صالح عُمان . .؟!

سلطة سلطنة عمان أقرت مفهوم ثابت كاشفت من خلالها موجب سياستها على المستوى الداخلي والخارجي وجاءت في عبارة : «عدم التدخل في شؤون الغير وكذلك عدم القبول بتدخل ذلك الغير في شؤوننا» . .!

هذه السياسة لم تفصل عُمان كدولة وحدها بل فصلت شعب بأكمله عبر تلك الأعوام ، فمن هم في الخارج حتى دول الجوار لا يعرفون عما يحدث في عُمان على عكس بقية الدول التي يصل أخبارها الجميع عبر وسائل الإعلام والصحف بأنواعها ووسائل التواصل . . فالشأن التونسي تحمّس له الجميع وكان حديث العالم كما الشأن الليبي والسوري والمصري الكل يناقش ويعرض وجهات نظره سواء من تلك الدول أو خارجها حتى البحرين تشارك الجميع في شأنها وعرض تفاصيلها باستثناء عُمان ظل الحديث عنها غالبا مختصرا على العمانيين أنفسهم بالتحليل والنقد والتعاطي وهذا يعود إلى مفهوم «العزلة» التي اعتادها ودرج عليها الشعب العماني بل إن وجود الإنسان العماني عبر شبكات التواصل في البداية كان مقلا

مقارنة ببقية دول الخليج وبرز عن ذلك تساؤلات واضحة تداولها أبناء دول الخليج عبر وسائل التواصل الاجتماعية وهم يتساءلون عن اختفاء العماني في حين بروز الإماراتي والسعودي والكويتي والقطري والبحريني . .!

قد تكون سياسة الدولة منعزلة أو طبيعتها تميل للانعزال والشعب دأب على فكرة العزلة وانغرست في الأذهان من جيل إلى جيل وكانت الأمور تمضي كما قررت شرائع الدولة تماما ولكن ولد مع هذا الجيل شباب مختلفون ينبذون فكرة الانغلاق والتبعية مع تأثيرات عوامل لا يمكن تخطيها كثورات الربيع العربي وانغماسه في عوالم التواصل الاجتماعية هذه التأثيرات المشتملة غيرت التركيبة الإنسانية والإنسان العماني هو جزء لا يتجزأ من تلك التركيبة التي جرفتها التغييرات كما جرفت غيره بمعدلات متفاوتة حسبما سياسة كل دولة ، فرض العزلة على الشعوب في الداخل أو في الخارج هو عمل لا مكان له اليوم . .

مفهوم العزلة اختلف فالعزلة قد تفرضها سياسة الدولة وقوانينها ولكن لن يلتزم بها الشعوب هذا العصر يهيئ مفهوم الانطلاق والانفتاح ويردم مفهوم العزلة العتيق كمعنى شامل وكقيد وقد تعدى الجوانب التقليدية وكسر كل الاختلافات على عدة أصعدة دينية واجتماعية وسياسية فمن يشجب اليوم العزلة على ملبس أو لهجة معينة أو مذهب معين فهو إنسان لم يستوعب بعد التفجر التواصلي عبر البشر ، وهي متاحة للجميع ومن خلال هذا برز لدينا مفهوم جديد أنجبه هذا العصر وفق تصوري الشخصي وهو مفهوم «عزلة السلطة وانفتاح الشعب» . .! مع التوضيح أن عزلة السلطة بلغة هذا الزمن هي

«الهدوء» و«الحيادية» فهناك شعوب في العالم موجودة ولا أحد يعرف عنها سوى المكتشفين وتتمثل فيها العزلة بمفهوم حقيقي وعميق وكبير كشعوب «البيراها» وهي شعوب بعيدة عن كل وسيلة انفتاح . .هذه العزلة المقدسة والغريبة فرضتها بعدهم عن عالم التكنولوجيا . .!

أما عزلة سلطنة عمان و غيرها من الدول كالمغرب مثلا هي عزلة انتقائية أي منعزلة عن شيء وفي الوقت نفسه منفتحة على شيء وقد طرح مرة كاتب سعودي مفهوم «المعتزلة السياسية» وأطلقها على دولتين هما «عُمان» و«المغرب» ورأى أن هذا يريحهما من المشاكل التي تقع حين تتدخل الدول في سياسات الآخرين ، هذا المعنى بمفهومه الكلي ليس صالحا في كل الظروف فهناك ظروف تستدعي تدخل لحل خلاف دولي أو مناصرة دولة كما يحدث في سوريا اليوم وكما حدث مع سابقتها ليبيا ، فلو أن الدول العربية تعاضدت لما دخل الأجنبي الأرض الليبية وعينهم على الثروة النفطية . .! هناك قضايا لا يمكن أن تتخذ بعض الدول العربية حيالها موقف «متفرج» أو «المحايد» أو «الهادئ» ؛ فـ«المتفرج» شعاره : لا أرى ولا اسمع ولا أتكلم . .! أما «المحايد» فهو الذي يقف في الوسط وإذا ما أتته رصاصة لا يعلم من أين تلقاها . .؟! أم «الهادئ» هو أشبه ما يكون مختزلا في مثال الملكة الفرنسية «ماري أنطوانيت» التي ردت بهدوء على ثائرة شعب الذي يهتف جوعه : نريد خبزا . . بقولها : لماذا لا تأكلون البسكويت إن لم تجدوا الخبز . .؟!

هنا الشعب تفاعل وناقش لكن السلطة انكفأت ، اليوم إذا ناقشنا مفهوم العزلة يجب أن نضع أولا الشعب في الصورة وليس الحكومة لا يوجد في عصر التكنولوجيا شعب منعزل ولا حكومة منعزلة كليا ،

الانعزال هو انعزال عن مسايرة التكنولوجيا هو مقياس العزلة الذي أنجبه هذا العصر الحديث . . وعلى مستوى شعبي نستطيع القول أن الشعب العماني مزق ستار عزلته وقضى على مفهوم العزلة التي دأب وسار عليها طوال أعوام ماضية وعبّر عنها بشكل هادئ والفضل في وسائل التواصل الاجتماعية الفيس بوك وتويتر ، ومن هنا يبرز فشل الإعلام العماني في توصيل صوت الإنسان العماني وصورته للخارج كما وصفته إحدى الدول من وقت قريب الإعلام العماني هو إعلام ميت . .! ونتيجة فشل هذا الإعلام هو تردي المستوى السياحي في عُمان مقارنة ببقية الدول التي بنت من خلال الإعلام وحده بنية سياحية فاقت الآفاق رغم أن سلطنة عمان لديها طبيعة تؤهلها لتتمركز في المستويات العليا في الجذب السياحي . .!

والانفتاح يحقق مكسب سياحي عظيم لكل دولة ، ناهيك عن منافع تبادل ثقافات وتبادل خبرات وتطوّر ورضا على مستوى إنساني ، وسياسة الانكفاء لا تخدمنا على مستوى الترويج السياحي والسياحة بدون دعايات لا تروج ولن تلقى إقبالا والضخ الإعلامي لخدمة السياحة ضرورة كخطوة أولى وبنجاح هذه الخطوة الأولى تكون خليقة بتحقيق الهدف المرجو تكملها الخطوات التالية . .

وعلى مستوى الانفتاح السياحي فالتجربة التركية مثال جيد التي لم نكن نعرف عنها ؛ لأن أخبارها كانت بعيدة عنها ولكن السياسة التركية نهجت منهجا مختلفا في السنوات الأخيرة والتي ضربت عدة عصافير بحجر واحد وازدهر اسمها على أصعدة عدة إعلامي واجتماعي وسياسي خاصة «السياحي» وروجت عن نفسها من خلال المسلسلات التركية التي يتابعها معظم فئات المجتمع ونجحت في تحفيز

المشاهدين للتوجه إليها وضخّ العملية السياحية ، والضجة السياحية تصب في مصلحة الشعوب دون شك ؛ فها هي مصر التي شهدت سنوات طويلة في سياحة كبيرة ولها أبعادها في الثروة المصرية وتشغيل معظم فئات الشعب ولكن مع الظروف الأخيرة تقلص هذا الجانب وخلف عن حالة بطالة واضحة في المشتغلين بها كمصدر زرق أساسي واليوم ما تحتاجه مصر هي دعاية السياحية كي تستعيد مكانتها السياحية المعروفة والمشهود بها . .

والدولة التي تعزل الشعب سوف تنشأ حالة من البلبلة في علاقة الشعوب بالسلطات وتفرغ هوة عدم الثقة وتتمادى الفوضى ويفرض التمرد نفسه وهو أمر ليس في صالح الشعب ولا في صالح السلطة . .! سوف تنشأ حالة من لا توازن ما بين فكر الحكومة وفكر الشعب كما يساهم في علاقة لا الثقة ما بين الحكومة والشعب وسوف يشعر الشعب أنه محاصر وضائق على حرياته وتكون ثمة ثغرة في علاقة الحكومة بالشعب وتنبثق المشاكل ولن يفرق الناس من هو الخائن الذي له أجندة ومن هو المواطن الصالح الذي يريد لوطنه أن تغدوا منارة يهتدي بها وإليها الجميع . .!

هو جزء من هذه التركيبة وجب على السلطة أن تستوعبه وأفكاره وطموحاته وما هي أهدافه . . وعليها أن تؤمن بأن له الحق في أن يطالب في أن يقرر في أن يشارك في منظومة بناء الدولة ، فالوطن للجميع والشعب هو كل الوطن . .

استيعاب رغبات الشعب لا يعني تنفيذ مطالبهم فقط ؛ فالمطالب الشعبية لا حدود لها وإرضاء الناس غاية لا تدرك ولكن يعني أن تضعهم في الصورة بكل أبعادها أن يكون المواطن هو الطوب الأساسي

لكل مشروع وفي كل قانون يراعى رأيه وحقوقه عبر استفتاءات واسعة وشاملة مع وضع قوانين تطبق على الجميع ليتحقق معنى العدل الكلي ، فإن معظم أسباب هلاك المملكات وسقوط الدول هو تفشي الفساد وإسقاط معنى الحقيقي للعدل وتطبيقه على فئة دون فئة كما يقول «ابن خلدون» : «إذا زال العدل انهارت العمارة وتوقف الإنتاج فافتقر الناس واستمرت سلبية التساقط حتى زوال الملك . .!»

اختلف مفهوم العزلة وباختلاف مفاهيمه هو أمر غير صحي في هذا الوقت من الزمن على مستوى أفراد ومجتمعات وعلى مستوى دول . .!

وعلى مستوى أفراد ها هو الشعب العماني مثله مثل باقي الشعوب يرسم له خطا بعيدا عن عزلة التي نشأ عليها وسار آباؤه عليها طوال الزمن الماضي . .

الزمن يا زمن
هارون.. وأمريكا.. وما حدا أدّي..!

قلت في مقالة سابقة هذه العبارة : «هناك في أوروبا من حقك الشخصي أن تلعن وتقذف بأقذع السباب رؤساء أوروبا ووزرائها وتنتقد بشراسة لاعبيها ومشاهيرها لكن حذاري ، حذاري ، حذاري . . أقولها بالثلاث أن تهمس شيئا في حق إسرائيل أو في حق الجالية اليهودية ؛ لأن كلامك قد يفهم في غير سياقه ؛ ولأن التهمة جاهزة «العداء للسامية» بل قد يحدث لك أسوأ مما حدث مع «جون جاليانو» كبير مصممي دار أزياء «ديور» التي طردته من داره لزعم يهودية أنه قام بشتمها . . أي عاد السامية . .!»

وأعيد ذكرها هنا . . لأن ثمة إشكالية يعاني منها عقلي ولا أدري على أية موازين أقيس حجم حيرتي ، خاصة إذا ما كانت الحيرة ذاتها تنصب على ميزان العدل نفسه ، ولا عدل . .!

ومبعث الحيرة أننا اعتدنا طوال أعوام أن العدل مفقود عند ما يسمى «الصهيون» أو إن شئتم التسمية العامة «اليهود» سوى مع بني جلدتهم ولكن إن تعارض موقف بني جلدتهم مع مصالحهم ؛ فإنهم لا يتوانون عن ذبحه كالخروف بلا أسى . .! إنها سياسة صهيونية معروفة ولعل قضية مصمم الأزياء الشهير عالميا «جاليانو» خير دليل على أن العدل ليس غائبا فقط بل مغيبا بعمد مع سبق الإصرار والترصد ،

وهذا البريء الذي جعل متهما بمزاج الصهينة كان عليه أن يدفع ضريبة لم يقترفها . .!

أليس ثمة خلل مشترك في ميزان العدل ما بين الساميين وبين «وزير العدل ووكيله» في قضية المواطن العماني «هارون المقيبلي» الذي تلبس عليه مفهوم العدل واحتار إلى أي درب ممكن أن يفضي إليه كمواطن على «قد حاله» لرفع مظلمته بعد أن تعدى عليها وزير العدل ووكيله ، وكان من الطبيعي أن يتجه نحو الإعلام - خاصة في وقت تفشت فيه حريات التعبير ووأد مفاهيم الخوف السائدة ما بين الشعوب العربية في ربيعها العربي - لهذا وضع المواطن «هارون» قضيته على كتف صحيفة «الزمن» التي نشرت مظلمته مع وثائق ومستندات ، وهذا التصرف هو ما أثار بركان العدل بحجة أن كرامته تعرضت للإهانة . . يااااا حرام ، ماذا عن كرامات الآخرين التي تداس من قبلهم بلا حسيب ولا رقيب . .؟!

ومن هنا حدث تغيير هائل في القضية ، وانصبت التهم على صحيفة الزمن بعدما كانت التهم على وزير العدل ووكيله اللذان أكلا حق المواطن مهضوم الحقوق «هارون» وهو الذي غدا لا في العير ولا في النفير . .!

وبدأت محاكمات جريدة «الزمن» وصحفيها الذين قاموا بواجب طبيعي تماما لرفع مظلمة مواطن في مجتمع يشملهم جميعا كما تشمله ، ويبقى اللغز حائرا مطرقا في عقلي : من ظلم من ، المواطن هارون أم صحيفة الزمن أم وزير العدل ووكيله ، ألا تلحظون أننا في فوضى الأنظمة وضياع المفاهيم والحقوق تناسينا أول القضية ومشكلها لنجد أنفسنا في مجابهة قضية الزمن ، كما تناسى العرب والغرب قضية استيلاء اليهود على الأرض الفلسطينية فأصبحنا اليوم نطالب

بأحقية قيام دولة فلسطين في أرض هي أصلا لهم . .؟! لأننا في زمن أصحاب النفوذ لا زمن المعدمين الذين لا حيّلة لهم بل الحيّل عليهم ؛ فهل تلام حيرتي العقلية . .؟!

***

ذكرت الوزارة الخارجية الإيرانية في بيان لها أنها أفرجت عن الأسيرين الأمريكيين ؛ كي تظهر احترامها لجهود الوساطة التي بذلها عدد من القادة العالميين بينهم الأمين عام «بان كي مون» والرئيس العراقي «جلال الطالباني» والرئيس الفنزويلي «هوغو شافيز» والسلطان «قابوس بن سعيد» سلطنة عمان . .

وقد وردت تعليقات كثيرة عن تدخل هؤلاء القادة من أجل الإفراج عن أسيرين أمريكيين في سجون إيران منذ عامين فقط بينما لا يحركون ساكنا من أجل الإفراج عن آلاف الأسرى الفلسطينيين في سجون إسرائيل منذ عشرات السنين . .!

وكوني كمواطنة عمانية أقول : لماذا لا يسعى القادة في وطني إلى إطلاق سراح صحفيي جريدة الزمن ، أليسوا أولى من الغريب ، وليس أي غريب . .؟!

ثم أليست من الازدواجية أن تسارع منظمة العفو العالمية إلى السلطات العمانية إلى إسقاط الدعوة ضد المدانين في وقت سارعت فيه السلطات العمانية عينها إلى نصرة الأسيرين الأمريكيين . .؟!

وفوق كل هذا ، المطالبة هي إفراج أو إعفاء عن أشخاص ليسوا جائرين على الحق بل المنافحة عن الحق هو ما جنى عليهم . . فياله من فارق . .؟!

***

في مجتمع يتفشى فيه القمع ، لابد أن نجد سجون زاخرة بالمسجونين ، هؤلاء الذين أبت أنفسهم رؤية الظلم يمشي على قدميه بخيلاء ولسان جبروته ينطق يا «أرض اشتدي ما حدا أدي . .!»

ولا أحد قدها فعلا طالما اختار أقوام أن يكونوا ضمن فئة «بني صامت» فالنعات معروفة عبر التاريخ لا يرون ولا يسمعون ولا يتكلمون . .!

في وقت يتخبط فيه السجين المتعثر في مربع ضيق مظلم ؛ لأنه طمح أن يرتقي بأفراد مجتمعه وأن يرمم فجوات المظالم الطاغية باستعادة الحق . . على هذا فإن أقل ما يقدمه الفرد لأخيه الفرد الذي تعثر من أجله ولصالحه ووطنه إلى أن يناصره ، وهذه المناصرة حتى تتمدد بتأثير أعمق وصادق يكون بمظاهرة عامة أو إضراب أو احتجاج أو اعتصام تعددت الطرق والهدف واحد . .

لقد استبشرنا مع نوارة الربيع العربي استعادة عدة مفاهيم كنا نسمع بها وكان إرساؤها كواقع في مجتمعنا حلم جميل كـ«الحرية» و«العدالة» و«الكرامة» ولا يمكن لهذه المفاهيم أن ترضى البقاء في وطن لا يقدرها ولا يوفي حقها كاملة غير ناقصة على أصعدة كافة دون أن تتحكم بها الأهواء والمزاجيات باسم الدين أو القانون أو أي حجة دامغة . .!

لهذا على الفرد وهو المواطن والإنسان أن يثبت فرديته وحقه الشرعي في الحرية والعدالة والكرامة ، من الآن في مثل هذا الوقت وإن ضيّع فرص المطالبة بها ؛ فعليه ألا يعض أصابعه ندما حين يفوته القطار . .!

عليه أن يثبت حقه كصوت وجسد وضمير لأجل من وقف

وصارع وكافح وسجن من أجله ، وفي معرض مسؤولية الفرد قام ثلة من خيرة الشباب العماني بسرية تامة في البدء والتخفي في بلد يضطر فيه المرء للتخفي ؛ كي لا تجهض جهوده . . قاموا بمشروع جاد ومسؤول بشعار : «لن نسمح» فلن نسمح بمصادرة الحرية أو خنقها أو نفيها أو بتر أعضاءها أو قتلها ، لن نسمح للعدل أن يستحيل إلى كائن منفوخ الظلم يرفع من يريد ويقذف إلى الحضيض من لا يريد ، لن نسمح بإرادة هوائية المزاج حيث الريح المصالح تميل . .

«لن نسمح» بإطباق الشمع الأحمر على صحيفة الزمن لا شهر ولا شهرين ولا حتى ليوم واحد . . هذه المبادرة وهذا المشروع الباذخ بروح الوطنية والحرية «لن» و«لا» يقف على قدميه بثبات «لن» و«لا» يحقق خيرة أهدافه «لن» و«لا» يكون له كيان صامد ثابت حقيقي متوحد بدون مساندة من كافة الجهات والأفراد المؤمنين بحرية صحيفة الزمن وحرية الصحافة في وطن كعمان . .

فحينئذ «لن تسمح» حقا . .!

خانوا أسماءهم..!

إننا في عصر الدروس والعظات والعبر بامتياز للعاقل الذي يتعظ ، لضمائر تعتبر من حركة التاريخ وسقوط وقيام ممالك ليس في غمضة عين بل بهمّة شعب ، في زمن احتشدت فيه قيم ومبادئ حية وأخرى ميتة كانت تصول وتجول بمرأى من الجميع . .

في خبر قصير عن صحة الرئيس إسرائيل الأسبق «آرئيل شارون» التي هي من تدهور إلى تدهور حيث اضطر الأطباء الإسرائيليون إلى استئصال أجزاء من أمعائه بعد إصابتها بالعفن والغرغرينا ، والمعروف أن شارون أصيب بجلطة دماغية ، وشلل تام ، لا يستطيع معه أن يحرك حتى جفون عينيه ، وينتظر أن يتم استئصال أجزاء جسده الواحد تلو الآخر وهو حي . .!

أليس هو ذات الجسد الذي كان في زمن مضى يستمتع بشهوة دموية وهو يتفرج على جثث الأطفال والنساء والشيوخ والشباب الفلسطيني وهي أشلاء متناثرة طرية الدماء والحزن ، ولكن في الزمن الآني على ما يبدو لقد خانه جبروت جسده ، خانه حتى الحياة ؛ تنفيذا لعدالة الرب . .!

و لكل من يتابع نتائج «الثورة المصرية» سيحتشد دروسا مستفادة عن ممالك تعلو ومن ثم تسقط ، عن التاريخ الذي يخلد من يخلد بشرف ويطعن من يطعن بانكسار لا يبرأ ، ووحدهم من زجوا بأنفسهم

في قلب التاريخ بطرق ملتوية سيدفعون أثمان وجودهم بطريقة أو بأخرى ، في زمن يثبت لنا أن ليسوا وحدهم الأحرار والمعدمين يدفعون ضرائب كرامتهم بل من داسوا على كرامتهم وسلبها منهم دون وجه حق ، هم من سيُدفعهم الزمن الثمن النفيس ، الزمن العادل ، الحي ، إن آجلا أم عاجلا . .!

لكل من يحدق إلى «أصحاب البشوات» خاصة أولئك الذين نهبوا مصر وثرواتها طوال تلك الحقب التي خلت تنتابه مشاعر عدة ، منها أن الطيور على أشكالها تقع ، وأن من كانت جيوبه ثقيلة ستكون مرقعة يوما ، والدرس الأهم أن الله يمهل ولا يهمل . .

لفت نظري وأنا أتابع كالآخرين آخر تطورات محاكمة الرئيس السابق «حسني مبارك» وحرمه ونجليه وحاشيته من الوزراء الذين لعبوا في ثروات مصر وخيراتها بلا أدنى وخز للضمير ، قضية «الأسماء» خاصة تلك التي يحملها تابعي الرئيس المتنحي وهم : «أحمد نظيف» وهو رئيس الوزراء المصري السابق ، و«حبيب العادلي» وزير الداخلية السابق و«يوسف بطرس غالي» وزير المالية السابق ، وأمين التنظيم الأسبق في الحزب الوطني «أحمد عز» ورئيس مجلس الشورى السابق «صفوت الشريف» ووزير البترول الأسبق «سامح أمين» . . وعند التدقيق نجد أن أسماؤهم كالتالي «نظيف» ، «العادلي» ، «غالي» ، «عز» ، «الشريف» ، «أمين» . .!

يقال في معاجم اللغة العربية أن «لكل امرئ من اسمه نصيب» ولكن ما حدث لحاملي تلكم الأسماء أعلاه سيحرضّنا على سؤال مهم : هل من الممكن أن تخون الأسماء حامليها ، تخونها لدرجة الخذلان . .؟!

وبالتأمل سندرك بأن الأسماء براء، ومن أطلق على هؤلاء هذه الأسماء أيضا براء، بل هم من شوّهوا الأسماء التي يحملونها، أسماء آبائهم وأجدادهم، وسيذكر التاريخ جيدا هذا التشويه . .!

والمدهش حقا أن كل واحد من هذه الجوقة بأسمائهم الملتصقة بهم كأنما وضعوا في مكان جُرم المناسب، فعلى سبيل المثال وزير الداخلية «حبيب العادلي» الذي وضع في مركز حساس جدا من أجهزة الدولة فلا كان عادلا يوما ولا حبيبا من قائمة الشعب . .!

و«أحمد عزّ» الذي تلاعب مع من تلاعب في ترشيحات الشأن الوطني لم يكن ذا عز وأنفة يوما تجاه وطنه وأبنائه . .! و«صفوت الشريف» الذي خان الشرف، «وأحمد نظيف» الذي كان تضاد اسمه كليا، و«سامح أمين» الذي خان الأمانة بسماحه لـ«حسين سالم» رجل الأعمال الهارب من الحصول على منافع مالية بغير حق تزيد على ٢ مليار دولار . .!

في متابعتي لقوائم هذه الأسماء لهؤلاء الأشخاص، تكونت لدي حساسة غريبة من الأسماء، التي قد يخونها أصحابها ويلطخها بمستنقع مرير لا خلاص له منها . .

خانوا أسماؤهم، وخانوا أوطانهم، وخانوا ضمائرهم، ومن خان لا يخون الآخر بل يخون نفسه ؛ فما أكثر خياناتهم في حق أنفسهم . .!

أقول هذا وأنا أتأمل اسم «عصام شرف» فعسى من رشحته «الثورة» أن يكون حاملا الشرف إلى أهل مصر الكرام بعدما نسوا مذاقه . .!

حدوتة مصرية..!

مصر تارة أخرى كأنما الزمن تراجع إلى الخلف ، إلى حيث هتافات مليونية شاسعة وحادة تطالب بتنحي الرئيس محمد حسني مبارك . .!

واليوم الهتافات نفسها تتصاعد وتتبخر من هياج أمواج صوتية نفسية اجتماعية استقرارية أمنية شعبية وجمهورية مكثّفة في غيمة رعدية برقية هاطلة بحرارة بحل المجلس العسكري و«امشي يا مشير» . .!

وكأنما الحياة السياسية للشعوب اختصرت في لفظتي «تعال» و«امشي» بعد أن كانت «يريد» . .! وهذا أمر يكاد يبدو طبيعيا مئة بالمئة ؛ لأن كرسي «الأمان» ما يزال فارغا وليس فارغا في الآن معا . .!

وحتى يفهم الجميع لابد أن نحكي الحدوتة الأخيرة التي وقعت في ميدان التحرير قِبلة المتظاهرين وبيتهم وتوجهاتهم ومصدر أمانهم المؤقت كونه مكان لـ المطالبة والهتاف ورفع الصوت متظاهرين وبلطجية وشتم والقتل وخناقات وأنا وآخر ومسلم ومسيحي حكومة وشعب وكلها في كفة واحدة تدعى «مصر» . .!

الحدوتة كما يرويها معظم المتظاهرين الذين كانوا في قلب التحرير أن قوات الأمن شنت هجوما على المتظاهرين المحتجين الذين يريدون إنهاء حقبة الحكم العسكري وقوات الأمن ، وجاء على هذا الاحتجاج

رد فعل عنيف من قوات الأمن وخلّف ٣٣ قتيلا وهذا السلوك العنيف خلّف انفعالات من الهياج والغضب والتوتر وتأزم النفوس على جميع المستويات ، وكان من أبرزها موقف ابنة الوزير الثقافة المصرية التي كانت معتقلة رفضت مصافحة والدها بعد خروجها من الاحتجاج ، لكنها غيرت موقفها بعد أن قدم والدها الوزير «عماد بدر الدين أبو غازي» استقالته ؛ للتعبير عن اعتراضه على «معالجة الحكومة للأحداث الأخيرة» في ميدان التحرير بالقاهرة . .

ليس هذا فقط بل إن قوات الأمن قامت باستخدام غازات مسيلة للدموع مضرة جدا على مستوى الصحة وتسبب بحالات وفاة فورية ، بل إن أحد الأطباء في أحد المستشفيات العامة أفاد أن عناصرا من قوات الأمن قاموا باقتحام المستشفى وقاموا بتحطيم كل المعدات والأجهزة والغاية من ذلك كما يشير الدكتور مصطفى مراد : «أجهزة الأمن في إطار خطتها لقتل أكبر عدد من المتظاهرين ، اقتحمت المستشفى الميداني داخل ميدان التحرير ، وقامت بتدمير محتوياته بالكامل ودهس المصابين ، ما يكشف عن نية القتل العمد . .!»

ولا يفوتنا أمر مهم جدا ، يستدعي التأمل الكلي كشفه ناشط بحركة «قادمون» «وائل هاشم» عن وجود عدد من البلطجية داخل ميدان التحرير يتحركون في مجموعات منتظمة وبقيادة واحدة في خمس مجموعات أو أكثر ولا يزيد عدد كل منها على ٢٠ فردا ، وهذه الفئة تشتبك مع الشرطة وتثير المعتصمين بل تقوم بتصنيع عدد من قنابل المولوتوف . .!

لماذا وقع – ومازال يقع – كل ما سبق أعلاه من أحداث . .؟!

لأن أول انتخابات تشريعية بدأت منذ سقوط الرئيس السابق

حسني مبارك اثر انتفاضة شعبية أطاحت به . .!

أما السؤال الأهم وجاء على لسان مواطن مصري : «للي بيسأل هم نزلوا التحرير ليه . .؟!» وهذا السؤال طرحه الدكتور «عادل توفيق» على صفحته في الفيس بوك وصاغ أسبابا واستفهامات استنكارية تعجبية تدعو إلى التأمل الطويل لتحصيل الحاصل ونورد بعضا منها : «لما تقوللي مفيش أمن بعد ٩ شهور ، رغم المليارات اللي انصرفت على الشرطة ، يبقى في حاجة غلط . . لما تقوللي إن الفوضى هستمر لحد ٥ / ٢٠١٣ موعد انتخاب الرئيس يبقى فيه حاجة غلط . . لما تقوللي إن لحد النهاردة مفيش ولا جنيه رجع من فلوسنا اللي عند الحرامية يبقى فيه حاجة غلط . . لما تقوللي إن الثوار بيتحاكموا عسكري ومبارك قاعد في مستشفى ٧ نجوم ونائب رئيس الشرطة بيضرب تعظيم سلام للعادلي في المحكمة يبقى أكيد فيه حاجة غلط . .لما تقوللي إن تونس انتخبت لجنة تأسيسية لوضع دستور جديد وتشكيل حكومة انتقالية ومصر لسة بتعمل مجلس شعب هاينتخب لجنة تأسيسية لوضع دستور سنة ومش هيشكل حكومة يبقى فيه حاجة غلط . . .» . . إلى لا آخره . .

ولتفسير تلك الحاجة غلط أضع رأيا شخصيا أدلى به الكاتب المصري الساخر «جلال عامر» وهو يجيب فيه على تأزم الوضع الراهن : «في رأيي الشخصي أن أفضل حل لما نعانيه الآن هو أن يتنحى الرئيس محمد حسني مبارك عن الحكم» . .

الحدوتة المصرية لم تنته بعد والمشكلة تكمن بتضخمها في «النهاية» تكمن وتتعمق وتتمدد في «رواة» تلك الحدوتة ، فالكل منهم يريد أن يختم الحكاية على طريقته ، الكل منهم يرّشح نفسه وينتخبها

لإكمال الحكاية ووضع نهايتها ، الكل منهم يطالب ويطلب ويريد وأراد ومازالت المطالبات والهتافات تتكدسّ وهذا يلغز ويطلسم سيرة الحدوتة المصرية وهذا يصبّ في مصلحة المنجمين والعرافين واللصوص والبلطجية وفلول الحكم السابق ، لكن المدهش والغريب والساحق أن الحدوتات المصرية التي عودتنا عليها شاشاتهم السابقة السالفة بل الماضية كانت من ثلاثين حلقة ويحدث أن يتطور الحدث وتتبلور الفكرة إلى حدوتة من أجزاء ، وتظل القلوب متعلقة بالنهاية من فيلم أو مسلسل أو مسرحية ، لكن هذه المرة الوضع مختلف تماما وكليا طوليا وعرضيا ؛ فشاشة العرض مستمرة ولسه فيه حاجات وحدوتات على ما يبدو من الوضع الراهن . .!

رعب إخواني في
ردهات الفن المصري..!

حصد «الإخوان المسلمين» وحزب «النور» السلفي على ما يصل إلى ٦٥ ٪ من أصوات الجولة الأولى في أول انتخابات برلمانية مصرية منذ الإطاحة بالرئيس السابق محمد حسني مبارك ، ولعل انتخاب هؤلاء عائد بالدرجة الأولى إلى إيمان معظم الناخبين بأن هذه الجماعة لا صلة لها بالرئيس السابق وفلوله وخيبة أمل الشعب من المثقفين الذي يكتفون بإتباع أساليبهم العقيمة إما التحلق في ندوات أو عرض خطب نخبوية بعيدة عن لغة الشعب البسيط وآماله وطموحه ، ولعل من ضمن الأسباب هو التاريخ القمعي الطويل للتيارات الدينية في عهد مبارك البائد ومن هنا تفجرت رغبة الشعب العاطفية بالدرجة الأولى بالتشبث بعهد جديد مختلف مع هذه الجماعة ؛ علّ الأحوال المصرية والفساد والمفسدين والرشاوي وغيرها من القضايا على أصعدة سياسية واقتصادية واجتماعية تتباين تباينا كليا . .!

لكن ثمة توجس هائل من بعض الجهات الإعلامية وما لها علاقة بالفن والتمثيل والغناء خاصة ، وهذا التخوف راجع إلى اعتقاد سائد عند هذه الفئات أن إخوان المسلمين والسلفيين لا يعترفون بالفن ورسالته ، بل وربما يصل الأمر إلى التنكيل بكل من يدعوا إلى الفن أو يمثله . .

وعلى رأس هذه القائمة المرتعبة من حكم السلفيين المخرجة «إيناس الدغيدي» التي عبرت عن رأيها الصارم بأنها سوف تضطر لمغادرة مصر إذا ما تصدروا الحكم ؛ فهي لديها أفكار جريئة في الفن ، لن تتوافق مع هذه الجماعة وتشددهم ، وقد صرحت على حد اعترافها بأن هذه الجماعة قد أهدرت دمها وطالبت عناصرها بإقامة الحد عليها ؛ لأن أفكارها ضد الدين . .!

ومن الغريب أن تقف فنانة محجبة كـ«صابرين» ضد حكم إخوان المسلمين والسلفيين ، بل ترجّح بتشاؤم عن مستقبل سيء للفن المصري في عهود هؤلاء ، فهي ترى أن نظرتهم للفن واحدة على أنه محرم ويعد دعارة وكما عبرت قائلة : «أعرف تماما كيف سيفعلون بالفن ، سيضيقون علينا حتى نخسر ونرحل أو نتوقف» . .!

لكن الناقدة «ماجدة خيرالله» لها رأي مخالف وقد عبرت أن الذين يفكرون في الهجرة إلى الخليج هربا من احتمال توقف الإنتاج الفني في مصر إذا سيطر التيار السلفي على مقاليد الأمور ، لا يملكون الثقافة أو رؤى واضحة ؛ لأن هذا الاحتمال مستحيل حدوثه ، بل إنها ترى في أن رحيل هؤلاء أفضل فما هم سوى مجموعة من المنتفعين محدودي الموهبة من الآكلين على كل الموائد ، وما تحتاجه مصر نجوم شباب أكثر وعيا وثقافة وموهبة وحب لمصر وشعبها . .

ويبدو واضح للعيان أن ثمة تخوف يكاد يبدو مرضيا من حكم «إخوان المسلمين» والسلفيين في مصر ؛ وفي ذلك كما يرى البعض مبالغة ، فلم يصدر أي بيان من قبل هذه الجماعات عن الفن كما أنها لا تعتبر الفن حرام ، فالفن المصري تاريخه عريق وعتيق يربو على ١٠٠ عام ، والأمر وحده لا علاقة له فقط بالممثلين والممثلات ، بل هناك

جهات أخرى تعمل وهذا رأي يراه نقيب الممثلين «أشرف عبد الغفور» . .

ويبدو ثمة تضخيم كاشف ؛ فها هي إيران في ظل الحكم الإسلامي المتجبر والمتناقض لأصحاب العمائم غير أن الفنان الإيراني عرف جيدا كيف يبرق نجمه ويتسامق إلى أعلى المراكز والدرجات العالمية وأفلام مخرجيه تتصدر لوائح الجوائز السينمائية العالمية سواء من كان داخل إيران أو خارجها ولعل آخرها فيلم المخرج «جعفر باناهي» الذي يقبع محبوسا في شقته في حبس إجباري ومحظور عليه ممارسة إخراج أفلام لمدة عشرين عاما ، غير أن هذا المخرج رغم كل الضغوط والممنوعات استطاع أن يصور فيلمه الخاص «هذا ليس فيلما» متناولا سيرته وأحلامه وتطلعاته وخيباته ؛ ليعرض عبر شاشات مهرجان «كان» السينمائي ويحصد جائزة المهر الآسيوي الأفريقي ، فالرقابة لا تقود بالضرورة إلى اختناق الفن وذبوله ، فرغم أهمية الحرية للإبداع إلا أن القيود قد تقود المبدع الحقيقي إلى أساليب فنية أكثر عمقا وإبداعا للتعبير عن مكنون أفكاره وهذا ما يؤكده فناني ومخرجي السينما الإيرانية ، والبقاء للأفضل دائما أما الفن الهابط فهو فن دخيل واستغلالي وتخلو من رسالة الفن الأصيلة ، فمن المنطقي جيدا أن أول ما سوف يطرأ على عقول مروجيه هو الهجرة أو الهروب بعيدا إلى سوق وجماهير تستوعب أعمالهم السطحية والرديئة . .!

وهذا التخويف المتفاقم من حكم السلفيين وإخوان المسلمين ليس قاصرا على من في مصر بل حتى الغربيين لهم نظرة في ذلك على أساس أن هذه الجماعة قد تعادي الديمقراطية وتطبق سياسات دينية متشددة وصارمة من نواحي عدة لكن الدكتور «أحمد زويل» له رأي

مخالف وقد عبر عن هذا بقوله : «في رأيي أن مخاوف الغربيين من قيام الإسلاميين باختطاف الديمقراطية مبالغ فيها ؛ لأن المصريين شعب متدين بطبيعته من أيام إخناتون ، وكان الدين دوما هو القوة الدافعة وراء وحدتهم المجتمعية ، قد يسيطر الإسلاميون على الحكومة الجديدة ولكن أداءهم في دولة ديمقراطية حقيقية بالنيابة عن الشعب هو الذي سيحدد قدرتهم على البقاء . .»

والقول كما أشار د . «أحمد زويل» فمدى مواقفهم من الديمقراطية وتطبيقها بين الشعب المصري في تالي الأيام ، هو ما سوف يحدد مصيرهم فيما بعد خاصة حين وضح د . «يسري حماد» المتحدث الرسمي لحزب «النور» السلفي أن حزبهم خسر ٢٠ مقعدا وذلك يعود إلى موقف «عبدالمنعم الشحات» من أدب الروائي العالمي «نجيب محفوظ» بأنه ينشر الرذيلة والدعارة والمخدرات ، مما تسبب إلى تراجع أصوات الناخبين في ترشيحهم ، رغم أن د . «يسري حماد» يرى أن ما أدلاه «الشحات» يمثل رأيه الشخصي ولا علاقة حزب النور السلفي بما جاء على لسانه وهو السبب نفسه الذي أدى إلى إجراء منع «الشحات» من التعبير عن الحزب وقد شمل جميع أعضاء الحزب عدا المتحدثين الرسميين ، وهو قرار مأخوذ بعين اعتبار فقد أدركوا جيدا أن استمرار الأقوال الخشنة وحالة التجبر والتكبر والتشدد المفرط التي تلبست القادة السلفيين سوف يدخل دائرة الرفض الشعبي المصري لهم . .!

يبدو أن ثمة نظرة تشاؤم وإحباط لبعض الفئات ، حتى أنهم أوردوا عدة نكات تتوافق وما يشعرون به تجاه حكم الإسلامي وقد تفشت في صفحات «التويتر» و«الفيس بوك» بين معظم المصريين باختلاف

انتماءاتهم والشعب المصري معروف عبر أجيال مديدة بلغته الساخرة ، ومما يؤكده معظم المصريين بأنهم إذا لم يلقوا نكتة خلال خمسة دقائق فهذا يعني أن ثمة أزمة خطيرة قد وقعت . .!

مما لا شك فيه أن اللغة الساخرة والآراء الساخرة هي من أقوى لغات العصر الحالي قبولا وتأثيرا وتحببا للنفس ، لكن ينبغي الانتباه إلى نقطة مهمة جدا وهي عدم إساءة أو إهانة «الدين» كيفما كان إسلاميا ، مسيحيا ، هندوسيا وتشجيب مغالطات رجاله ومواقفهم وما يصدر منهم على الدين ، فالدين براء من تلك العقول الضيقة التي انتخبت نفسها ملالي أو شيوخ . .!

والنقطة الأهم هو عدم الاستهزاء بالدين ، والأمر أحيانا يصل لحد تعريض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية الشريفة لمهازل السخرية وهو أمر مرفوض تماما ويعبر عن عقلية لا تحترم تلك المقدسات ، والدين قبل كل شيء هو أخلاق واحترام اختلاف الآخر . .!

ولهذا مهما غدت مساحات تضييق وغلو تلك الجماعات الإسلامية وجب عدم ربط ما يصدر عنهم من ممارسات منافية للواقع وفي بعض الأحيان للاعتقاد بـ«الدين» فالدين الإسلامي فوق لغة الأهواء والمزاجيات البشرية . . فلا لسبّ الأديان أو الذات الإلهية ، لا للاستهانة أو امتهان أو الاستخفاف بالدين ولا لتمرير نكات تتعرض لمقدسات وشرائع دينية لا يجوز المساس بها مطلقا . .!

وأعلني الصرخة
في وجوههم: حرية

إنها «سوريا» . . سوريا «غادة السمان» و«نزار قباني» و«الماغوط وسنية» و«ممدوح عدوان» وغيرهم الكثيرين ، أولئك الذين اجبروا على تركه خلفهم كذكرى موجعة . . الوطن الذي عانى ويعاني وما يزال عليلا لنقص في الأكسجين ، غادروه بعد غصّة في القلب ، ليكونوا منفيين إلى سموات أوطان بديلة احتوت بحب حرياتهم وإنسانيتهم . .!

لكل من يتابع الوضع السوري سيخرج بأن المشهد يمر بثلاث مراحل والتي أرى أنها تتماهى مع نظرية «آرثر شوبنهاور» الذي قال بأن : «الحقيقة الكاملة تمر خلال ثلاث مراحل ، أولا : ستُبعث على السخرية ، ثانيا : ستُعارض بقوة ، ثالثا : ستُقبل باعتبارها فرضت نفسها» . .

قبل اندلاع الثورة السورية كنت قد سألت _صديقة سورية _ سؤالي هذا : «هل تتوقعين وضعا مشابها في سوريا كما في تونس ومصر . .؟»

فردت قائلة : «ربما . . ولكن السياسة السورية قمعية جدا ؛ لدرجة أن المرء يلجأ إلى منع تنفسّه إن اضطر . .!»

وسردت لي عن ممارسات وحشية قام بها «رأفت الأسد» شقيق

الرئيس السابق «حافظ الأسد» في سنوات ماضية حينما فرض قرارا بمنع تحجب المرأة السورية ، بل تماهى في غيّه حين أمرّ بنزعه نزعا من رأسها في الأسواق والشوارع العامة ، وإن تم اعترض من قبل الزوج أو ولي الأمر ، فإن عملية قتله أمام أهله تتم دون أي مناقشة ، وقد تأزمت الأحداث في سوريا في هذه الفترة وحبس الكثيرون نساؤهم في البيوت خشية من بطش السلطة ولكن ثائرة بعض الأهالي الغيورين على عرضهم لم تهدأ ؛ فخشي الرئيس «حافظ الأسد» من غضب الشعب وقتئذ مما دعاه إلى إصدار قرار بنفي أخيه بعيدا عن سوريا ولكنه كان قرارا «صوريا» لتهدأ النفوس الجامحة لا أكثر ولا أقل . .!

وإذا ما كان الرئيس «بشار الأسد» حينما سئل عن فرضية تعرض بلاده لثورات مشابه كما في تونس ومصر واليمن ، فنفى هذا القول بثقة . .

و سوريا اليوم تغتسل بدماء الثوار الأحرار ومع تعتيم الأحداث بمنع الصحفيين والإعلاميين من نقل الحقائق ، ولجسّ نبض الوضع الحقيقي سألت صديقا صحفيا سوريا عن ما يجري في سوريا ؛ فلا أحد يعرف بلاد الشام قدر معرفة أهلها بها . .؟

ورد بعبارة واحدة واضحة : «لم أجد من يكره سوريا كما يكرهها كل من يحب بشار الأسد ، ولا أقول هذا الكلام ؛ لأني على الطرف المقابل لهؤلاء ، بل لأن سوريا لا تهمهم إذا لم يكونوا حكامها . .» .

ما يجري من أحداث في الأراضي السورية مرعب ، وهو رعب يعرفه جيدا أولئك الذين عايشوا سوريا وأزماتها منذ زمن طويل ، وبعد تفجر مأساة «المقابر الجماعية» التي تماثل الأحداث القمعية الوحشية التي كانت تجري في العصور الوسطى لا زمن التكنولوجيا المعاصرة . .!

إضافة إلى نزوح الآلاف عبر طرق برية ما بين الأحراش والبساتين هربا وأطفالهم من جرائم النظام السوري ، الذي لا يميز ما بين الصغار والكبار وكأنهم جرافات تبتلع كل شيء ، والمعبر نفسه الذي يتسلل منه السوريون إلى الحدود اللبنانية معرض للتسليح من قبل قناصة ، وهذا يشير إلى أن هؤلاء الأهالي الفارين من بطش السلطان يجازفون بحياتهم وأطفالهم . .

و«تلكلخ» مأساتها مأساة وهي محاصرة من قبل الجيش السوري ، الذين يقومون بعمليات دهم واعتقالات عشوائية فارضين الإقامة الجبرية على الأهالي ، وتجري فيها أعمال تأباها بشدة النفس البشرية من قتل العوائل العزل مع أطفالهم بهمجية ، وقتلى وجرحى مرميين في الطرقات والشوارع العامة دون أن يجسر أحد ما من الدنو منهم خوفا على نفسه من القناصة المتعطشين للدماء على كل الجبهات ، مع قصف المباني ذوات طوابق عديدة لضمان قتل جماعي وعلى دفعة واحدة ، أي أن النظام السوري يقوم بعمليات إبادات جماعية ، «تطهير» إن صحت التسمية . .!

إن سوريا حاليا حبيسة في المرحلة الثانية . . مرحلة «فرض القوة» إنها تتعذب تحت نير القوة القمعية للسلطة التي تريد بكل ما تملك في أن تحافظ على مركزها ، بكافة طرق القوة : قصف ، إبادة ، قطع وسائل الاتصالات الكافة مع الماء والكهرباء ، مداهنة البيوت وخاصة أماكن السكن الطلابية للتنكيل بالشباب ، عمليات اعتقالات جماعية . .!

الشعب السوري لم يتجاوز بعد من كابوس الخوف الجماعي من السلطة ؛ فمعظم الشهود العيان الذين يتحدثون يمتنعون عن ذكر أسمائهم خوفا من بطش السلطة بهم ، هذا الخوف الدهري الذي تعمق

في شرايينهم عبر أجيال متعددة جعلهم مخنوقين ؛ لدرجة أن صفحة «الثورة السورية» على الفيس بوك حينما دعت إلى إضراب جماعي من أجل الضغط على السلطات وتزامنا مع العقوبات التي فرضتها السياسية الأمريكية على الأسد وأعوانه المقربين ، جعلت البعض يمتنع عن الإضراب بشهادة شاهد عيان وهو - رجل أعمال - الذي رفض ذكر اسمه موضحا السبب : «من سيجرؤ على القيام بإضراب سيخاطر بفقدان عمله أو أن يستهدف من قبل السلطات ، فإذا ما أغلق أي شخص متجره فسيتم توقيفه على الفور وسيفقد لقمة عيشه . .؟»

ترى هل ستنتهي المرحلة الثانية وتلج سوريا إلى بشائر المرحلة الثالثة بموافقة كافة الأطراف في داخل وخارج سوريا . .؟!

يترقب الداخلون المعذبون المرحلة النهائية المؤزرة بالنصر أكثر مما تهم أولئك المتفرجين الصامتين وكأن على رؤوسهم الطير في خارج البقاع السورية . .!

وعلى «سوريا الجديدة» حتى تحتفي بمرحلتها الثالثة أن تفرض نفسها بكل ما تملك من قوة وإصرار وعزيمة في نيل ربق حريتها وكرامتها . . . وكوني كما قال فيك شاعر الحرية «أحمد مطر» في قصيدته الطازجة : قفي كسنديانة / في وجهِ كلِّ طلقةٍ و كلِّ بندقية / قفي كأي وردةٍ حزينة / تطلعُ فوقَ شرفةٍ شاميّةْ / و أعلني الصرَّخةَ في وجوههمْ . . حريّةً/ و أعلني الصرَّخةَ في وجوههمْ . . حريّةْ . .» .

تبرؤ الكتاب الأخضر
من القذافي بعد المفاوضات..!

«الكتاب الأخضر» للرئيس معمر القذافي لا يمثل الجمهورية الليبية الاشتراكية وحدها ، بل هي كما يرى مؤلفها دستور مقدس صالح لحكم العالم الأجمع ؛ ففي صفحات هذا الكتاب حلولا شاملة لكافة مشكلات التي تنكل أعناق وسواعد وأيدي وأرجل وقلب وكبد وطحال بل حتى أدنى ظفر من جسد الكون . .

مكتبة
t.me/soramnqraa

مع التفاوض:

- الكتاب الأخضر : «أصبحت المجالس النيابية حاجزا شرعيا بين الشعوب وممارسة السلطة ، حين عزلت الجماهير عن ممارسة السياسة واحتكرت السيادة لنفسها نيابة عنها» .
- القذافي : أنا قائد مجاهد ثائر ، لا يمكن أن يعطل هذه المسيرة حفنة من شذاذ الأفاق .
- الكتاب الأخضر : «أما المجالس التي تقام نتيجة التعيين والوراثة فلا تدخل تحت أي مظهر للديمقراطية ، وحيث إن نظام الانتخابات للمجالس النيابية يقوم على الدعاية لكسب الأصوات ، إذن فهو نظام «ديماغوجي» بمعنى الكلمة ، وأن الأصوات يمكن شراؤها ويمكن التلاعب بها ، وأن الفقراء لا يستطيعون خوض معارك الانتخابات

التي ينجح بها الأغنياء دائما وفقط» .

- القذافي : يا شباب ليبيا الأحرار ، شباب معمر القذافي ، ارقصوا ، غنوا ، اسهروا ، عيشوا العز «الله و معمر و ليبيا وبس» . .
- الكتاب الأخضر : «إن السلطة يجب أن تكون بالكامل للشعب» .
- القذافي : معي بندقيتي وسأقاتل حتى آخر قطرة دم أولئك الجرذان .
- الكتاب الأخضر : «الأحزاب يمكن شراؤها من الداخل والخارج» .
- القذافي : أيها المرتزقة ، يا من تسودون العالم ، كونوا ماهرين كفاية ؛ كي تصوبوا رشاشاتكم صوب رؤوس الليبيين تماما . .
- الكتاب الأخضر : «إن الذي يقول «لا» يجب أن يعبر عن ذلك ، ولماذا لم يقل «نعم» ، والذي يقول «نعم» يجب أن يعلل هذه الموافقة ولماذا لم يقل «لا» ، وماذا يريد كل واحد ، وما سبب الموافقة أو الرفض؟!»
- القذافي : كل شباب سجن بوسليم إرهابيون خونة آمر بذبحهم جماعيا ، فألفي ومئتي «لا» ألقيت في وجه معمر القذافي لا بد أن تدفع ثمنها غاليا دون أي مناقشة . .

وقفة إعلانية:

من أقوال العقيد معمر القذافي : (الكتاب الأخضر يبشر الشعوب بالهداية إلى طريق الديمقراطية المباشرة وفق نظام بديع وعملي) . .

(إن كافة الأنظمة الساسية في العالم الآن هي نتيجة صراع الطبقات أو الطوائف أو القبائل أو الأحزاب أو طبقة . .) .

مداخلة : صوت شعبي متألم : (لم يحدث قط أن قال هذا الرجل

في خطاباته أيها الشعب الليبي الحر . .!) .

***

- الكتاب الأخضر : «لا مبرر لقبيلة أن تسحق بقية القبائل لمصلحتها ، ولا مبرر لطائفة أن تسحق بقية الطوائف لمصلحتها ، الإباحة بهذه التصفية تعني نبذ منطق الديمقراطية والاحتكام لمنطق القوة» .
- القذافي : وفي اتصال سري مع زعماء القبائل في إحدى مناطق الثائرة لصفقة إعطاء كل عائلة من أفرادها ربع مليون دينار لقاء وقوفهم معه ضد الثوار . .!
- الكتاب الأخضر : «إذا حدث انحراف عن شريعة المجتمع في مثل هذا النظام يعالج عن طريق المراجعة الديمقراطية وليس عن طريق القوة » .
- القذافي : سأطهر ليبيا بيت بيت ، دار دار ، شبر شبر ، زنقا زنقا . .

وقفة تحليل :

- من أقوال ملك ملوك أفريقيا معمر القذافي : (من الناحية الواقعية فإن الأقوياء دائما يحكمون ، أي أن الطرف الأقوى في المجتمع هو الذي يحكم) .
- مداخلة من محلل سياسي ليبي : (هذا يبرر قول نجله سيف الإسلام حينما هدد بجبروت معلنا في ولادة الثورة : «سنقاتل حتى آخر رجل ، وآخر امرأة ، وآخر طلقة») . .

***

- الكتاب الأخضر : «الحركات الجماعية دائما هي حركات استقلالية ، حركات لتحقيق الذات للجماعة المغلوبة أو المظلومة» . .
- القذافي : أيها الجرذان ، الجراثيم ، أولئك الذين يتظاهرون ضد قائد الثورة القذافي يا حشاشون ومدمنون . .
- الكتاب الأخضر : «الأسرة بالنسبة للإنسان أهم من الدولة» .
- القذافي : قصف جوي بالمدرعات والصواريخ والرشاشات لكافة المتظاهرين رجال ونساء وأطفال .
- الكتاب الأخضر : «إن المرأة لكونها أنثى تتعرض طبيعيا لمرض نزيف كل شهر والمرأة إن لم تحض تحمل وإذا حملت تصبح بطبيعة الحمل مريضة قرابة سنة ، أي مشلولة النشاط الطبيعي حتى تضع . . . .»
- القذافي : عائشة ١ ، عائشة ٢ ، عائشة ٣ ، عائشة ٤ ، من يتحدى أمازونيات(*) معمر القذافي . .؟! بل من يصل لمرتبة «هدى بنت عامر» في قلب سلطة القذافي . .؟!
- الكتاب الأخضر : «الجنس الأسود عاداتهم الاجتماعية المتخلفة هي السبب في عدم وجود حد للزواج ؛ مما يؤدي إلى تكاثرهم بدون حدود بسبب تحديد ، في الوقت الذي يناقص فيه عدد الأجناس الأخرى بسبب تحديد النسل وتحديد الزواج وبسبب الانشغال

(*) أمازونيات : هي أسطورة لمحاربات رومانيات كن يقطعن نهدهن الأيمن ؛ لإتقان الرمي بسهولة .

بالعمل الدائب ، خلافا للسود الذين يمارسون الخمول في جو حار دائم» .

- القذافي : أنا فخور بالوزيرة الخارجية الأميركية السابقة رايس ، هذه السوداء من أصل أفريقي تبوأت مكانة عالية ، كما أن باعتباري ملك ملوك أفريقيا أدعو إلى التزاوج ما بين البيض والسود . .
- الكتاب الأخضر : «حركات التحرر القومي في العصر الحاضر هي نفسها الحركات الاجتماعية ، وهي لن تنتهي حتى تتحرر كل جماعة من سيطرة أي جماعة أخرى ، أي أن العالم يمر بإحدى دورات حركة التاريخ العادية وهي الصراع القومي انتصارا للقومية» .
- القذافي : الشعب لا يفهم الكتاب الأخضر . .

* وقوف على أشهر أقوال القذافي المرسلة عبر (بلاك بيري) :
- «للمرأة حق الترشح سواء ذكر أو أنثى» .
- «أيها الشعب لولا الكهرباء لجلسنا نشاهد التلفاز في الظلام» .
- «أنا لست ديكتاتورا لأغلق الفيس بوك ، لكنني سأعتقل من يدخل عليه» .
- «تظاهروا كما تشاؤون ولكن لا تخرجوا إلى الشارع والميادين» .
- «سأظل في ليبيا إلى أن أموت أو يوافيني الأجل» . .

* يا أيها الثوار الأبطال ، خذوا بنصيحة «العقيد القذافي» وهو يهلوس في خطابه التاريخي : (إلى الإمام ، إلى الأمام . . لا رجوع) . .
والنصيحة بجمل يا بدو الصحراء .

* في الشأن الإعلامي : (ضبط جوقة من المهلوسين في العاصمة طرابلس وهم يرددون بصوت ببغائي : «يا جزيرة يا حقيرة» . . .

وعرف أنهم من أعوان النظام المدعو «القذافي» ، وكما عرف أنهم جنود في ملابس مدنية ، كما عرف أن لكل واحد منهم حساب مصرفي ، كما عرف أكثر أنها أموال من العملة الصعبة) . .

تحليلات شخصية لكاتبة المقال:

* ثلاث مواقف تبدي عاهة «الفصام» في شخصية العقيد «معمر القذافي» :

- الشعب الليبي الأصيل : الشعب يريد إسقاط النظام .
- معمر القذافي : أنا مجد لا تفرط به ليبيا ، ولا أفريقيا ، ولا آسيا ، ولا العرب . .
- من أكثر المدن التي يبغضها «القذافي» هي : مدينة (بنغازي) أرض المجاهد «عمر المختار» . . لهذا خصّ ذكرها في خطابه : «أنا بنيت بنغازي طوبة طوبة . .!» .
- قول متسرب عبر أحدهم قائلا أن «معمر الفذافي» قال في حديث له مع الشعب : «السود يأتون إليكم ليقاتلوكم وأنا أمنعهم» . .!

❖ ألقاب «معمر القذافي» قبل ثورة ١٧ من فبراير:

تحتشد ألقاب حول هذا الرجل الفارغ القامة ؛ فهو العقيد القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وهو زعيم ليبيا وقائد الثورة في الجماهيرية ، وهو عميد الوحدة العربية ، وهو صاحب الخطابات الكوميديا السوداء ، وهو أقدم حاكم على وجه الأرض(*) ، وهو صاحب أطول فترة حكم

(*) تعليق الكاتبة : ماذا عن ملكة بريطانيا . .؟!

في ليبيا ، والأهم فالأهم هو ملك ملوك أفريقيا . .

الألقاب التي استحقها «القذافي» عن جدارة في عام ٢٠١١م حاشدة نياشينه دفعة واحدة من وجهة نظر الكاتبة :

١ ـ أكثر شخصية دكتاتورية لعام ٢٠١١م .

٢ ـ أكثر شخصية مجنونة لعام ٢٠١١م .

٣ ـ أكثر شخصية دموية لعام ٢٠١١م .

٤ ـ أكثر شخصية كوميدية ساخرة لعام ٢٠١١م .

٥ ـ أكثر شخصية صار اسمها أشهر من نار على علم على ألسنة الصغار والكبار لعام ٢٠١١م .

٦ ـ أكثر شخصية تناولت جرعات مهولة من حبوب «الهلوسة» لعام ٢٠١١م .

٧ ـ أكثر شخصية استخدمت في خطاباتها ألفاظا نابية ومحقرة لعام ٢٠١١م .

٨- (. . . .، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٢٠ ، ٣٥ ، ١٠٠ إلى لا آخره) .

المجال مفتوح أمام القارئ لإضافة المزيد ؛ فالدم الليبي مازال يغسل أراضيها . .

و«المتفرجون» ما أكثرهم . .!

* شهادة رجل بنغالي عائد من ليبيا : (كتير موت ، كثير طايرة ، كتير دم ، أنا في شركة اتنين شهر شغل فلوس مافي . . . .) . .

* شهادة متفائلة من رجل أفريقي مسالم بعد ترجمة لغته : (أهل بنغازي سيصلون طرابلس اليوم أو بعد غد أو بعده . . .) .

* توقعات عن نهاية القذافي :

- الانتحار .
- موت على يد الثوار .
- الهروب على متن أقرب طائرة .
- مشفى الأمراض العقلية .
- لجوء سياسي .
- البقاء في ليبيا واستمرار قتل أبرياء الأرض الليبية .

* تداعيات التدخل الاستعماري في الأرض الليبية بصريح العبارة : قال المناضل الفرنسي «فرانز فانون» في كتابه «معذبون في الأرض» : (إن الحرب الاستعمارية في المقام الأول بالنسبة للمحتل هي صفقة تجارية ، فالمستعمر أرسل جيوشه من وراء المحيطات ؛ كي ينهب البلد ويستولي على ثرواته . .) .
* حقيقة وضع الشعب الليبي : (شعب يملك السلطة ولا يحكم ، وشعب يحوز ثروة ولا يملك) . .
* قاعدة القذافي في ليبيا في الوقت الراهن : (أنا ومن بعدي الطوفان) . .

ختاما : لا تنسوا متابعة قناة الجماهيرية الليبية بين فينة وفينة ؛ فما أكثر الأقنعة التي يمكن استعارتها في حفلات التنكر العالمية في شساعة الكون . . ولتوسيع مساحات «الضحك» التي اجتاحت الأوضاع القذافية منذ بدء حركة الثوار المباركة ؛ والذين لهم الفضل كل الفضل في ترشيح المدعو «القذافي» كشخصية عالمية بارزة تثير السخرية مع ضحك يطول لا يقصر . .

عاهة صينية تجتاح عشاق القذّافي..!

لا تكتّـفـوا أيديكم على قـامـات رؤوسكم حين يتـراءى أمـام صدمتكم مشهد سجود أحد الموالين للقذافي أمام صورته المؤطرة ، ولا تضربوا أخماسا بأسداس حين تهتف تلكم الجوقة : «معمر وليبيا وبس» ثم من أجل تطبيل الجملة فقط بنغم متناسق ليصدح جرس كلمة «معمر» بصورة أوضح على تلك الألسنة الملعلعة التي تتفرقع مبتورة في فضاء طرابلس نكّهوا الجملة بلفظة الجلالة «الله» فتغدو : «الله ومعمر وليبيا وبس» والباقي على - مفهوميتكم - يا من أنتم خارج طرابلس وخارج ليبيا . . إما «خس» ، أو «خيار» أو « . . . .» رشحّوا أنتم الخضار أو الفاكهة التي تتذوقونها ، هذا باللفظ الواضح أما اللبيب الذي بالإشارة يفهم فسوف نخاطبه بالضمني ، فهنا تعني الجملة في خفاء معناها : «رشحّوا الاهانة التي تلائم مقامكم الوضيع» في أحداق الثاقبين من الموالين للعلم الأخضر . .!

ونواصل بعد ذاك الفاصل الهتافي أعلاه ؛ لتشمر الحكاية عن حقائقها المخبأة مع شاهد عيان صحفي يدعى «غيث عبد الأحد» الذي اعتقل مع صحافي برازيلي زميل له يدعى «اندري نيتو» كانا بمعية الثوار حين شقوا دربهم إلى منطقة الزاوية ، ولكن لأن الكتائب كممت الطرق بلغم سيطرتهم اضطروا للانحراف نحو صبراته والتي هي

الأخرى كانت تئن جريحة تحت نير العلم الأخضر ، افترق الصحفيان عن الثوار الأحرار وولجا منزلا تحت التشييد للاحتماء به ، ولكن في وقت متأخر هبّ الاثنان على أربعة رجال يدنون منهم ، مرتدين بزاة سوداء ، ومقلدين عصيا تلوح كالأفاعي عدا واحدا منهم كان يحمل بندقية ، طوقوا المنزل وكمموا منافذ الهرب ، وبعد أن انتشلوا عدة الصحفيين ، أرعدوهم آمرين بأن يسيروا قفزا كالضفدع كما أشار - الصحفي في اعترافه - مع خفض الرؤوس نحو السيارة بينما أقذع الشتائم تنفث في وجهيهما : «أنتم يا أولاد الحرام ، تريدون أن تطيحوا بالقذافي؟ سنريكم إذا . .!»

والبقية الباقية من حكايات الاعتقال الصحفيين وغيرهم تفاصيلها أشهر من نار على علم ، لكن ما أريد أن أنقله من تلك الزنزانة الضيقة التي كانت أشبه بصندوق صغير بلا نوافذ ، والتي قبع في زواياها المتراصة الصحفي «غيث عبد الأحد» والنتنة بروائح كريهة قلّ أن يتحملها آدمي ، هي تلك العبارات وذاك الولاء المقدس الذي ردده بيقين أولئك الجنود الموالين في الزنازين ، فمما رواه الصحفي أنه تناهى إليه في إحدى أيام محبوسيته أحدهم يغني أنشودة النصر للقذافي «إننا نحبه» مكررا «نحبه ونريده ، إننا نحن الليبيين من اختاره وليس الغرب» وواصل «معه رأينا الكثير من الأحداث وعشنا الكثير من التجارب وتجاوزنا الكثير من الأزمات وسوف نتجاوز هذه المحنة أيضا ، عشنا معه ٤٢ عاما لا أعرف أحدا إلا هو ، ويريدون منا أن نتحول ضده ، إنه ليس زعيمنا فحسب وإنما فيلسوفنا ومفكرنا وكل شيء» . . . .

هذه الاعترافات واقعية جدا ، وليس علينا أن نحشد أدوات

الاستفهام و التعجب ؛ لأن هذا العهد تكرر وهذه العاهة ، عاهة هوس هذه الجماعة بـ«القذافي» نابع من تعاليم ضجت في نفوسهم مذ كانوا أطفالا ، وهي عينها الأزمة التي ظللت الصينيين في عهد الزعيم الصيني «ماو تسي تونغ» الذي ضخ كل تعاليمه في كتاب اسماه في ذلك الوقت بالكتاب «الأحمر» كان هذا الكتاب مقدسا ، فهو من يحرر العالم وهو من يثري السلام في روح الكون ، وكان على الأطفال وجميع الناس اصطحابه معهم في حلهم وترحالهم وحفظه عن ظهر قلب ، وإن حدث إن سها أحدهم عن حمله ، فهو شخص معاد للثورة ويجب معاقبته بأشد تنكيل . .!

ما أعظم الحوادث الغرائبية التي نمت من وفي هذه الشعوب . .!

تدفع لشدة اعتراف إحداهن كوسيلة لإظهار ولائها لزعيمها «ماو» قائلة : «إنني لا أمانع في أن أكون خرقة تستخدم لمسح أكثر زوايا المطبخ قذارة من أجل زعيمنا ماو . .»! لندرك بهذا حجم وكثافة التظليل الفظيع الذي كان فيه هؤلاء . .! بل وصل الولع المرضي إلى حد جعل حركة المرور في عهده ثورية هي الأخرى ليكون «الأحمر» هذا اللون المقدس عند الزعيم «ماو» هو لون الانطلاق في عهده خلافا لباقي الدول وقتذاك . .

وما كانت حركة الثورة الثقافية الصينية التي فرضها على جيل الشباب ؛ إلا تكميما لعقول كانت من الإمكان والقدرة دون شك إن تركت دون قطع حناجرها بالعمل الشاق ؛ منارة لتحرير العقول والنفوس الضالة . .!

هذا الزعيم بعد أن غسل عقل شعب بأكمله بفرقه الشيوعية والذي أوهمهم بقيادة أنفسهم بأنفسهم ، لم يجانب هدفه في النهاية

سوى الحفاظ على مركزه القيادي ضد منافسين له على السلطة ، وهي خدعة تفجرت في وجه الصينيين حين وفاة زعيمهم . .!

بينما في ليبيا فكل شيء أخضر سوى ليبيا ؛ فصاحبنا العربي زعيم الكتاب «الأخضر» لا يتباين في شيء عن نظيره الصيني وقد كان في - وقت ما - صديقا عظيما لبكين ، فكلاهما يبديان تضاد ما يضمرون من نيات في حق شعوب كانوا قد أبدو لهم الولاء من أجل الولاء ، والمحبة من أجل المحبة ، والسلام من أجل السلام . .!

لكن هؤلاء أرادوا ولاء مفصّلا على قياس أهدافهم ومحبة تستثنيهم في مرتبة العبودية وحدهم وسلاما يستدعي أفكارهم ، فتنجب كل فكرة من معين فكره الخالص فتاوي سلامه الخاص . .!

وكل ما يبديه الموالين إنما يدعى بالوصف الدقيق بـ«الهوس» هوس رموز تغلبت عليهم «أناهم» لتكون هي الآمرة والناهية وهي الثرية والمرثية ، وحتى يتحقق هذا فإن على الآخرين أن يقتلوا ذاك المخلوق الصغير الذي يردد داخلهم في كل مرة هوس «أنا» يسحق أناه كليا ، فهي ليست ملكه ، إنها ملك «أنا القذافي» أو «أنا ماو تسي تونغ» كما أبدت عند الصينيين في عهده السالف . .!

ووزن تقلص «أنا القذافي» في دواخلهم يبعث مخاوف عن خواء يستملكهم إن كفوا عن الإيمان به لفظا وفعلا فليس من السهل عليهم بعد أن تشربت تعاليمه في دمهم ، وتنفستها رئائهم أن يربضوا هامدين على خواء عميق يؤكد لهم عن موتهم الكلي متنازلين عن حقوقهم كبشر يملكون قلوبا وعقولا وضمائرا ، فهم لم يتعودوا على توظيفها وتوجيهها سوى لرجل واحد وتآلفوا مع الأمر على هذا النحو منذ دهر . .!

في ترديد واسع وشامل طوال تلكم اثنان وأربعون عاما نشيد وطني

مقدس يعززه تعاليم كتاب أكثر تقديسا ، تلك الجماعات وهي خليط من القبائل ، مترامين في صحراء لبيبا ، في خيامهم وفي أنفار من البيوت استحدثت من الطوب في عهد الألفية ، سقوف تحمل الوجوه نفسها والطراز العتيق نفسه في عهد يفكر فيه الغرب بتحويل مريخ كوكبا للعيش ولبيبا ما تزال صحراء مترامية بلا اعمار حقيقي وعجلة التطوير مبتورة نسيها صاحبها في حضرة تعاليمه وغفل عنها شعبها في ترديد أناه المتعالية ، التي تستنفر التقديس منهم في صباحها ومسائها . .!

وانقشعت الحقيقية الصينية عن الصينيين حينما مات زعيمهم «ماو» ليدركوا مدى المهزلة الوحشية التي قبعوا في مستنقعها ، حتى جعلت الكثيرين ممن تكالبت عليهم مشاعر من الخزي والمرارة والأسى بتركه خلفه دياره إلى وطن منفي ، وطن يطهرهم أكثر مما تنسيهم مآسيهم في عهد الظلام . .!

إن الخاصية المشتركة ما بين شعبي «ماو» و«القذافي» أن كلاهما فرضا الطاعة والولاء بطرق تمويهية ، غاياتها الكاشفة في نظر الشعبين هي في سبيل رقيهم ، ولكن غاياتها المتوارية الحقيقية هي في سبيل مصالحهم الشخصية المريضة بعاهة الأنا - وحده بلا شريك - لهذا اكتفى الشعبين طوال سنوات ببذل الولاء المقدس ، فأهدافه نبيلة كما يرون لهذا كان كل تمرد يصدر من جوقة ما ، الويل وحده كان يترصدهم وسجن «بوسليم» وغيرها من السجون المدفونة تحت جوف الأرض كفيل بتحويلهم إلى جثث ، ليس في ستر الليل بل في أصبوحة الظهيرة حيث الجميع على أتم إيقاظ ؛ كي يشهدوا مهزلة إعدامهم عن وجه الأرض . .!

وهو تنبيه في غاية الشفافية لأولئك المتفرجين المرعوبين في هيئة دم طازج على قطع لسانه إن جسر - لا سمح الله - على مده خارج فمه بالحدود التي وجبتها السلطة ، وإلا فهو إرهابي ، عميل خائن ، خارج من أنظومة التقديس السامية وملعون من صحوك الغفران . .! ولهذا عندما طالب الشعب الليبي بمطالبه ، كان بدهيا أن ينتصب القذافي في باب عزيزيته يلقي خطاباته التهديدية لسحق الشعب العاصي الخارج عن ملته ، فالمطالب بل المطلب الأساسي والفعلي الذي يجب أن يفرض ويبقى أبديا هو تقديم الولاء له ، لكل ما يخصه وحده ، شعب ليس من حقه سوى اكتفاء بعبادة حقوق وليّ نعمتهم . .!

ويبدو أن جيلا فتيا في ليبيا بذرة نسيها ملك ملوك إفريقيا في تربة مأهولة بالأشواك / حتى اطمئن أن أحراشه السامة كفيلة بوأد تلكم البذرة النقية ، التي انبثقت من دم شيخ المجاهدين «عمر المختار» من «بنغازي» مدينة الشهيد انطلقت صرخة الحرية الأولى ، واستبان الحق ، جيل من أحفاد عمر المختار تسلحوا بالإيمان ، قبل أن يتخذوا من حواسيبهم أسلحة ، لتعينهم على رسم خريطة النصر . .

هؤلاء الذين لم يتمكن «أنا القذافي» من تسميمهم بأفكاره ، لم يثقبهم بتعاليمه كما ثقب من قبل الأولين تحت نير الرعب الوحشي والظلم ، جيل وعى جيدا أن «الله» - جلّ وعلا - وحده الذي يستحق التقديس عن جدارة ، وعن حب ، وعن إيمان ، وعن تضحية ، لهذا ما تزال ليبيا تغسل أرضها المترامية بدمها الذي يطفح وما يزال يطفح فيضانا وما يزال «أنا القذافي» يلوح عليهم بشياطينه ، وهو من باع أناه للشيطان بعدما تيقن أن العالم بأسره كشف سر «أناه» التي تكرر

صداها بصوت متحشرج لا يخلو من كلفة التعالي المتعجرف . . ليؤكدها مرارا : «أنا أنا أنا ، أنا هنا . .!»

علا وعسى هذا التكرار لا ليعلم الشطار فهو استباحهم وقضم لحومهم الطاهرة نيئة بدمائها بلا وخزة ضمير ، بل ليستعيد تلكم الأرواح التي تمردت عن صفوفه التضليلية من وباء عبوديته ، واستطالت بحرياتها وكرامتها آماد السماء ، بينما يكتفي مهووسوه الغاوين مصفقين من ورائه : «الشعب يريد بقاء معمّر العقيد» لأن «أنا القذافي» أحكمت هواها على هواهم فحذفوا من قائمة نشوزهم ما هو مقدس أصلا لفظتي : «الله» و«ليبيا» بس . .!

دون أن يعقد الكون هذه المرة حاجبيه فلقد بددتها شمس الحقيقة . .

من «عادل إمام»
إلى «دريد لحام»..!

هي «ثورة» كانت طفلة وغدت مكتملة ، وفي اكتمالها قطعت عهدا على نفسها وهي تتأمل هتافات الآخرين من أجل إحيائها بالتضحية في سبيلها ، على أن تبذل هي الأخرى جل طاقاتها ؛ كي تقدم لهم قرابين حبهم وثقتهم ووفائهم وتضحيتهم مثلما تعاهدت قوانين الحب في الكون ، وعدت وفعلت ، وجرفت من جرفت ، واقتلعت من اقتلعت من رؤوس الفساد والفتنة ، ورميت من رميت في شرور أعمالهم ومازالت تواصل دربها للخلاص ، وأنفار آخرون لهم حكايتهم مع «الثورة» حينما كانت طفلة لم يربتوا على كتفها بحب ، لم تثر اهتمامهم والبعض شكك في قدرتها على جرف ما تراكم من قرون ، والبعض حقن فيها سموم اتهاماته واتخذها سخرية يتندر عليها وعلى من كان سببا في وجودها ، ولكن حينما استطالت أفعالها الآمال ، غسلوا وجوههم وأزالوا أقنعتهم والبسوها أقنعة أخرى تلائم الوضع الجاري ، كما حدث مع أصحاب الشهرة والملايين والفنانين ، الذين كانوا ما بين كر وفر وخسر من خسر وربح من ربح . .!

على رأس قائمة الفنانين الذين قال وقيل عنهم الكثير الفنان «عادل إمام» الذي يجر خلفه أضواء الشهرة حيثما مشى على السجادات حمراء يفرشها له محبيه من العالم العربي والعالمي . .

«عادل إمام» تستعيد الذاكرة العربية أفلامه في فترة السبعينات وهي وامضة في ذاكرة العرب حتى هذه اللحظة ، ذاك الشاب النحيل الذي أضحك الملايين بنقاء قلب ، الشاب المعدم الذي كان مع الغلابة وقضاياهم حبا بحب ، المواطن الصالح في فيلمه «إرهاب وكباب» الذي احتل المبنى الحكومي مع بعض رهائن وظل يضخ فيهم الأمنيات طوال فترة الرهن لعرض مطالبهم على الحكومة ، وفي النهاية لم يطلبوا سوى الكباب ، فقد كان حلم أولئك - المعدومين - تناوله ولو لمرة واحدة في حياتهم على الأقل . .! ومثله مثل أفلامه الأخرى ذات النزعة السياسية الاجتماعية كما في «الإرهابي» و«طيور الظلام» وغيرها وكلها كانت تناصر المصري المظلوم الواقع بين أنياب المتوحشين في مجتمع يستبد فيه أسياده . .

لكن ماذا عن «عادل الإمام» خارج شاشة السينما والتلفزيون وخشبة المسرح . .؟! حين كانت الثورة في مناهضتها الأولى صرّح «عادل إمام» واصفا الشباب في ميدان التحرير أنهم مجرد غوغائيين والمظاهرات بأنها «قلة أدب» وقد بعث بعقولهم وعليهم العودة إلى بيوتهم ، فسياسية الحاكم المتنحي «حسني مبارك» كانت جيدة ولا تشكو من أي نقصان . .! وحينما هجم محبّوه من الملايين في صفحات الفيس بوك قائلين له بصوت متفق : «عيب يا زعيم» عاد «عادل إمام» قافزا من شاشة إلى شاشة ؛ كي يمسح كل لفظة جاحدة من فمه في حق الثورة ، ليسجل عوضا عنها عبارات تصفق في صالح الشعب ، مضيفا أن من حق الحكومة الاستماع للشباب ومطالبهم في الحرية والكرامة والعدل والديمقراطية ، ليؤولها إلى قوله المصرح أخيرا : «أنا معكم وفي صفكم» بعدما رأى بأمّ عينيه «سقوط التمثال» الذي اتكأ عليه . .!

إلى «دريد لحام» الفنان السوري الذي جسّد شخصية «غوار الطوشة» التي ألصقت بجلده رغم حشد الشخصيات التي مثلها هذا الفنان «غوار الطوشة» الشخصية التي رمزت إلى الشخص السوري العادي الذي كان يكافح من أجل لقمة عيشه ويتحدث عما يصادفه من مشاكل في حياته كلها هذه الشخصية التي من تأثيرها في مجال التمثيليات اعتلت منصة المسرح ، وعرف عنه في الماضي بأنه يكتب ويخرج ويمثل أفلامه وينقد ما هو خطأ في المجتمع العربي ، ويبصر المشاهد بمآسي الإنسان البسيط ، حيث كان غوار يجمع في سياق حديثه المصائب الشخصية للمواطن والمآسي التي تواكبت على الإنسان العربي في كل بقعة من أرجاء المعمورة بل من ينسى الفنان في مسرحيته «كأسك يا وطن» التي كانت دعوة لإيقاظ المواطن العربي من سباته العميق . . وتنتصب أيضا هنا «لكن» الاستدراكية وهي هنا تحتمل معان عدة ضمنية إضافة إلى معناها الحقيقي هي هنا «تستنكر» و«تندهش» و«تثور» و«تحتار» وأشياء أخرى كثيرة . .!

في قصيدة «ترميم قضية أو مجد الصغائر» يقول مؤلف مسرحية «كأسك يا وطن» الشاعر «محمد الماغوط» : «تصرخ أدوات تعبيري في وجه القدر والطغيان / كما لم يصرخ ثائر من قبل . .» وكلنا يعرف جيدا أن «ماغوطا» كان جسدا من قول معجون بفعل وكان سيسقطها ثائرا صارخا في وجه الطغيان حتما إن كان قلبه ما يزال ينبض كما كلماته تنبض . .

وندرك كما سيدرك الآخرون أن «دريد لحام» ما هو سوى ممثل وكم فاتنا ذلك وأن صرخاته الثائرة طوال تلك الأعوام على أنظمة القمع والطغيان ، لم تكن سوى سطور حفظها من سيناريوهات التمثيل ،

خطها غيره بدم كرامته وحريته ورغباته المتأججة في نيل المستحيل للمعدمين في كل مكان ما كانت سوى أصوات كاتبيها ، وما كانوا هم سوى ممثلين . . ولهذا هل على معجبي ومحبيّ الفنانين «عادل إمام» و«دريد لحام» وما يماثلهما أولئك الممثلين على إلقاء اللوم عليهم أو حتى محاسبتهم . .؟!

الحقيقة تقول : إنهم «ممثلون» يا سادة ، يا أيها المعدمين ، يا من تركتم أحلامكم الفقيرة على أبوابهم ، يا من منيتم أنفسكم المهزومة على نيل ربق انتصاراتها منهم . . إنهم «ممثلون» يقومون بأعمال يأخذون عليها أجرا ماليا وقدره . . وتلك المبالغ هي نفسها حولتهم من شابين لا يملكان قرشا إلى أصحاب الملايين ، ألبستهم الكرافتة والبذلة الأنيقة ووجه منفوخ الخدين مع كرش متدل ، ومنزل فخم مفروش بالسجاد الفاخر وسيارات فارهة ، خدم وحشم وأحلام لا تصاغر أبدا أحلام الفقراء ، التي نسوها تماما إلا في أدوار مكتوبة النص بقلم كاتب حالم عن المعدمين . .!

وكأن أوضاعنا العربية في هذا العام بالتحديد ليست قضية ما «قبل» و«بعد» وحدها بقدر ما هي قضية مأزومة ما بين «لكن» و«لكن» . .! لكن الناس - محبيهم - لم يقنعوا بفكرة أنهم «مجرد ممثلين» خصوصا في وزن فنانين كـ«عادل إمام» و«دريد لحام» ، فهذين الممثلين أضحكوهم ، أبكوهم ، جسوا معاناتهم بعمق ، ربتوا على أكتافهم بمحبة ، صرحت أدوارهم عن المكشوف في عوالم الفساد والطغاة ، حرضوا العقول على بعث الوعي وإيقاظ الضمائر وهتافات المنادية بالكرامة والحريات والقيم النبيلة والقومية والوطنية حتى غدا كليهما رمزين لامعين من رموز الوطن والمواطن العربي في كل قلب

وعقل ، وهو السبب العميق والكبير الذي جعل وجود اسميهما على أفيش أي فيلم هو صك الضمان لجماهيرية الفيلم ونجاحه ، وهو السبب عينه الذي راكبهما في مكانة عالية من النجومية بقيت حتى آخر رمق دون أن يأفل قمرها ولو للحظة رغم جمهرة الممثلين آخرين في مضمار التمثيل . .

وهنا تحتشد الأسئلة القلقة الحائرة : فهل مهنة التمثيل هي «حمالة أدوار» فقط . .؟ لأنهم يخاطبون أكثر العقول بساطة فهي تؤمن بهم وتصدق كل ما يعرضونه على أنه واقعهم هم ، على أنهم داخل وخارج الشاشات يناصرون القضايا نفسها ولكن أليس «الفن» رسالة «كالكتابة وكالفن التشكيلي بأنواعها المختلفة . .؟!» لماذا يحاسب الكاتب على كل كلمة وعبارة يسجلها . . أليست القصص والروايات حكايات على ورق من الخيال . .؟! وتلكم الرسوم التي تستصرخ ألوانها على شراسة الواقع الموجع ، هل هي مجرد فنون للتعبير ليست من الضرورة أن تمثل مبادئ راسميها . .؟!

ليس من حقنا أن نلومهما أو حتى نلوم غيرهم ، وهذا المقال خارج مبدأ التأنيب أساسا ، لكن ونعود للفظة «لكن» على هذين الرمزين الكبيرين إقناع الناس «الدراويش» أن كل ما كانوا يفعلونه طوال سنوات تمثليهم ، كان ضمن التمثيل لا أقل ولا أكثر ؛ كي لا يرجمهم جمهورهم بعد الآن بقول : «ما يصحش كده يا زعيم» و قول : «يا عيب الشوم يا غوار الطوشة» . .! عليهم أن يقنعوا العالم الذي صفق لهم من قلوبهم المحبة ، أن ما كانوا يمارسونه مجرد دور سلطت عليه كاميرا شاشاتهم الصغيرة ، لا تمت إلى شخصياتهم الواقعية بصلة في شاشة العالم الواقعي . .! فليعلنوا أنهم أحرار كبشر ، في تعاطي مواقفهم ، من

السلطة ومن الشعب ومن كل شيء ، ولكن أيضا عليهم بألا يطالبوا أولئك الشعوب بتصديقهم بعد الآن مطلقا ، وأنهم مجرد «أراجيز» خيوطها بيد السيناريو في النص ، وبيد المصالح في خارج النص . .!

أولئك البسطاء ، كم صدقوهم حد السذاجة دون أن يدوّرا طاحونة الرحى في عقولهم ولو لمرة واحدة أن ما كانوا يذرفونه تلكم الرموز من دموع كان مجرد دموع «مسلسلات» . .!

القبائل الكوكبية..

غدت الحركات الإسلامية هي القبضة التي استلمت زمام العالم العربي اليوم ؛ ففي كل من تونس ومصر وليبيا وغيرها نجس قوى إسلامية بدأت بالظهور العلني بعدما كانت متزحزحة في زمن مضى في أقبية أوطانها . .

ولابد أن ثمة أسباب وتداعيات أدت إلى تشكيل وتسيّد هذه الحركات الدينية وقد تناول الأديب «أمين معلوف» في كتابه «هويات قاتلة» بعض تداعيات هذا الصعود الإسلامي . . ففي الفصل الثالث من الكتاب تحت مسمى «زمن القبائل الكوكبية» وهو مسمى ألبسه المعلوف هذه الحركات الدينية ؛ لأنها حسبما تفسيره هي في الواقع كقبائل كوكبية . .

أما تسميتها قبائل بسبب مجموع هويتها أما عن لفظة كوكبية ؛ لأنها تجتاز الحدود بسهولة . . فالانتماء إلى عقيدة تتسامى بالانتماءات القومية والعرقية والاجتماعية ويبدو في نظر بعضهم كأنه طريقتهم الخاصة ليظهروا عالميين . .

وبجس نبض العصر سوف نرى أن «الانتماء الديني» غدا هو العنصر الأساسي للهوية . . وقد أضحى كل إنسان اليوم يشعر بأنه مدفوع كي يؤكد هويته الدينية بطريقة أو بأخرى . .!

ومبعث هذا الشعور كما يرجّح «أمين معلوف» هو تراجع العالم

الشيوعي الذي انهار ، فلعب دورا حاسما في هذا التطور ويفسره بشكل أوضح بقوله : «فالماركسية تعد منذ أكثر من قرن بأن تؤسس على مجمل الكوكب مجتمعا من نمط جديد تستعبد منه فكرة الله وكان فشل هذا المشروع على مستويات المعنوية والفكرية أن أعاد تأهيل المعتقدات التي أراد رميها في سلال المهملات التاريخ وأن الدين كملجأ روحي وملاذ للهوية» . . . .

وليست الماركسية وحدها خسرت من سحرها كما يرى معلوف بل حتى «القومية العربية» التي صادرتها بعض الأنظمة التسلطية العاجزة والفاسدة مصداقيتها . .!

أما عن «النموذج الغربي» فهذا بدوره أيضا صورته الانبهارية تزحزح في مفهوم الشباب اليوم فالذين يغريهم «الفردوس الغربي» ليس من أمامهم من وسيلة سوى الهجرة ، إلا إذا كانوا ينتمون إلى إحدى طبقات الامتيازات التي تحاكي كيفما اتفق بعض مظاهر هذا النموذج . . ولكن البقية أولئك الذين يرغبون بقلب النظام القائم وكل الذين يجدون مشقة في إيجاد مكانهم في عالم يتغير بسرعة يغريهم المد الإسلامي . .

ثم يلقي المعلوف تفسيره بشكل أعمق على «روح العصر» في بعث التداعيات الهوية الدينية فإذا كان من الممكن تفسير التنامي الديني جزء من الفشل الشيوعية وجزء من المأزق الذي وصلت إليه معظم مجتمعات العالم الثالث وجزء منه بالأزمة التي تصيب النموذج الغربي لا يمكن فهم اتساع الظاهرة وشدتها دون العودة كما يرى معلوف إلى التطور الأخير المذهل في مجال الاتصالات ومجمل ما اتفق على تسميته بالعولمة ، فهذه العولمة تسببت كرد فعل تعزيزا للحاجة إلى

الهوية ، كما أن القلق الوجودي الذي يرافق التغييرات المفاجئة جعل الجوانب الروحانية متعاظمة عند الأفراد ؛ لهذا كان الانتماء الديني هو الوحيد الذي يعزز الخواء المفاجئ الذي هبط مع العولمة المتسارعة وهو ما يعزز قيم الهوية . .

و الصعود الديني أكثر من مجرد رد فعل على التغيير في العالم ، وربما التأليف بين الحاجة إلى الهوية ومطلب العالمية ، إن جماعات المؤمنين تبدو في الواقع كقبائل كوكبية . . لأنها تسمو إلى العالمية ، هكذا يصبح الانتماء إلى جماعة من المؤمنين نوعا ما الخصوصية الأكثر شمولية والأكثر عالمية ، أو ربما يجب القول إنها عالمية الأكثر واقعية والأكثر «طبيعية» والأكثر تجذرا . .

وربما هذا أعمق تفسير لموقف الشباب اليوم من النموذج الغربي حين يؤخذ بكافة مجالاته وتطوره وينساق معه ولكن دون أن يخسر أو يؤثر ذلك على هويته و انتمائه الديني المتجذر في روحه . .

وكما هو شائع أن هذه التيارات الدينية وجدت بيئتها الخصبة في «الجامع» وانطلقت منها وفي مقابلة مطولة من صحيفة «الغارديان» البريطانية مع الشاعر السوري «أدونيس» كان قد تشاءم من الثورة السورية كون انطلاقتها كانت من الـ«الجامع» وهو انطلاق يؤكد اختلاط الدين بالسياسة في بلاد ومجتمعات العرب . .

انطلاق هذه الحركات والتيارات الإسلامية من «الجامع» من أماكن العبادة أمر طبيعي في معظم المجتمعات التي تمارس سياسات وحشية وقمعية كما رأى «أمين معروف» في «هويات قاتلة» فلا تجد مكانها سوى «الجامع» كي تستجمع من دفئه الديني أمان وروح الانطلاق . .

وفي مقالة للدكتور «خالد حروب» في إحدى الصحف العربية

تناول فيها آراء «أدونيس» في مقابلته تلك ووقف عند عبارته «الفصل الكامل بين ما هو ديني وما هو سياسي» . فعلّق بقوله :

«لا يمكن تحييد الدين تدريجيّاً عن السياسة بقرار فوقي ، بل عبر التجربة ، والتاريخ ، والممارسة ، وتطوير وعي عريض يتنامى مع الزمن . ومثل هذه العملية التدريجية يوفر أمرين ، الأول هو انتشار وتعمق قناعة عند الرأي العام مبنية على التجربة تفيد بأن خلط الدين بالسياسة لا يؤدي إلا إلى تشويه الدين وتعطيل السياسة . والثاني يتمثل في اقتناع الناس بأن تحييد الدين عن السياسة لا يعني معاداة الدين والممارسات الدينية الفردية والجماعية التي لا يمكن استئصالها من المجتمعات . وهذه قناعات لا تحدث في وقت قصير ، كما لا تتم بالتنظير الاستعلائي ولا التمنيات . وأفضل آليات ترسخها تتطور عندما تخرج عبر انتفاضات الإصلاح الديني الذي يصبح أمراً لا مناص منه كما حدث في التاريخ الأوروبي . وجوهر الإصلاح الديني يتمثل في محاولة طمأنة الأفراد على دينهم من غول السياسة ، والحفاظ على السياسة من تغول الدين . فالسياسة والدين متعارضان بالتعريف ، ذلك أن الأولى قائمة على «المتحول» في ما الدين يقوم على «الثابت» ، وهذا التعارض تتفاقم أوجهه في الحياة الحديثة وتعقيداتها . فالثورات اللوثرية والكالفنية التي أعادت تشكيل المسيحية وعملت على تحييدها عن السياسة خرجت من رحم الدين نفسه عندما واجه تعقيد الحياة والسياسة . ومستقبل الدين والسياسة في البلدان والثقافة العربية والإسلامية الذي انفتح بعد الثورات العربية على مصاريعه سيتجه نحو مسارات شبيهة ، لأن معضلات الحياة والسياسة تتشابه إن لم تتطابق شرقاً وغرباً . .

ركب الفوضى حصان الحرية..!

شاهدت فيلما يدعى «المغول» وقد سلط الضوء على سيرة المغولي الأشهر «جنكيز خان» مذ كان طفلا إلى أن أصبح قائد قبائل المغولية وموحدها الأعظم . . «جنكيز خان» الذي حالف نصف سكان العالم تحت إمرته قبل القيام بمهمة ضم قبائل المغول تحت سلطة ومملكة واحدة استاء من تغيير سلوك المغول وتجاوزاتهم لعديد من القوانين منها قتلهم للنساء والأطفال ؛ فذهب إلى جبل يسكنه إله لهم ليتعبد فيها رابضا داعيا بقلب وجل أن يمنحه الإله القوة ليسن قوانين يحفظ بها تاريخ المغول عبر امتداد الزمن ، فـ« جنكيز خان» كان يؤمن أن «القوانين» وحدها هي من توّحد الشعوب وتحفظ لها تاريخها . .

قيادة الشعوب ليست بمهمة سهلة وليست مطمع لجمع الثروات أو للتزعم على الشعوب والتنكيل بهم كما ألفنا في عوالمنا العربية بل هي بلورة القوانين والقواعد التي تدفع عجلة التطور وتحفظ للأفراد كرامتهم وتوسّع الحريات المسؤولة وتضيّق الفوضى التي ينجم عنها الخراب كما ذهب المفكر الإنجليزي «جون لوك» : «غاية القانون ليس منع أو تقييد الحرية ، بل حفظها وتوسيعها» وذلك في ظل رجل حكيم هدفه الأسمى هو خدمة الوطن والشعب ولنا في الأثينيون القدوة الحكيمة مع «سيدون» الذي أجبروه أن يضع لهم قوانين فاشترط ألا يقوموا بتغييرها لمدة ١٠ سنوات . . ووضعها ثم خرج لرحلات في مصر وغيرها

لكي يفرض عليهم الالتزام بالقوانين ولا يجدون وسيلة لتغييرها في غيابه ، وبذلك عكف الناس على تقبل هذه القوانين والالتزام بها وهي التي جعلت اليونان منارة ونموذجا يحتذى به . .

ما يحدث في عالمنا العربي هو مرحلة مخاض طالت حتى يخال للمرء أن الولادة الجديدة التي يترقبها الجمع لن تأتي ، وما ذلك سوى تفلّت الالتزام بالقوانين وذلك من قبل بعض الأفراد وقطاعاته في المجتمع . . إما لأنها قوانين تعسفية تقوم بعض الجهات فرضها بما يضيّق من نطاق الحريات الفردية وخصوصيتها في التعاطي مع الحياة ولهذا تكون مثل هذه القوانين خارج منظومة الالتزام غالبا ، أو إما لأنها قوانين تفرض على جماعة ويترك الحبل على الغارب لجماعة أخرى مما ينجم تظلمات وترتفع نسبة الحساسيات العنصرية بين الأفراد في المجتمع الواحد . .

هذه الفوضى تعيث حاليا وتزعزع كيان الشعوب والأوطان في الأرض الواحدة واختلطت الأصوات النبيلة والهمجية مشجبين مطالبهم على الكرامة والإنسانية والعدالة وكل ركب حصان الحرية دون أن يعي وجهته وتاه صوت الكرامة الحقيقية والعدالة الحقيقية والإنسانية الحقيقية ، فهناك من ركب على أكتاف جهودها ونبل مطالبها . .

الفوضى وعدم سن قوانين جيدة تشمل الجميع بلا محسوبية ولا شللية ولا قبلية ولا حزبية ولا مذهبية ولا تلكم العنصريات المغرضة ولا تلك التي تتعدى الخصوصية الإنسانية وتدفنه في زجاجة ضائق فيها كل شيء حتى الأكسجين . . حينها فقط ستكون أوطان عوالمنا العربية بخير وسلام أبدي وحينها سوف يعرف جيدا حصان الحرية وجهته . .!

مشاعل الربيع العربي

وها هو عالم الثورات والمظاهرات والاعتصامات وسقوط تماثيل وبروز تماثيل أخرى ، عام الهتافات ومطالبات وإرادة الشعوب على وشك الأفول وولوج عام جديد أشبه ما ينذر بداياته بمخاض من نوع ما على أصعدة عدة حسبما طبيعة تلك الشعوب وجماهيرها . .

عام يرحل ولكنه يستدعي نتيجة لهياجاته الهائلة في خارطة الوطن العربي الوقوف لتشكيل بعض من الرؤى وإعادة تدوير بعض الأحلام المتطلعة بما يتعلق بالشأن السياسي والاقتصادي والديني والاجتماعي والثقافي . .

عام حصدت فيه بعض الأصوات الفاعلة والناشطة على جوائز رفيعة المستوى كجائزة نوبل للسلام ، وهو السلام عينه الذي ينشده الجميع بعد المراحل المريرة من الشجب والرفض والخنوع والخضوع والرعب البشري ، ولم تكن آخرها جائزة نوبل ، فها هي مجلة «تايم» قامت بتكريم الربيع العربي من خلال اختيار «المحتج السلمي» شخصية عام ٢٠١١م لدوره الرئيس في الإطاحة بالأنظمة الفاسدة في تونس ومصر واليمن إضافة إلى المتظاهرين السلميين في الحركات الاحتجاجية الأخرى التي تشهدها بقية البلدان العربية ، وعلقت المجلة في تأكيدها أنها اختارت المحتج : «لأنه جسّد شعورا عالميا يحمل الأمل

بالتغيير وأطاح بحكومات وبأفكار معلبة» . .

ولعل هذا القول يشجعنا على ترجيع الأحداث التي وقفت خلفها تلكم الشخصيات المؤثرة إلى الوراء ، لنبدأ بـ«تونس» وثورة الياسمين التي فجرها مواطن عادي يجر أمنياته المقموعة في عربة فقيرة وعندما تمت مصادرتها انكسرت تلك الأحلام وأشعلت الفتيل في نفسها علها تشفي قهرا من نوع ما ، ورحل «محمد البوعزيزي» ولكن الشعب التونسي توّهج بنوره ليأذن بولادة حقبة جديدة في الشارع التونسي والمنطقة العربية بأكملها . .

ومن حريق إلى تكتكة كيبورد بأصابع خبير تسويق مصري لمواقع إلكترونية عربية ومدير للتسويق في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا لمنتجات غوغل «وائل غنيم» الذي انشأ صفحة «كلنا خالد سعيد» على «الفيس بوك» ومن خلال تلك الصفحة انطلقت الصرخة المصرية الأولى «يوم الغضب» في ٢٠ من يناير . . وتتابعت من بعدها حركات احتجاجية في الشارع المصري كان خلفها أسماء عديدة من ضمنها «أحمد ماهر» أحد مؤسسي حركة «٦ إبريل» وهذا الشباب استوقف عدة مرات في السجون المصرية نظير نشاطاته السياسية قبل الثورة المصرية ، نال لقب «تشي غيفارا المصري» من صحيفة «هارفارد كريمسون» الأميركية . . بينما الشابة «إسراء عبدالفتاح» فكانت مفجرة إضراب «٦ أبريل» ٢٠٠٨م ضد الغلاء والفساد وجاء اسمها ضمن قائمة ١٢ شابة أسهمن في تغيير العالم عام ٢٠١١م وذلك بعد جهودها في التغيير الحادث في مصر والذي انتهى بثورة ٢٥ يناير . .

إلى اليمن السعيد الذي استحال إلى يمن تعيس في عهد نظام بائد استولى كالإخطبوط على شريان الدولة ، لكن الشعب اليمني

أدرك إنهم سائرين إلى الحضيض وأن لابد من مقاومة ذاك التمدد السافر والظالم والمستبد وهنا برق نجم الناشطة «توكل كرمان» امرأة شقت لنفسها طريقا واضحا ومتوثبا في الشارع اليمني ، وهي مهمة شاقة في ظل مكانة المرأة الهامشية والمتغيبة في مجتمع اليمني ، ومن تلك التداعيات استحقت «توكل كرمان» جائزة نوبل للسلام كما صنفتها مجلة «تايم» ضمن أقوى ٥٠٠ شخصية على مستوى العالم وضمن ٧ نساء أحدثن تغييرا في العالم من قبل منظمة «مراسلون بلا حدود» . .

وسوريا كان الوضع مختلفا ، في سوريا التي ما تزال تحيض دماء نصفها دماء أطفال أولئك الذين خربشوا ببراءة على الجدران عبارة «الشعب يريد إسقاط النظام» وكتبوها بدافع محاكاة أطفال تونس ومصر وليبيا ؛ لتكون هذه العبارة التي دونوها عن حماس مفرط وشقاوة عفوية هي القبس التي استطالت السماء السورية وأرضها إيذانا لثورة مدت شرعيتها في أصقاع البلاد ، ويطور الأمر بمرارة فظيعة في قتل وتعذيب واحتجاز الأطفال وعلى رأسهم الطفل «حمزة الخطيب» ابن الثالثة عشر على يد قوات الأمن السورية أعظم دليل على فظاعة ووحشية التعذيب لهذا النظام . .! وتتصاعد بعد ذلك الأحداث ليدشن موقف الممثلة والناشطة السورية «فدوى سليمان» في رفضها السكوت والبقاء في المنزل بينما ثمة دماء حارة تسيل بضمير بارد من قبل شبيحة النظام ، فالانتماء للوطن وليس لأي شيء آخر كما تؤمن فدوى والتي ما تزال تواصل جهودها الكبيرة لدعم الثورة والثوار الأحرار ، ويطل اسم آخر من ضمن الناشطين والذي كان شاهد عيان باسم مستعار «عبدالله أبا زيد» الذي امتنع الكشف عن اسمه حتى

غادر سوريا إلى تركيا ليستمر في نشاطه لدعم الثورة باسمه الحقيقي بعد أن ترك أرض الخوف والقمع «عمر عللوه» والذي امتهن تصوير المظاهرات واقتحام برادات الجثث في مستشفيات درعا لإظهار فضائح النظام السوري الأكثر عنفا ؛ بشهادة المحلل السياسي الإيراني «نادر هاشمي» : «كشف النظام السوري عن الحضيض الأخلاقي الذي يمكن أن يصل إليه كل نظام سلطوي لمجرد أن يتشبث بدفة الحكم في بلاده ، مذ المذبحة التي جرت في ميدان السلام السماوي في بكين لم ير العالم عنفا قامت به دولة ضد متظاهرين عزّل ديمقراطي التوجه كالذي حدث في سوريا» . .

ولا تنس ليبيا الثوار الذين قدموا الغالي والنفيس من دمائهم لإرساء العلم الليبي الثوري هذه الثورة سقط فيه العقيد القذافي ميتا . .

وها هو عام الثورات أسدل ستاره على عام كان مكثفا ، مندفعا ، ناريا ، شبابيا بامتياز ساحق . . عام تبدل فيه التاريخ في غضون بضعة شهور ، عام ولدّ أسماء جديدة في عوالم وآفاق السياسة والتاريخ ، ولأن تلكم الثورات كانت مستحدثة الكترونية قادها شباب مضمخين بحب الوطن وبحق المواطنة الأصيلة في الحرية والكرامة والعدل على كافة الأصعدة ؛ لهذا فمن العدل ومن الحق هو أن لا تتلاشى أسماء دفنوا شهداء في سبيل الوطن ولا أسماء من سجنوا وحوصروا وفكروا ونهجوا وساروا حشودا منذ البدء خلف ثورات شعوبهم ، أما الشهداء فلابد من تكريم ذكراهم سنويا ، وإطلاق أسمائهم على أهم المرافق في الوطن ، لتستعيدها ذاكرة الأجيال وتتوارثها جيلا بعد جيل وتعويض أسرهم ومتابعة شؤونهم ، أما عن شباب الثورة البارزين فليس من العدل أن يبذل الشباب طاقاتهم الفكرية ويطلقوا بجسارة هائلة خطوات

عميقة وواضحة نحو التغيير والذي نجم عن هروب بن علي في تونس ، ومحاكمة محمد حسني مبارك في مصر ، وموت معمر القذافي في ليبيا ، وتوقيع علي عبدالله صالح على مبادرة التزحزح عن السلطة ، ناهيك عن المخاضات التي تفرزها الثورة السورية . .

كل تلك الجهود الجبارة التي ما استطاع المثقفون أو السياسيون المحنكون التصدي لها طوال سنوات بقائهم ، بينما شباب في عمر الزهور استطاعوا بإيمانهم ويقينهم على دفع تاريخ عتيد على التغيير في فترة زمنية مدهشة ، لهذا فإن أقل ما يقدم لهم هو تعيين بعضهم في وظائف تليق بهم وبجهودهم البناءة لخدمة الوطن والوطنية ، فمن الظلم أن يتعب هؤلاء ثم تأت قافلة من العواجيز لتلتهم الثورة وغنائمها وما أكثر متسلقي أكتاف شباب ثورات الربيع العربي للأسف . .!

فطوال تلكم القرون كانت الروح التي تسري في بقاعنا العربي عتيقة ، لهذا ظلت السياسات كما هي وتكاد تتشابه في كل الدول التي سقطت أنظمتها والمطالب التي هتف بها شعوبهم واحدة متوحدة وكان لا بد من تغيير السياسات والعقول ولابد من ضخ دماء شبابية في عصب سياسات الدولة ولابد من شحنهم بالثقة من قبل السياسيين القدماء والشعب ، فالحكم الجيد الدافع للأوطان نحو الانجازات ليس بالعمر وحده دون شك ولكن أيضا بمنهجية الفكر والتخطيط وعالم اليوم ليس كعالم الأمس . .

وعلى ختام هذا العام فإن أقصى ما يتمناه المرء هو أن تمضي الثورات نحو تحقيق أهداف التي نهضت وأججت من أجلها ، في ختام هذا الربيع العربي أهم ما تتوق له الإنسانية هو إرساء مبادئ السلام ومُثل المحبة والثقة والعدالة والكرامة بين أبناء الشعب الواحد وبتر كل

قوة بغيضة تعمل على زرع ألغام الطائفية والتفرقة والعنصرية فيما بينهم، وتظل الحرية ومفاهيمها بيد الشعوب وحدها وهذا درس استوعبته كل الأنظمة السالفة وسوف تستوعبه بدورها جيدا كل الأنظمة اللاحقة، على هذه الشعوب من خليجها إلى محيطها الحذر ثم الحذر ثم الحذر من مغبة السموم التي تبثها بعض رؤوس الفتنة والفساد كي تحيا في عالم نابض بالحياة ودافق بروح مستقبل جيد . .

الطريق إلى الدولة الحديثة
معبّد باللون الأحمر..!

في الأعوام الأخيرة أصبح الحديث عن الدولة الحديثة وأسس قيامها وشروطها حديث العالم والكتب في حد سواء . . فما هي الدولة الحديثة بشروط ونظرة العالم اليوم . .؟

في كتاب «النظرية العامة للدولة الحديثة» يفصِّل المؤلف «محمد رعدون» الحديث عن الدولة ومفهومها مذ بداية ظهورها كمفهوم حتى وقتنا الحاضر ، فمفهوم الدولة في الأساطير القديمة كان عبارة عن «دولة» تحكمها الآلهة ، إله السماء «إنو» يصدر الأوامر وإله العاصفة «إنليل» ينفذ الأحكام الإلهية بالبشر . .

أما فكرة نمو الدولة فهي ثمرة من ثمرات الإصلاح الديني في أوروبا القرن السادس عشر وقد قادها «مارتن لوثر» الألماني و«جان كالفن» السويسري ولم يلبث أن تطور هذا الإصلاح الديني إلى ثورة ضد تكبيل العقل بقيود فرضتها الكنيسة وقتذاك ونتيجة لهذا الضغط الوعظي تطورت حركة التنوير إلى ثورة سياسية ضد استبداد الكنيسة بالسلطة ومن هنا برزت ما يسمى بـ«العلمانية» والتي نادت بفصل الدين عن الدولة مما أنشأ صراع وتصادم ما بين سلطة الكنيسة والدولة حتى تدخلت الثورة الفرنسية بالعنف الثوري لتحسم الصراع لصالح العلمانية . .

وحين برز مفهوم الدولة اختلط على بعض الزعماء عبر التاريخ مفهوم الدولة وحدودها ، حيث ذهب البعض إلى اعتبار أن الدولة هي من حقه واحتكرها ضمن ممتلكاته الشخصية وليس بعيدا عن ذلك الملك لويس الرابع عشر الذي كان يقول : أنا الدولة . .! بينما لويس الخامس عشر كان يردد : أنا القانون . .! أي أن النظام العام كله ينبع منه وكل حقوق ومصالح الأمة متحدة مع حقوقه ومصالحه . .! أما ملك اليابان «الميكادو» فاعتبر نفسه إله الشمس الذي يحكم الكون كله . .!

ومع انبثاق مفهوم الديمقراطية تخلخلت المفاهيم المقدسة التي كان الزعماء والحكام يتفاخرون بها وتحطمت الأوهام الإلهية التي خدعوا عقول شعوبهم بها . .!

من هنا برزت مفاهيم أخرى لمفهوم الدولة تتماشى والعصر الديمقراطي ، فمفهوم الدولة عند «ريمون بولان» هي حضارة تفصح عن نفسها في مؤسسات ينظمها القانون . . أما عند «جورج بوردو» هي صاحبة السلطة الدائمة التي يتعاقب الحكام بصورة عرضية في ممارستها . . وعرفها «لاسكي» بأنها المجتمع الذي يعيش فيه مجموعة من البشر سويا ويعملون معا من أجل مصالحهم المشتركة . .

أما «ماركس» وتلاميذه فقد رأوا أن تحديد الدولة وتشكيلها ينجم عن تقسيم مادي وحتمية تاريخية تكون فيها المؤسسات السياسية انعكاسا لتقنيات الإنتاج وأساليبه إضافة إلى البنية الفوقية التي تضم الأخلاق والدين والقانون والفنون وهلم جرا . .

ويذهب المؤلف في شروحاته حيث يرى أن الدولة كانت مرتبطة بمفهوم الإقليم ، حيث دأب الحكام عبر التاريخ على تجميع الملكية الإقليمية وضمان توحيدها الداخلي من أجل ضمان توفر هذا

الشـرط . . فـفي بداية تشكل الدول كـان المقـصـود بمصطلح «تأهيل الإقليـم» أشـغـال الري وبناء الـسـدود وشق الـطرق وغـيرها من الأشـغـال التي كان المجتمع يعنى بها في طريقه نحو التحديث والمدنية والتطور . .

ومن ثـم ألقى الـضـوء على الـشـروط الـبـدهيـة لـتـشكيل دولـة وهو «الشعب» والشعوب هم مجموعة من الأفراد الذين ينتمون إلى الدولة بعـلاقة قانونية عـرفهـا القانون الدولي بمـسمى «الجنسية» مع العلم أن القـانون العـالمي لحقوق الإنسان الذي أعلن في باريس عام ١٩٤٨م أكد ونص أن لـكل إنسـان الحق بأن يتـمـتع بجنسـيـتـه وأنه لا يجـوز نزع الجنسية من أي إنسان . .!

ولو ألـقـينا نظرة شـاملة على دول الخليج والوطن العـربي لأدركنا أنهم يخـالفون هذا القـانون النصي وأن ثمـة دول بعينـهـا قامت بـسحب جنسيات مواطنيها من غير أي حق شرعي على رأسها «البحرين» من وقت قـريب جـدا . .! وهـذا يثب بمدى الظلم الـذي يعـيش في كنفـه الإنسـان العـربي وكـأنه في غابة بلا حـقوق ولا قوانين تصون إنسـانيته وكـرامـتـه في وطن اعـتـبـره الـبعض مـزرعـة وآخـرون ملكيـة خاصـة قـابلة للاحتكار لثرواتهم وسيطرتهم واستبدادهم . .!

يعـرج المؤلـف بعـد ذلك على توضـيح الفـرق ما بين الـدولة بوصـفـهـا كيانا سياسيا والأمة بوصـفها كيانا قوميا . . أما السلطة هي أهم مكون من مكونات الـدولة وهـي التـي تحول الـشـعـب إلى دولـة باعـتـبـار أنهـا تملك وسـائل إكـراه الـلازمـة لتـنفـيـذ أوامـرها وهـي تـستـند في ذلك قطعـا إلى قـوتهـا المـادية . . والـيـوم أهـم مـا يميـز الـدولـة الحـديـثـة هي احـتـكار الـقـوة العـسكرية تأكـيـدا لـسلتطهـا العليـا وذلك واضح للعيـان ، حيـث تقـوم السلطات بقوتها العـسكرية ضخ دماء شعوبها وقذف عتادها وأسلحتـها

ومتفجراتها عليها كي تبقى في سلطتها دون أن يهمها الإنسان وعدد الضحايا الساقطين بدمائهم . . دون أن يبالوا بخراب الوطن ولا أفواج اللاجئين الفارين مع خوفهم ورعبهم من سطوة نظام عسكري لا يهمه سوى مصلحته الخاصة . . كرسيه . . عرشه الدنيوي . . والأمثلة لا تعد ولا تحصى بطول خليجنا وعرض محيطنا العربي . .!

أما الدول العظمى فهي تنتج وتصنع الأسلحة لتتاجر بها بل وتسعى إلى إضرام الحروب بين الدول العربية خاصة ؛ كي تعيش على حسابها . . ولعل أقرب مثال واقعي هي أمريكا والتي لا يمكنها بعد أزمات الاقتصادية التي مرت بها أن تكف عن لعنة الحروب . .!

ما بين أم تقصف وأم تحيا على ثروات القصف ، شتان ما بين الأولى المقصوفة والثانية القاصفة . .!

مادة «احتلوا»..!

تحدثنا في مقالة سابقة عن مادة «التدبير المنزلي» التي خصصت في بعض الدول كمادة دراسية للإناث دون الذكور، وكانت المقالة عبارة عن دعوة لجعلها ضمن مناهج الذكور نظرا للتبدل الحاصل في المجتمعات . .

والظريف في المسألة هو الخبر الذي قرأته من إحدى الصحف يشير إلى أن حركة «احتلوا» التي انطلقت الخريف الماضي في نيويورك في إطار حملة «احتلوا وول ستريت» للمطالبة بعدالة اجتماعية والتي انتشرت في بقية أنحاء الولايات المتحدة سرعان ما تحوّلت إلى مادة دراسية تعلّم في جامعة بمدينة شيكاغو . .

وذكرت صحيفة «شيكاغو صن تايمز» أن جامعة روزفلت في شيكاغو بدأت في الفصل الدراسي الجاري بتعليم مادة «احتلوا كل الأماكن» وهو صف علوم سياسية يتناول انطلاق الحركة ومسألة العدالة الاجتماعية في الولايات المتحدة . .

بينما قال «جيف أدواردز» الأستاذ الذي يدرّس الصف : «أدرّس الحركات الاجتماعية وهذا أمر يظهر الآن أمامنا» . .

والمدهش من كل هذا أن المادة من ضمن نشاطاتها هو قراءة صحيفة صادرة عن الحركة «احتلوا غازيت» والمشاركة في اجتماعات عامة يقيمها الناشطون . .

ياللغرابة . . حين نقرأ نحن - العرب - خبرا كهذا . .!

ففي وقت يستحدثت فيه الغرب مناهجهم الجديدة ؛ لتوازي عصرنة الزمن وتطلعات الأجيال الحديثة في مقابل ذلك تشهد أجيالنا الجديدة حالات الخلاف السائدة في دولنا العربية التي ما تزال متأرجحة في قراراتها وعلى اختلاف عريض عفا عليه الزمن للمطالبة بحق الإناث في مادة التربية الرياضة المخصصة لمدارس الذكور فقط . .!

يا ترى كم سنة ضوئية يلزم أوطاننا حتى تعتزم تدريس أجيالها مواد ثورية وهي التي كانت في مقدمة من أشعل فكرة الثورات . .؟!

بالنظر إلى كل من الدول التي شهدت حركات الربيع العربي تونس ومصر وليبيا واليمن . . بالنظر إليها سوف نرى أن مستوى التعليم فيها متردي ومتأخر وعلى حاله منذ سنوات عتيقة . .!

فالمناهج التونسية كما هي مذ زمن زين العابدين ولعل أطفالها يرددون مآثره الغابرة في نشيد وطني . . وأطفال مصر على - ما يبدو - ما زالوا يقلبون تلك الصفحات التي تعظّم رئيسهم المخلوع حسني مبارك . . بينما صغار ليبيا يرددون شعارات زعيمهم معمر القذافي . .!

كأنما دمج الحركات الثورية في منهاج المواد الدراسية سيغدو حلما عربيا آخر يضاعف إلى مجموع أحلامهم المشرعة في فوهة التاريخ . .!

في سياسات الدول الغربية تحرص كل دولة في الحفاظ على تاريخهم بخيرها وشرها على سواء ، ففي أمريكا كل حدث له أرشيف من الذاكرة الأمريكية التاريخية كما بقية دول العالم التي أبقت على قامات رموزها وثوارها ، بل حتى سفاحيها ومجرميها وجبنائها والخونة منهم ، فالتاريخ يعرض كما هو دون إسقاط حق ودونما تشويه . .!

أما في دولنا العربية ثمة عقول مشككة تعاني من توجّس دائم

ووسواس قهري يأتي الخلف ليقدس تاريخه الشخصي فقط ويلغي كل ما له صلة بالسلف السابق أو ما له علاقة بالتاريخ ، فعلى سبيل المثال عندما قامت أمريكا بإسقاط نظام حكم صدام حسين في العراق ، نهجت الحكومة الجديدة على إلغاء كل ما له صلة بالرئيس صدام ونظامه . . ولو قدّر لها على اقتلاع تاريخه من جذور العراق وكأنه لم يكن لفعلت . .!

على هذا المنوال الخلف يلغي تاريخ السلف وهو أمر حتمي ، ففي دولنا العربية يوجد ما يسمى نظام تقديس الأصنام . .!

لكن بشأن حركات الثورية للشعوب العربية الوضع مختلف تماما وليس له علاقة بتاريخ شخصي بقدر ما له أهمية عظمى ؛ لأنه يشكّل تاريخ شعب بأكمله ولأنها نابعة من شعوب بكافة أطيافها ولم تكن حركات انقلابية حزب عن حزب ، لهذا فمسألة تجسيد هذه الحركات وترسيخها لدى الأجيال القادمة حق أصيل وضروري ؛ كي يستلهم منها القادمون وتشهد أزمانهم على تاريخ أجدادهم وكفاحكم العريض في طلب الحرية والعدالة والقضاء على الفساد وتأصيل كل القيم النبيلة في أوطانهم لأجل مستقبل زاهر يشملهم ويشمل أبناءهم . .

لهذا فالمطالبة بدمج انتفاضة الشعوب ويقظتها وثورتهم حق شرعي يجب التأكيد عليه قبل أن تتولى أي قيادة جديدة زمام الرئاسة في تلك الشعوب . . وعدم إرسائها ما هو إلا دليل قطعي على طمس حقائق تاريخية من حق الأجيال القادمة معرفتها والمرور عبر أحلامها وتطلعاتها . .

قريب من هذا المعنى ما كتبه الروائي البرتغالي الحاصل على جائزة نوبل «خوسيه ساراماغو» في مقدمة روايته «مسيرة الفيل» :

«علينا أن نعترف بأن التاريخ ليس انتقائيا فحسب ، بل هو تمييزي أيضا ، إنه لا يأخذ من الحياة إلا ما يتفق مع حاجاته المادية المجتمعية ، ضاربا عرض الحائط كل الأحداث الأخرى التي تخص ربما ملايين البشر ، والتي يمكن أن يكون أكثر أهمية مما تم تدوينه ؛ لأنها تلقي الضوء وتفسر الكثير من الأمور الغامضة في تاريخ الإنسانية ، وأقول لكم بكل صدق : إنني أفضل ألف مرة أن أكون روائيا ويسرد أحداثا متخيلة ، أحيانا كاذبة على أن أكون مؤرخا يشوّه الأحداث ويقدمها على أنها حقائق . .» . .

لذا فلنطالب بالمحافظة على تاريخ ورموز وشهداء وأبطال ومطالب و ثورات ربيعنا العربي من سرطان التشويه وتلاعب العابثين والمخربيّن ومشوّهي الحقائق ، وذلك عبر رصدها وحفظها في سجلات ووثائق كتابية وتسجيلية يرثها الخلف عن السلف ولتغدو ذاكرة كاملة عن شعوب عربية ولجت التاريخ بشرارة يقظتها . .

شبيه البيه..!

«أشعر بفراغ كبير وكأن جزءا مني قد مات . .! »

العبارة أعلاه أدلى به «كيم يونغ سك» في حديث صحافي وهو شبيه الرئيس الكوري الشمالي الراحل «كيم جونغ إيل» . . ومبعث حزن هذا «كيم يونغ سك» هو أن وجود الرئيس على قيد الحياة كان مصدر رزق جيد له ، إذ شارك في العديد من الأفلام التي تتحدث عن الرئيس الراحل ، كما أنه شرع أمامه أبوابا عديدة كتمثيله إلى جانب رئيس الوزراء الروسي «فلاديمير بوتين» في إعلان تجاري للشوكولاته . . وفي اليابان شارك في مسلسل تلفزيوني إضافة إلى عمله في مواقع تصوير الأفلام في كوريا الجنوبية ، حيث كان يشارك في أفلام أدوار سينمائية . . ويبدو شعور من الإحباط قبضت على شبيه الرئيس الكوري الشمالي لخشيته من أن حياته المهنية في التمثيل قد شارفت على نهايتها بعد رحيل الزعيم . .!

ويبدو أن شبيه الرئيس الليبي «معمر القذافي» ليس أكثر حظا من سابقه ، فمهنته تكاد تكون انتهت مع موت القذافي فشبيهه المدعو «أنطوني بينا» كان قد وظّف قدراته التشبيهية في برنامج كوميدي يقدمه المذيع الأمريكي «كونان اوبرين» ولكن الأخير قال له عند مقتل القذافي : «حظا سعيدا في المستقبل» . .!

ولكن من وجهة آخر نال شبيهي بعض السياسيين قدرا من الذل والعبودية وتعطلت أمورهم الحياتية وتعرضوا لأنكى أنواع التهديد وذلك لثقل وزن مثيله في المنصب على مستوى العالم . . وهذا ما حدث مع شبيه الرئيس «صدام حسين» ففي فترة ليست ببعيدة تم خطف رجل يدعى «محمد بشر» وهو شبيه «صدام حسين» من قبل مجموعة تقوم بإنتاج الأفلام الإباحية وعرضوا عليه ٢٠٠ ألف جنيه إسترليني للمشاركة في فيلم إباحي عن «صدام حسين» وعندما رفض عرضهم ألقوه من السيارة وهي مسرعة وتم إسعافه في أحد المشافي القريبة . .!

والمدهش أن شبيهي زعيم القاعدة «أسامة بن لادن» غدو محط اهتمام أكبر بعد موته كما أشارت البريطانية «فرانشيسكا ماكدوف» : «تزايد الاهتمام بمن يشبهون بن لادن بعد موته» . .

ولكن لم يخلو حياة من كان يتشبه بزعيم القاعدة من الخطر ويذكر أن المدعو «ليونيل ارياس» ارتدى قناعا شبيها بابن لادن في بلدته كوستاريكا وعندما رآه سائق تاكسي قفز من سيارته واستهدفه في طلقتين استقرتا في بطنه . .!

هل الحال تكون مختلفة مع شبيه حي . .؟!

هكذا سألت نفسي وأنا أتابع تفاصيل حياة شبيه الرئيس المصري المخلوع «حسني مبارك» فشبيهه «المعروف» بـ«مدحت أبو العز» انتهى من تصوير فيلم وثائقي يدعى «أروقة القصر» وهو يحكي ما دار في ١٨ يوما وهي عمر الثورة المصرية منذ بدايتها في ٢٥ يناير ٢٠١١م وحتى تنحي مبارك في ١١ من فبراير . .

ويبدو أن الشبه الكبير بينهما ورّط أبو العز في مشاكل عديدة ، ومن ضمنها أن أشقاؤه دائمي الاطمئنان عليه خشية أن يتعرض

للمحاكمة عوضا عن الرئيس المخلوع في إطار لعبة سياسية ولكن أبو العز أشار إلى أنه لو وضع في قفص الاتهام عوضا عن الرئيس «مبارك» كان حينها سيطلب الصفح من الشعب متمنيا أن يأخذ العدل مجراه وإن كان ذلك يعرضه للشنق . .!

ولكن هذا الشبه الكبير جعلت الناس تبغضه وحتى قال له أحد العامة بلهجة مصرية : «ما لقيتش إلا الوش ده تمثله . .!»

حال شبيه «حسني مبارك» يخبرنا أن الحياة ليست سهلة سواء مع بقاء الرئيس أو رحيله . . ولكن إذا ما أرد هذا الشبيه الاسترزاق فما عليه سوى إتباع خطوة «عبداللطيف يحيى» وهو شبيه «عدي» ابن الرئيس «صدام حسين» الذي استغل شبهه به ساردا مغامراته بحلوها ومرها في كتاب سماه «بيه الشيطان» إذن ما على بقية فريق أشباه الرؤساء والشخصيات المؤثرة على مستوى العالم سوى تأليف كتاب «شبيه البيه» كخطوة للتشهير لمن تشغفه الأضواء وخطوات نحو جني كثير من الأموال تنتشل حظوظهم من الفاقة على مدار سنوات . .!

اللحظات الحاسمة
في حياة الزعماء..!

نال إعجابي مؤخرا كتاب صدر حديثا يدعى «اللحظات الفاصلة في حياة الزعماء» لمؤلفه رمزي الميناوي وهو يفرغ آخر رمق من الضوء على اللحظات الأخيرة والحاسمة عند الزعماء . . أولئك الذين تنازلوا عن العرش وسقطوا ونُفيوا وأُبعدوا وأُزيحوا وهُزموا إلى لا آخر تلك القائمة ، وقد صنّف لحظاتهم حسبما الظروف التي عاينها كل منهم فقضت على تاريخ بعضهم وخلدت آخرين في مضمار الرئاسة . .

ومن أهم تلك اللحظات وأعتاها على النفس هي لحظات تنازل عن العرش . . وهنا يذكر المؤلف قصة «نابليون بونابرت» وهو تنازل مذل بعد العظمة . . وهناك لحظات من الانتحار موردا حكاية ملكتين كان لهما الحظوة والشهوة والسيادة والجمال والثروة وهما «كليوباترا» التي انتحرت من أجل «أنطونيو» وكذلك ملكة «زنوبيا» ملكة تدمر . . ومن عايش لحظات متباينة ما رعب وما بين دموع وما بين جسارة هائلة قلّ نظيرها كلحظة تنفيذ حكم الإعدام وهنا حشد عدة شخصيات مهمة كـ«تشارلز الأول» و«صدام حسين» و«عمر المختار» و«تشي غيفارا» و«عبدالكريم قاسم» وأيضا «تشاوشيسكو» الذي بكى كالأطفال لحظة إعدامه وشتّان ما بين إعدام أبطال وما بين إعدام مجرمي حروب . .!

ولحظة الاستسلام المكلّلة بالعار مثل الإمبراطور العتيد «هيرهيتو»

الذي وقّع وثيقة الاستسلام بدموعه . . ولحظة الاستقالة القهرية كإستقالة «ريتشارد نيكسون» ولحظة الهروب كـ«شاه» إيران الذي هرب ولم يبك عليه أحد . .! وأخيرا لحظة الانتصار «محمد الفاتح» في لحظة تحقق البشارة النبوية بفتح القسطنطينية و«طارق بن زياد» ولحظة فتحه الأندلس وهي لحظة لن ينساها التاريخ . .

هنالك لحظات مهيبة ومتباينة عايشها كثير من الزعماء عصفت وأرعدت وبالوقوف والتأمل في تلك اللحظات نخرج بنتيجة أن معظمها كان بفعل «الرئيس» نفسه بسبب مواقفه تجاه شعبه من ناحية وتجاه الدول الأخرى في علاقاته الدولية . . كل تلك الأسباب الجامعة وغيرها هي مبعث هلاكه . . ففي وقت الحاضر يشهد التاريخ على سقوط ثلاث رؤساء على رأسهم «زين العابدين بن علي» الذي اشتهر مع ثورة الياسمين التونسية بـ« زين الهاربين» الذي هرب حاملا حقائب جبنه . . والمخلوع «حسني مبارك» الذي افتعل المرض على سرير الخيبة والهزيمة . . والمقتول على يد شعبه العقيد «معمر القذافي» الذي اقتادوه كجرذ من أنابيب الصرف الصحي . . أما الرابع فسقوطه قاب قوسين أو أدنى فهو يترنّح كالديك في رقصته الأخيرة المهزومة كـ«بشار الأسد» الذي خان اسمه قبل أن يخون شعبه ووطنه براجمات الصواريخ والقاذفات التي استباحت الدم السوري . .! مع إشارة مهمة أن كل من سبق من الرؤساء الساقطين قد خانوا أسماؤهم . .!

ومن خلال تلك المصائر والمواقف العديدة يؤمن المرء في أن قوة «الرئيس» في حكمته تكون أول ما تكون في اتزان مواقفه الدولية تجاه العالم وبوقفاته الإنسانية تجاه كل ما هو إنساني يقف على قضاياهم وقفة فعلية للإصلاح ولرأبّ الصدع ولإعادة الأمور لصالح الحق ، أما

الذي يورّط شعبه ووطنه في قضايا لا تجلب لهم سوى الدمار والخسران وتذيق الشعب بأكمله ويلات حروب وهزائم تاريخية ونكسات هائلة تطال أول ما تطال الوطن نفسه وهيبته وقوته . . وكل ذلك في سبيل قرارات يتخذها «الرئيس» على وفق أهوائه الشخصية وكان من المفروض والواجب المسؤولية أن يضع آراؤه في كفة والوطن في الكفة الأخرى ؛ ليدرك أحقية وعظمة المسؤولية على عاتقه كرئيس دولة . .!

ولعل خير مثال في الوقت الحاضر على سبيل المثال لا الحصر هي التهديدات التي وجّهتها جمهورية إيران الإسلامية تجاه دولة الإمارات في قضية الجزر وما تحمله من نظرة استعلائية وقد كتبت صحيفة إيرانية تحذيرا للرئيس الإيراني «نجاد» من أن تلك اللغة الاستعلائية والنبرة المستفزة تجاه قضية الجزر الإماراتية قد تقلب الأمور في إيران وقد يواجه الرئيس الإيراني ما واجهه الرئيس العراقي السابق «صدام حسين» حين هاجم الكويت . .!

فكما هو معروف أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية تعاني من مشاكل عديدة على الصعيد الدولي ما له علاقة بالملف النووي وتدخلات الإيران السافرة في معظم قضايا الوطن الخليجي والعربي ناهيك عن أزماتها الداخلية والتي فاقمتها الضغط وسياسة التدخل الخارجي كالأزمة الاقتصادية ولما لها من تبعات تأثيرية جمّة على المستوى المعيشي وانتشار الفساد والاختلاس وتفشي الفقر نتيجة ارتفاع حاد ومضاعف في أسعار المواد الغذائية لدرجة أن سعر الدجاج وكما صورتّ وعبرت رسوم الكاريكاتور الفارسية في معظم صحفها أن سعرها بوزن الذهب . .!

وأزمة شرعية النظام ونتيجة لذلك هناك مساع كاشفة لكبت

الحريات في ظل نظام إسلامي متشدد وفوق هذا بوليسي ومقموع لكل من يخالفه . . كما أنه يقمع الأقليات وتلك التي تخالف منهجها ومذهبها بنظرة طائفية مقيتة تحكم البعض حد الهوس المرضي كقضية إعدامات شباب الأحوازيين والتضييق عليهم على عدة أصعدة . .!

وقد ختمت المقالة قولها في الصحيفة برسالة تنبيهية موجهة إلى الرئيس الإيراني «نجاد» قائلة له : «الإمارات هي كعب أخيل إيران فعلينا أن ندرك ذلك والحل الوحيد هو الدخول في مفاوضات معها لا أن تحتقرها ؛ لأن هذا الجار الصغير الذي كان قبل ثلاثين عاما مجرد صحراء قاحلة أصبح اليوم أحد أكثر البلدان تطورا في المنطقة وبإمكانه أن يتسبب في أن نفقد بلادنا وما فيها» . .

قصارى القول : على كل دولة أن تعي كل ما تقوم به وتوازن قراراتها قبل أن تندّفع وتتهور . . وأن تضع أولا وأخيرا في حسبانها الشعب وكرامته ويكون همّها الأساسي الوطن ومصلحته ورفعته ؛ كي لا يعظّوا أصابعهم ندماً حين يسقطون بإرادة وعزيمة الشعب وواقعنا اليوم صفحة مفتوحة بوضوح كلي وشامل للعيان . .!

وصايا اسكندر المقدوني

في كتـاب «إنهـا الثـورة يا مـولاي» للرئيس التـونسي «منصف المرزوقي» خصّ حديثا عاما عن أمانة ذمة بعض الرؤساء قائلا : «لا أحد منهم هرّب أمواله الشخصية للخارج أو ملك فيه أجره ، كلهم اعتبروا أنفسهم حرّاس المال العمومي كلهم استنكفوا أن تظن بهم الظنون فبالغوا لدرجة التي وصلها «ديجول» وهو يرفض أن يتلقى أجرا كرئيس جمهورية وكان يدفع من جيبه ثمن غداء عائلته عندما تزوره في قصر الإليزيه . . ومن لا يعرف أن «عبدالناصر» مات مدانا وأن ابنته لم تصبح مليونيرة ولا ابنه . .؟ يتصادف أني خصم لـ«بورقيبة» أبا عن جد لكنني اعترف بأنني ذهلت يوم مات الرجل وذهبت للعزاء ففوجئت بجثته ملفوفة في العلم وسط ساحة بيت لا يختلف عن بيت أي عائلة تونسية من الطبقة الوسطى» . .

لا بد وأن الذهول يقبض على حواسنا حين يتناهى إلينا أمانة بعض زعماء - العرب - خاصة في زمن الفساد وخيانة الأمانات . .!
ويمكن القول أن الزمن يشهد بوجود زعماء ورؤساء سواء عرب أو من الغربيين كانت سيرتهم عطرة وخلفوا لشعوبهم إرثا تاريخيا عظيما يفخر بها شعوبهم كما يفخرون بالأرض التي أنجبتهم . . ولعل على رأسهم حاكم عدّ على مدى العصور أعظم محاربين القدماء ولم يحدث قط

كما تداولت سيرته كتب التاريخ أن رفعت جيوشه بياض هزيمة في وجه أعدائه خلال كل معركة قادها . . إنه «الاسكندر المقدوني» حاكم مقدونيا أو ماسيدونيا وواحد من أدهى وأعظم القادة الحربيين عبر العصور وتلميذ الفيلسوف والعالم الشهير «أرسطو» . . كان قاعدا تكتيكيا بارعا وموصوف بالحكمة والدهاء والجسارة والسخاء وصلبا شديدا في السياسة واستطاع في فترة حكمه أن يمازج بين حضارات الإغريق والشرق ودمجها في إمبراطورية واحدة سمى أكثر من ٢٠ مدينة منها على اسمه وعلى رأسها مدينة الإسكندرية في مصر . .

قال له والده الملك «فيليب المقدوني» : «إن الدنيا لن تسع عقلك يا بني» وهذه العبارة التي كلل بها الأب ابنه وكما تروى كتب التاريخ حين غدت إحدى فرسه عنيفة ومتمردة وأبت التحرك خطوة وما كان من الصبي المراهق «اسكندر» حين تناهى إليه يأس مسيسيه إلى التدخل ومعالجة الأمر رغم خوف والده ورفضه الفكرة وحين دنا من الفرس أمسك بلجامها ثم غيّر اتجاه رأسها فهدأت الفرس ، تعجب والده الملك وسأله عن سر ترويضه للفرس الجموح . . فبين له اسكندر أن مبعث عناد الفرس يعود إلى خوفها من ظلها كلما وقعت عينها عليه وحين حول رأسه صوب الشمس صار ظلها تحت قدميها فهدأت . . فقال الأب عبارته الشهيرة . .

ولكن من غرائب سيرة «اسكندر المقدوني» تلك الوصايا الثلاث التي بلغ بها مقربيه كي يقوموا بتنفيذها عند موته وكان نص تلك الوصايا الثلاث : «الوصية الأولى : أن لا يحمل نعشي عند الدفن إلا أطبائي ولا أحد غير أطبائي . . والوصية الثانية : أن ينثر على طريقي من مكان موتي حتى المقبرة - قطع الذهب والفضة وأحجار الكريمة

التي جمعتها طيلة حياتي . . والوصية الأخيرة : حين ترفعوني على النعش أخرجوا يداي من الكفن وأبقوها معلقتان للخارج وهما مفتوحتان» . .

التبست هذه الوصايا على مقربيه وسألوا عن مغزاها . . فأخذ الملك نفسا عميقا وأجابهم : «أريد أن أعطي العالم درسا لم أفقهه إلا الآن . . أما بخصوص الوصية الأولى فأردت أن يعرف الناس أن الموت إذا حضر لم ينفع في رده الأطباء الذين نهرع إليهم إذا أصابنا مكروه وأن الصحة والعمر ثروة لا يمنحهما أحد من البشر . . وأما الوصية الثانية حتى يعلم الناس أن كل الوقت الذي قضيناه في جمع المال ليس إلا هباء منثورا وأننا لن نأخذ معنا حتى فتات الذهب وأما الوصية الأخيرة ليعلم الناس أننا قدمنا إلى هذه الدنيا فارغي الأيدي وسنخرج فارغي الأيدي كذلك . .»

رحل «المحارب الجبار» اسكندر المقدوني «ونفذ فيه مقربوه وصاياه بحذافيرها . . وهذه الدرر الحكيمة التي اختصرت في وصايا ثلاث تجعل المرء يعيد ترتيب حياته من جديد هذا بشأن الفرد الواحد مع نفسه ولكن ماذا عن زعماء وحكام مسئولين عن شعوب بأكملها مما شك سيكون ترتيبهم لأنفسهم من نوع مغاير وكثيف . .؟!

وهذه العظات استدعت سيرة الرئيس المصري المخلوع «حسني مبارك» فمما توارد أن الرئيس المخلوع حرص على مسألة موته الوشيك وهذا ما جعله يعكف على تجهيز قبره وبمواصفات عالمية عالية في الرفاهية وعلى طريقة قبور الملوك وقد أقيمت المقبرة من رخام الحجر الحلواني أغلى أنواع الرخام على الإطلاق تكفلت المقبرة حوالي ١٠ ملايين جنيه وتبلغ مساحتها ١٢٠ مترا مربعا من الرخام ويوجد بها

حمام ٥ نجوم فاخر واستراحة ملكية ونظام صوتي خاص وغرفة تكييف مركزية خارجية . .

هذه المقبرة بهذه المواصفات باذخة الفخامة تقع في دولة تدعى «مصر» وهي دولة أكثر من نصف سكانها تحت خط الفقر وأكثر من نصفه اتخذ من المقابر المهجورة بيته الخاص وعائلته المتناسلة نتيجة الفقر المدقع وتمر حاليا بأزمة اقتصادية متردية للغاية . .!

البون شاسع ما بين فكر وحكمة ملك بقامة «اسكندر المقدوني» وبعض «زعماء العرب» أصحاب الجيوب الثقيلة والعقول الفارغة . .!

دولة دكتور جيكل ومستر هايد..؟

مشكلة كبرى في أمة تنتّقد بشّدة وما تنّتقده تقلّده بشّدة . .!

مشكلة كبرى في أمة تشّن هجومها على الناجح وتصفق للمتخاذل ، فالأول لا ينال إعجابهم لأنه يذكرهم بمدى خذلانهم . . أما الثاني فيواسونه لتماثل الحال . .!

مشكلة كبرى في أمة تنسى عيوبها المتراكمة والمتعاظمة وتعيب غيرها في هفوة خطأ مطبعي . .!

مشكلة كبرى في أمة تبقى على جهلها ومن ثم إن برز أحدهم مجتهداً بغضوه وحقدوا عليه وسخروا من اجتهاده . .!

مشكلة كبرى في أمة تقلّد كالإمعة كل ما هبّ ودب . . وإذا ما خالف أحدهم قانون التقليد الأعمى اسقطوه واعتبروه مختلفاً وشاذاً ومريضاً نفسياً . .!

مشكلة كبرى في أمة تهتم بكل ما هو وضيع وساقط وتافه وتطارد كالمسعور بكل من يأتي بإبداع ورقي وتميز وتعدّه مسيساً بأفكار شيطانية . .!

مشكلة كبرى في أمة لا تعترف بأخطائها ولا تعايش واقعها . . بل تبني حولها سوراً من الأوهام ومن يقوم بإيقاضها تعدّه خائناً وخائب النيّات ومحرّض . .!

في مجتمعاتنا العربية إذا ما ألقينا نظرة بانورامية شاملة سوف نجس نوعا من التناقض الفاغر ، أقرب ما يكون إلى إزدواجية ومبعث هذا طبيعتين يتصف بهما الإنسان العربي ؛ فهو أولا كان شخصا بدويا من عصور جاهلية ومن ثم أصبح إنسانا مسلما ترك عبادة الأوثان إلى عبادة رب واحد لا شريك له ، وهذه العبادة الربانية فرضت عليه فروضا كي تتحقق إسلاميته . . ومن هنا أصبح لدينا خليطين . . خليط عربي بدوّي وخليط عربي إسلامي في كائن واحد . .

ولعل موقف المسلمين الأخير من الفيلم المسيء للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - يبرز بوضوح هذين الطبيعتين ويكاشف أكثر الطبع البدوي الميال إلى العنف والقوة . .

وثمة تناقض هائل ما بين قيم الإسلام وقيم البداوة من حيث طبيعتهما ، وهذا التناقض لم يظهر في عهد النبي وفي عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ؛ لأن الكفاح المتواصل ضد الأجانب وحّد الهدف وأشغل النفوس بمآثر الغزو والفتح وتأسيس دولة . .

يمككنا القول بأن النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - قد وحّد القبائل العربية المتناحرة لأول مرة في التاريخ وقذف بهم إلى حرب الروم والفرس ، فقد كان البدو قبل النبي محمد يحارب بعضهم بعضا أما بعده فقد اجتمعوا على محاربة عدوّ مشترك . .

ولعل البداوة برزت أكثر في عهد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهذا من سوء حظه ؛ حيث وقف الفتح فعاد البدوي إلى طبيعته إلى النزاع فيما بينهم ، فلو كان الفتح متواصلا حتى عهد عثمان بن عفان لما واجه المسلمون الإنتفاضة الكبرى التي هزت أركان المجتمع الإسلامي بأكمله . .!

ويحكى أن في أثناء تلك الأزمة شاور عثمان بن عفان بعض أصحابه لقمع الفتنة قبل اشتدادها ، فأشار عليه «عبدالله بن عامر» أحد ولاته على الأمصار أن يشغلهم بالجهاد وأن يجهزهم للمغازي حتى يذلوا ويدلقوا الولاء فلا يكون همّ أحدهم إلا نفسه . .!

وفي عهد «عثمان بن عفان» بدأت أول بادرة فجوة بين الحاكم والمحكوم . .! فجاء اقتراح الجهاد والغزو في محله ، فالطبيعة البدوية هي طبيعة حرب . . البدوي لا يفهم من دنياه غير التفاخر بالقوة والشجاعة والغلبة وهذه تؤدي عادة إلى حب التعالي والرئاسة والكبرياء والتفاخر وهلم جرا . .

واشتهر البدوي بأنه ميال إلى النزاع ، وكان يقال قديما أن البدوي إن لم يجد من ينازعه مال إلى نزاع الأقربين فيشتبك مع ابن عمه أو أخيه . .!

وقد أورد الشاعر «القطامي» وهو شاعر جاهلي ذلك في قصيدة معروفة تقول بعض أبياتها :

فمن تكن الحضارة أعجبته
فأي رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فإن فينا
قنا سلبا وأفراسا حسانا

وقد فسّر البروفيسور «فيليب» نزعة القتال عند البدو قائلا : «إن نزعة القتال أصبحت عند البدو حالة عقلية مزمنة فحياة الصحراء في رأيه على حافة المجاعة دائما . . والقتال بمثابة صمام أمان يمنع السكان من التكاثر ولهذا أصبح الانتقام وطلب الثأر أقوى نظام ديني واجتماعي في مجتمع البداوة . .» .

كل ما سبق من طبيعة الإنسان البدوي في مجتمعاتنا العربية تناولها د . «علي الوردي» في كتابه «وعاّظ السلاطين» وقد فصّل رؤاه حول ذلك بشكل شامل وبين بشكل ملفت بأن هذه الإزدواجية التي أقرب ما تكون إلى انفصام في شخصية الإنسان يكون حين تتعارض قيم البداوة مع قيم الإسلام ؛ فكما وضحنا آنفا أن قيم البداوة ترتكز على سلوكيات وصفات أقرب ما تكون ذات صلة بالمفاخرة والمكابرة وهذه القيم تخالف الإسلام ؛ فالإسلام دين قائم على سلوكيات طيبة ويدعو بإستمرار إلى التواضع واللطف والتقوى والعدل والمساواة بين الناس ، بينما البدوي لا يستطيع أن يكون مسالما حقا إلا في بعض الأحيان وذلك حين يكون المجتمع الإسلامي في حرب مع أعدائه . .!

هذه الإزدواجية في المجتمع فرضت وجود سلطة متناقضة في الوقت نفسه ؛ ففي مجتمع تكون فيه القلوب بدوية بينما تكون الألسنة إسلامية لابد وأن يخلق عالما إزدواجيا بشكل كبير . .!

والحكام عادة يمثلون في سلوكهم النمط الواقعي الذي يسير عليه الناس في حياتهم العملية . . ينطبق عليهم قول الرسول -عليه الصلاة والسلام - : «كيفما تكونوا يولى عليكم» . .

ولهذا لا نبالغ إذا قلنا بأن معظم طغاة العالم هم صناعة شعوبهم . . تلك الشعوب الصامتة . . الخائفة . . الشعوب التي اختارت الخضوع والإنصياع . . الشعوب المخدوعة في دوامة الأوهام . . الشعوب التي تنشغل بمصالحها الشخصية حين يصرخ الثائر بالحرية والكرامة وحيدا في شارع الظلم والطغيان . .!

اعتقد أن ثورات الربيع العربي شقلبت الأمور والقواعد والقوانين التي فرضها الطغاة طوال قرون الإستبداد و الظلم وتآكل الحقوق

والحريات وعبرها عرفت الشعوب أنها لا يمكن أن تنعم بحياة كريمة وعادلة وحرة دون أن يكونوا هم أصحاب الفعل والمبدأ والإنطلاق . . وانتفاضات الشوارع وهتافات الحشود كانت خير دليل على ذلك . .!

رفعة الأوطان وتطورها ورقيها نحو مستقبل أفضل وفاعل وغني بالإنجازات بيد شعوب لا يخالف طبعها البدوي طابعها الإسلامي ، يكونان أشبه بقالب واحد ممزوج بالأخلاق الحميدة والسلوكيات الرفيعة فلا يفصم الأوطان ويشتت مستقبلها سوى إزدواجيات بشر يخالف ظاهرها باطنها . . خائني الضمير والوجدان . .!

هويتنا العربية والمجتمع..؟!

«موقف الإنسان من الحياة هو في الحقيقة مزيج من الإرادة والظروف الخارجية ، إن بإمكانك أن تتدخل في تحديد مصيرك ، وبإمكانك أن تغير ظروفك ، وبإمكانك أن تحس بالحياة إحساسا جديدا غير الإحساس المفروض عليك» . .

– الشاعر الإنجليزي وورد ثورث –

***

من البدهي جدا العربي اليوم لم يعد ذاك الإنسان المكلل بالبساطة ، الذي يعيش في كنف خيمة صحراوية مسربلة في تلالها المذهبة بشمس اللانهاية ، جدي وأجدادكم كانوا يتصافحون يدا بيد لا «موبايل بموبايل» يدردشون عبر زيارات اجتماعية واقعية من بيت إلى بيت لا افتراضية من «فيس بوك إلى فيس بوك» ، وكان غداؤهم اليومي يكاد يكون معدودا والأهم طازجا وليس مجمدا كأطعمة اليوم ، كما كانت الصناعات بكافة تنوعها القاصر تكاد لا تخلو من طابع محلي عربي ، لكن اليوم سلال الجمعيات التعاونية تشهد بغير ذلك تماما ، إنها خليط من دول لربما شاهدناها فقط من خارطة العالم وإن حالفنا

الحظ بزيارة بعضها ، وأخرى ما تزل تكتفي بوقعها الجديد في ذاكرة أذاننا . .!

و«الهوية» التي لا تعرف أين هي من هذا الانفتاح تطرح وتجمع وتضرب وتقسم على نفسها وعلينا سؤالا مصيريا لافتا : إلى أين مسيري . .؟!

أضواء الاتهامات ستطال فئتين مهمتين يمثلان كيان كل عالم في جسد هذا الكون الذي خلق في سبعة أيام هما : «الفرد» و«المجتمع» هذان الثنائيان العلاقة بينهما سيامية الخلقة مهما تداعت أو ناهضت أحدهما عن الآخر فإن الأثر محتوم متوحد بينهما شئنا أم أبينا ، فلا فرد دون مظلة المجتمع ولا مجتمع دون أساس الفرد . .

وإذا ما كانت الحياة نصفان نصف متجلّد ونصف ملتهب فإن «الفرد» المتصل بهذه الحياة يمكن تعريفه بإيجاز بليغ بأنه ذاك العضو الذي يتمتع بسمات إنسانية متباينة ، قد يكون خاملا أو نشيطا في مجتمعه ، لديه من المؤثرات ما يجعله قابلا للانفتاح على الآخر ، إما برغبة مطواعة منه في تطوير كيانه الطموح أو تقليدا أعمى وكلا العاملين غاية الأهمية في بوتقة التأثير . .

أما بالنسبة «للمجتمع» إما أن يشرع سقفه بشفافية ليطل منها أفراده ما لدى العالم الآخر أو يكلف نجاّريه المتمرسين وعلى رأس الخدمة هم دائما بصنع قفل أسطوري خالد لا يصدأ ولا تهزّه كوارث التغيير ، وفي كلا الحالتين لا ينجو من تهمة التورط حسبما سعة الانفتاح لدى أفراده . .

ضغوط الفرد والمجتمع في الوطن الواحد هو ما أفرز تسونامي الثورات العربية مهيجة مبتلعة معها كل شيء ، لدرجة أن المرء يضحي

بنفسه أو فرد من أفراد عائلته ، دافعا بجسارة ذاك الثمن النفيس باستحقاق من أجل تغيير يطال «المجتمع» الذي يقيم فيه . .

فالفرد العربي ليس بحاجة إلى انفتاح فهو أصلا منفتح قبل انفتاح مجتمعه الذي كان يراوح ما بين قدم للأمام وقدم للخلف ، وهو اعتراف اختزله بكبرياء كاشف كل القيادات الهامة التي كانت تشكل قطاعات المجتمع المختلفة . .!

خلال ربيع الثورات أدرك جيدا معظم القادة أن عقلية ساعاتهم تشير إلى غير الزمن الذي اعتادوا عليه حتى تآلفا معا ، إلى زمن كهل طال أم قصر مدته عن واقع أفرادهم ، وهذا الإدراك المتخلف عن الركب التحضر شرع كافة المحسوسات المتأخرة عن شعورها إلى مدى خطورة تلك الصناعات والاختراعات والاكتشافات التي تنتمي إلى أدمغة أجنبية خام ، صدّرها لبلده بنيّة تعزيز مكانته في أفئدة الخارج قبل كل شيء . .

عندما فغرت هذه الحقائق كاشفة عن نفسها بالتدريج من قبل الفرد والمباغتة غير المتوقعة من قبل المجتمع ، لم تجد بعض الدول بهويتها العربية سوى تمرير لصفقات شراء ما هو أجنبي ليغدو ملكية عربية وكان آخرها اقتراح سري لـ«شراء موقع الفيس بوك» من منشئه لا للانفتاح وهو شيء قد اعتاد عليه الفرد من مجتمعه ، بل لغايات أخرى لم تعد في اللحظة غامضة على القاصي والداني ، ولعل من أكثرها أهمية مصادرة الأيدي التي تكبس والألسنة التي تهتف ، وهو بمثابة اختراع لم يخطر ببال الكثيرين من «الهوامير» إلا في وقت أراه شخصيا - متأخرا جدا - كتخلف تلميذ ثريّ خانته ساعته الثمينة للوصول في الوقت المحدد لاختبار مهم ففاته تسجيل حضوره بعدما ذاع

الجرس قراره الصارم رافضا دخوله لجان الاختبارات بينما لسان حاله الذي وجد نفسه وحيدا يحتج باجترار داخلي - لم يعتد عليه - بعد عهد ولّى من الصراخ و الوعيد ، لكن اليوم بنبرة خافتة يهمس بين جدرانه : كيف هذا و ساعتي عالمية الصنع وباهضة للغاية . .!

والمثير هنا أن هذه الأيدي والألسنة تشكل هوية فردية نضجت على نحو مغاير وكثيف ولكن الأهم فالأهم أن هؤلاء لم يفكروا بتأهيل أدمغة عربية ، لتغدو قادرة على منافسة أدمغة غربية والسبب بسيط هي أن ثقتهم في أدمغتهم العربية قاصرة بل و يشوبها تخوف متشكك من أنها هي نفسها بعد تجارب الثورات المريرة فيهم تكون قنبلة مستحدثة تصوّب فوهتها إلى رؤوسهم في زمن ما إن استدعى الأمر . .!

ليثقل كتف المجتمع بتهمة أخرى لا تقل خطورة عن التهم الأخرى وهي فضفضة أزمة الثقة التي همت تتزحزح ليس فقط من مساحتها شبرا شبرا ، دارا دارا ، زنقة زنقة ، حائطا حائطا ، بل فردا وحاكما عينا بعين وسنا بسن . . والهوية العربية مطرقة ما تزل في حضرة استفهامات متكاثرة عن حمم صراعات الأفراد والمجتمع في وطن واحد . .!

هويتنا العربية والفرد..!؟

هذه المقالة متسلسلة مع مقالة الأسبوع الماضي في حديثها عن مسير الهويات العربية التي باغتت بانفتاحها المجتمع، خاصة تلك القامات بجيوبها الثقيلة، لكني اليوم سأفتتح المقالة بمفتاح القصة من خلال قصة قصيرة جدا عنوانها «احتلال» تقول الراوية :

(كان حذاؤه إيطاليا، وساعته سويسرية، وبنطلونه إنجليزي، وقميصه ايرلندي، وعطره فرنسي، وأكله هندي، ولفافته أمريكية، وسيارته يابانية، وكانت لغته مزيجا من كل ذلك، ولكن جواز سفره كان عربيا . .!)(*)

بعدما ثقل على المجتمع في حضارية هذا العصر مجاراة الفرد الذي من صلبه، لم يبق أمامه من مهرب سوى حيادية تبدي أشد ما تبدي انفعالا عميقا ممزوجا بالذهول والحيرة تجاه ما يحدث في ساحة ملعبه الذي كان خاصا وغدا ما بين ليلة وضحاها عاما . .!

ومما لا يمكن نكرانه أن هذه التداعيات عينها أحدثت نوعا من الخلخلة في كيان الفرد الذي وجد نفسه هو الآخر متورطا في مطب

(*) القصة القصيرة جدا من تأليف كاتبة المقال . .

هويتين ، هويته المحلية التي تراكمت عليه من مجتمعه ، وهوية أخرى معاصرة تسلقت عليه بكافة صيحاتها من الخارج ، صاحبنا البطل في القصة القصيرة جدا ما هو إلا فرد عربي ، أجل عربي ولكن أمرا واحدا فقط يثبت لنا انتماؤه العربي ، إنه أمر مادي بحت وبحجم كف اليد ، يحمل عنه معلومات شخصية ولا يتعداها سوى كون حامله «عربي» . . عربي فقط ولا تفاصيل أخرى من الممكن أن تعنى بها عوالم الماديات . .!

هذه المستوردات الخارجية كانت مادية في البدء ، فمن منا لا يفتتح وجباته اليومية من الصباح حتى المساء بطعام من أصل أمريكي أو فرنسي أو ايطالي . .؟! ناهيك عن أشياء أخرى غربية متلاصقة بنا بشكل يكاد يوميا وفي النهاية كلنا يهتف : أنا عربي . .!

ومن ثم أكملت المستوردات المعنوية ما بدأته المادية واكتسحت الأسواق آخر تقنيات التكنو «الهواتف المتحركة / الحواسيب» التي غدت في أول طلوعها مغتربة في بيتها الجديد ، ولكن نتيجة لعوامل التي تم ذكرها سابقا منها الفضول الراغب في الانفتاح أو التقليد الأعمى للآخر من قبل الفرد مما ضاعفها تحفزا في فرض وجودها بجدارة ؛ لتضحى هي من تدير البيت وأصحابه بينما الهوية العربية في عقر دارها غدت دون وجودها مغتربة . . خاوية . .!

فتلكم الاختراعات لم تكن سوى غربية مئة بالمئة والفرد العربي تجاه هذه الحقيقة الفاغرة هل يعد نفسه عربيا مئة بالمئة . .؟!

الجواب ببساطة مطلقة : لم تعد هويته عربية خالصة ؛ فشوائب تلكم المتغيرات غدت ضرورة من ضرورات هذا الزمن الراكض بقوة تريليون طائرة نفاثة ، والفرد لم يجد بدا سوى اللهث وراءها بالسرعة

عينها لا بدافع الاختيار وحده الذي كان بل بدافع الفرض ، وإن وظفت صيغ المبالغة كلها لا أعتقد بأني أجدها كافية فقد غدا وجودها في حياتنا «واجبا» على كل فرد . .

فهذه الهوية الناقصة المغتربة هي نفسها من فجرت الثورات العربية ؛ لاستعادة كمالها الناقص . .؟!

في هذا العالم المتناقض لم يعد بإمكان الإنسان أن يحيا في ظل متغيرات العالم من حوله متفرج الأيدي والحواس وللمجتمع الدور الأكبر ؛ لأنه هو من سخرها لأفراده في مجتمع أراد أن يكون حضاريا بلغة الغرب ، بصناعات غربية ، بهويات غربية ، بأدمغة غربية ، وإذا ما كان كل قرار صادر في كافة الهيئات والمؤسسات من أصغرها إلى أكبرها تحتم حضاريتها في التعامل مع الفرد ، وأبسط مثال أنها تشترط عليه في حال تقديم طلب وظيفة ورقة بخط حاسوبي منمّق موثقا معلوماته الشخصية برقم هاتفه المتحرك ويبعثه عبر بريد الكتروني أو ربما المقابلة تتم عبر مواقع التواصل الاجتماعية الفيس بوك وتويتر . .

إن هويتنا العربية تشتعل على جمر حقائق عدة ، فمن ناحية الفرد ورغم دود الخلخلة التي تتجشم شعوره فإنه مُصر على اكتمال قمر هويته العربية الناصعة ولكن بطرق غربية مستحدثة ، بينما المجتمع بقادته يرغبون تحضرا تواكب مكانتهم في سبق عالم ديمقراطي شامل فقط كصورة مؤطرة لوجه سياسي لامع متحضر في المحافل الدولية ، وفي الوقت عينه يضيقون الخناق بكافة السبل تلك الهوية العربية التي يرفضون اكتمالها في الداخل بوسائل غربية . .!

لكن يا تُرى إن وجدت اختراعات عربية بديلة لاختراعات غربية هل ستواري حفرة الشك الغائرة بشكل ملحوظ جدا ما بين السلطة

والفرد بمعدل متساو . .؟!

الفرد الذي أصبح عميق الثقة بشاشة حاسوبه أكثر من أي شيء آخر . . أليست هي من أخرجته من عزلته إلى عالم تواصلي وفجرت فيه قيم الكرامة والحرية وأثبتت له أنه يستحقهما بجدارة وعززت فيه إيمانا بأنه كيان مستقل تهز حماسته هزا بقولها له على طريقة «أوباما» : «بلى تستطيع ذلك» تستطيع التغيير ، تستطيع أن تقول وتفعل ، بعد أن أمسيت لا تقول ولا تفعل . .؟

ومجتمع ناطحات السحاب يستوقفها في - الوضع الراهن - حاسوب مسطّح لا تدري بأي لغة أو عقلية أو يد تتعاطى معه . .؟!

فهل ثمة نهاية لصراعات المجتمع والفرد وهويتهما العربية في حربهما الدائرة العتيقة . .؟!

من حيّز حريتي . . رأيي أنا : لا فكاك من هذا الصراع الأبدي إلا بترقيع عدة فجوات متخثرة منذ قرون . .!

ومن حيّز حريتك أيها الآخر : فما رأيك أنت . .؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

هويتنا العربية والروبوت الآلي..!

بعد تسليط «الهوية العربية» حبل المشنقة حول متهمين «الفرد والمجتمع» بقيت جدلية معلقة ما بين السماء والأرض بلا حل ناجع وهي منطاد «الشك العربي» الذي يتفسح بحرية خارج عن القانون دون أن يردعّه أي رادع قانوني أو شرعي . .!

أزمة الشك التي خلقت أفرادا يثقون بآلاتهم أكثر من إنسانيتهم ، وخلفت سلطة في مجتمع مخملي ترقص رقصة الحيران لا للتعبير عن الفرح بل هي نشوة الخسران والضائع والضال من مجتمع صنعوه فتآمر عليهم . .!

ولأنهم لا يثقون بكائن ، خاطر غريب عزز في أعماقي مكانة الإنسان الآلي «الروبوت» في مستقبل أوطاننا بعد ربيع الثورات الذي تمطط على ما يبدو في بعض الدول ، هذا الروبوت ماذا لو غدا هو كبش الفداء الجديد أو لنستبدل العبارة إلى «سلاح الطاعة الفعّال» إن صحت التسمية . . دون أن يفوتنا إبداء عبارات تفخيم وإجلال . .!

فنحن في - عصر الآلات - بلا منازع وهي عينها أضحت الحبيب والرفيق والأب والأم بل الأسرة بجّل قدرها ومقدارها ، أفراد غرسوا ثقتهم في صميمها ، وشركات كبرى استغنت عن سواها ؛ لأن سواها يسبب لها الصداع وهي لا تشكو الصداع ولا علل الدهر ، ولكن

ماذا عن ساكني ناطحي السحاب الذين وجدوا أنفسهم في أزمة مستعصية . .؟!

أجل . . كما استهام خاطري الطارئ «جيوش من روبوتات آلية» يستعين بها أولئك المتشبثون بكراسيهم في بعض دول عربية ، فبعد أن ذابت الثقة كما تذوب قطعة آيس كريم لسهوهم حفظها في الثلاجة فكالوا بعد ذلك أقذع التهم على الشمس المنصهرة ولعنوا الصيف الذي عشق الشمس دون غيرها من الكواكب ، فلا يفوتنكم - أكرمكم الله - أننا ننتمي لظل أمة تهوى إسقاط التهم . . لمجرد الهوى . .!

روبوتات آلية . . هل سيتخذ منها لنفسه عسسا ومعاونين ويرصفهم في جيوش تذود عنه من هجمات الضواري في زمن كما يراه بنظرة زرقاء اليمامة الثاقبة أن أفراده الحقيقيين عجنوا من طين الخيانات وشرايين الغدر الفوضوي ، روبوتات آلية لا حس ولا نفس راضخة كالديكورات ، في زمن يعوز أولئك الواقعيون أن يتنفسوا هواء الحرية والكرامة وهتاف المصالح الجماعية ، ومطالب تفتح فمها ومعدتها ، ولا تنتهي ، ولا تكل و لا تمل . .!

في مقابل تلك الروبوتات الآلية التي إن كلفته لا تكلفه سوى تكاليف صنعها وشحنها والاهتمام بأحشائها الدقيقة ، وفوق هذا تذعن بكامل حواسها العقلية المبرمجة على هواه وحده قائلة له على الطالع والنازل عبارة واحدة متوحدة يعشقها مالكها ، ويموت من أجلها وفي سبيلها بينما هي هاتفة بحس متواصل لا يتغير ولا يتزعزع : «أمرك مولاي» وإن تقلص حس الهتاف فإن الخلل بسيط في شحنها ببطارية تدوم زمن ما تدوم ، بينما يعود هو ليغط نومة الكهف في نعيم فردوسه ؛ فروبوتاته بلا ضمير ولا سؤال ولا ابتزاز مستقبلي . . إذن كل

شيء يمضي في أدق أمان وأعم طاعة . .!

لعل ما يصبوا المقال إليه تفكير جهنمي انبثق على حين تشفي من عقل مراهق شقي ، لكن في جحيم الثورات كما يصفها أولئك الذين دفعوا سمعتهم وكراسيهم ثمنا لها ، أن الأموال التي كدسوها في أقبية قصورهم الباذخة هي وحدها كفيلة والمتكفلة لتسانده في غموض مستقبل لا يأمن شره الآتي ، فتلكم الجوقة من فرط العيش المترف ، لم تتورع أموالهم المكنّزة من جيوب الآخرين للقيام بعمليات تجميلية ، ليوهموا شعوبهم أنهم ما يزالوا موفوري الشباب رغم كهولة ماضيهم القاتم ، وماذا يمكن أن يجانب أولئك الذين تعاطوا مع شعوبهم بلغة الأقنعة ، حتى نسوا وجوههم الحقيقية بل لم يألفوها يوما ، فاستبدالها أشبه باستبدال أحدهم فردتي حذائه . .!

وهمـــا دون أدنى شك أغلى وأثقل من وزن المواطن في بعض بلداننا بأمانة ، فلن يضيره شيء في استبدال أعوانه من البشر بأعوان آلية ، وبهذا يعزز انتقامه من جيل شهر أجهزته في نصب وجوههم بواسطة جهاز حاسوبي مبرمج بالخدمات ، ليفقئ أيديهم التي كبست من أجل تطهير الأرض من فسادهم بمفاجأة «روبوت آلي» مبرمج بالطاعة العمياء . .!

أفلا تناهض قوانين تصفية الحسابات حقوقها حاكمة بأن العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم . .؟! ومن خلال هذا يكونوا قد أوجدوا لأنفسهم مأربا قانونيا رسميا ؛ ليثقبوا بها أعين الهاتفين السالفين . .

شيء لا استغربه مطلقا ففي هذا العالم كل شيء جائز ، وكل شيء واقع ، وقد يجدف البعض أن فكر مقالتي «هوليوودي» النزعة

ولكنني أبلغهم مقدما أنني أصدق على عماء تام أفلام هوليوود وأصفق لنبوءاتها . .؟!

أليست هي طالما تنبأت وما تزال بمصير الكون والإنسانية الجمعاء بينما نطعن نحن - العرب - تنبؤاتهم فاغرين أفواهنا ببلاهة : إنها خزعبلات ، شيء لا علاقة له بالواقع مطلقا . .!

لكن أمريكا تنفي ذلك وما تزال أفلامهم تستعرض على شاشاتنا المسطحة ما لا يمكن تصديقه ولا الجزم به ،كما أن الدول الغربية التي تنجب أفكارها ما تزال حريصة باجتهاد على تحويلها إلى واقع ملموس وحي ونابض فقط من أجل أعيننا الساحرة نحن - العرب - فقط لأجل هذا بحسن نية فلا يجرفنكم الظن بعيدا ، فإن بعض الظن إثم . .!

ومازلنا نتابع بلا تصديق ؛ لأننا أقوام لا تؤمن إلا حينما تسقط الفؤوس على الرؤوس بحكم تكتلات وهمية نفخت فينا حتى التخمة ، تتقارب أو تتفاوت من عقل عربي إلى عقل عربي آخر . .!

لعلنا على وشك ولوج عهد جديد مغاير ، إنه عهد السلطة مع روبوتاته الآلية كالتي شاهدنا بابتساماتها الرشيقة في مطاعم اليابان - قبل أن يبتلعها التسونامي الزلزالي وليمة مثقلة الدسم على طبق من ماء - ولكن في هذه الحالة ليست لخدمة الزبائن بل لخدمة نفر واحد فقط ، على الأصح لحمايته الشخصية فهو من وسواس الشك القهري ما عاد يطبق له جفن ولا يهدأ له نبض . .!

دون أن يفوتني تنبيهكم : الروبوت الآلي صناعة غربية مستحدثة . .!

سأذّكركم يوما ، أو ذّكروني . .!

ليلى.. في مهب هويّات

إنه يومك الأول حديث الولادة مثلك تماما وستدركين لحظتئذ أن كل شيء في أرجائك متلون باللذة الأولى والدهشة الأولى والتلهف الأول والسر الأول والسؤال الأول . . وهي أشياء كفيلة أن تتيه بك في مغارة تدخلينها شئت أم أبيت فلا خيار إلى حياة ممّهدة بقدر غامض هو لك كما لبقية الخلق . . فهناك أجوبة إن رغبت تصيّدها حقا و بالمجازفة وحدها تسعفك وتسعف كل كيان تتأجج فيه رغبات متلهفة في حياة متوحدة يمضي منها ما يمضي بلا أجوبة شافية وبضجيج الأسئلة المطلسمة . .

عندما تشرعين ظلال أجفانك عن نافذة عينيك الضئيلتين في ذاك الليل البهيم وأنت بعد طفلة صغيرة في قماط رقيق ملفوف حول أطرافك الهزيلة ، في يومك الأول في لحظتك الأولى مع الكون بعد أن قاومت بشدة للتزحلق من نفق ضيق هو وطنك الأول وبلادك الأولى إلى فضفاض عالم ، كم ترينه رغم غشاوة الرؤية كبيرا جدا عليك . .!

تحدقين حواليك في رؤية ضبابية لا تميزين سوى هسيس أصوات تتعالى و تسكن ، حينا تشتد باحتفالية وهي تشدك إليها في حضن ممتد ، وحينا تغيب تلكم الأصوات والأحضان والقبل المنفلتة متداعية خلف روائح فوضوية . .

وأنتِ لا تجيدين سوى لغة التحديق ، في الخارج من زجاج المشفى

العاري تتفرجين على غيمات مشاكسات يسكبن بشقاوة حافلة ماؤهن الرقراق على وجه الأرض ، بينما هي تتشربها ببهجة وهو المنظر الذي ظل يغسل نفسه طوال شهر كامل كما أبلغت فيما بعد : يوم ولادتك هطلت الأمطار بغزارة لمدة شهر كامل دون تعب ؛ لدرجة فكرنا جديا لو كنت صبيا ؛ لانتقينا لك اسم «مطر» . .

وصوتان آخران مميزان جدا ينفجران من بلعومك بتناوب يكاد يكون منتظما : البكاء والصراخ ولا تدركين أهميتهما إلا حينما تتمدد فيك الحياة ، تمططك لدرجة تنسيك حنجرتك تلك التي تعالت في شلال أصوات مختلطة بالمطالبة فقط ، أنها أمست مع تكاثر الأعوام بلا أصوات ولا مطالب ، رغم زخم الكلمات وضخامة الأحداث وسعة الأشخاص والمسميات . .!

وحدها تلفك في حضنها بحميمية وفيرة ، لم تتذوقِ مثلها ولن ، تسير بك في خطوات متمهلة إلى طريق محفوف لا تعرفين إلى أين تقودك . .؟ لكن الاطمئنان يسري في شريانك فالرائحة التي تتضوعين في كنف حضنها الناعم هي رائحة إنسانة تحبك ، هكذا تتوقعين بل تؤمنين ، والمحبة كفيلة برسم دفء الراحة في جنبات أحاسيسك الصغيرة التي أخذت تتغضن . . منزل ذويك ، هو ذا أول مكان يختزن عواطفك المتزاحمة غير المكتملة بعد ، التي استلمتك لتطبخك طرفا طرفا . . ومن عالم أصوات مبهمة وخليط من الروائح القريبة والغريبة إلى عالم المرئيات أشبه بشاشة سينمائية عريضة ، وهو أول عالم يلعب معك لعبة الإثارة ، تبدئينها بالتحديق ، فالشقلبة ، فالحبو ، فالتعثر في الخطوات ، ثم قدمين ثابتتين تسلمانك بخجل إلى أقران في مثل طولك ، تلك هي أول صداقات الحياة وألذها براءة ، يدفعك شيء لا

تعرفينه في طلّة اللقاء ، وكم هي البدايات شاقة بهدير مفاهيمها دون أن نحظى ما يروي ريقنا منها ، لكن شيئا ما يتهافت فيك نحوهم ودافعان يومضان في حواسك هما بلا شك : الفضول ورغبة التوحد مع الآخر . .

في تلك السنة في عامك الخامس قيل لك أنك ستزورين وطنك ورسمت لفظة استفهام ضخمة في مخك الطفل حول لفظة «وطن» . .؟ وسؤال بريء تخضض في داخلك فيما بعد مضي قطار السنوات : أليس المرء إلى حيث يولد يستقبله موطنه وتحفّ به هويته . .؟!

وقبل هذا السؤال الذي تأخر صببت فهمك في مصب استفهام ، و ركنتيه حيث هو ينتفخ كبالون في خبايا عالمك دونما تفسير واضح ، ولم تبال بمعرفة شيء وقتئذ ، ففكرة السفر خضخضتك ، أخيرا تستحيلين إلى نورس كذاك الذي صادقتيه رغم لقاؤكما الفارغ من الأصوات بدنو شاطئ صادقك هو الآخر مع محاراته ورماله المبتلة بقصور أحلامك التي كثيرا ما سلبتها الأمواج في مزاج متعكّر ، الترحال إلى مكان آخر مجهول أغرى آمالك بسعات مكثفة ، وفي اللحظة الحاسمة حين وطأت ذاك المكان المجهول الذي قيل لك أنه وطنك ، لا تعرفين ما الذي خربطك وانتشل ثباتك على حين فوضى . .؟

لكن رائحة المكان التي تشعبت في صميم رئتيك نفختهما في حمّة أقعدتك الفراش ، في ليلة وصولك الأولى حد التوهان في خليط من أشياء وأماكن وشوارع وحلة لم تعتد على مثلها ، وطالت الليالي تسقطك الحمّى من كابوس إلى آخر وأبت مفارقتك كرفيقة وفية

وكأنها تشاطرك نبذ أشياء لا خطوط موصولة بينكما ؛ حتى قطع ذويك بقية أيام السفر بمقص العودة إلى ديار تألفك جيدا وتألفينه . .

مذ يومها ربطت عقلك الساذج برباط محجج عقدته أن الذهاب إلى ذاك المكان لا يواتيك ؛ فهو من افترشك في ظلمتين الغثيان والحمى ، حتى الكبار ساروا على ما تحججت بل اقعدوا بجانب اعتقادك تفسيرهم الخاص «لكل وطن رائحة وهي لم تواتيها رائحة وطنها» . .

والتبس عليك هنا لفظتا «وطن» و«وطنها» دون أن تعرفي مدى خاصية تلك «الهاء» ولا غرضها في قلب أحاديث يتراشقها الكبار من حواليك . .؟!

طمست فكرة السفر وذكرى المكان كليا فتظلين مع من يظل من أهلك بينما يطير البقية إلى هناك في إجازاتهم . .

عدّت السنوات على هذه السيرة المطموسة عنك ، حتى طالت قامتك أشبارا لتجدي نفسك في الثانية عشر إلا قليلا ، في تلك السن اقترح عليك والديك أن ترافقيهم في سفرتهم إلى وطنك ، مراهقتك التي لم تنضج بعد استحسنت الفكرة ، في هذه الرحلة كان كل شيء مختلفا ، الروائح ، الأحاسيس ، صخب الأماكن ، غدت رائحة ذاك المكان الذي يقال أنه وطنك مختلفة جدا ، رائحة لا رائحة تشعبت في كيانك ؛ لتمزجي منها تركيبة عطرك الاستثنائي ، و بروح تحد مراهقة وعدت تحديك بأن تتخذيه رفيقا وحين فعلت وتصالحت مع الرائحة الجديدة تجددت معك حكايا الأشياء المتهافتة ، وأمسى وطنك في عينيك وطنا تنتمين إليه بكل أطرافك ، الماضية والآنية ، وغدا للوطن معنى ونشيد وذاكرة بانورامية على أماكن وصداقات ومسميات وروائح

أخرى ، بلا شك أحببتها وأحبتك بل دللتك في سفرتك أيما تدليل . .

في هذه الرحلة أدركت معنى الوطن الحقيقي ، الوطن الذي ننتمي إليه ونحمله معنا حيثما ولدنا وكنا ، هو الوطن عينه الذي سيشرع لنا كل أبوابه ونوافذه وشرفاته في أي وقت شاء هوانا ، حتى إن كنا متكفنين في بياض موت فإنه لن يبخس علينا بشبر من لحد يحرسنا فيه ثراه حتى أفول شمس الإنسانية وإن لم تغرس نطفتنا في تربته ، وإن خبزتها بمحبة تربة أخرى . . وفي ذكرى هذه الحادثة قرأتْ بعد مدة طالت حوارا للأديبة «غادة سمان» قالت فيه : «ثمة نقطة مضيئة أسجلها للأهل في سوريا بوجه عام ، لديهم عادة تعريف الطفل ببلادة ، واعتقد إن أبي طاف بي دمشق التاريخية منذ صغري ، ضمن إطار هذا التقليد المتوارث لتربية الأولاد ، بعد انقراض عادة إرسالهم إلى البادية لتعلم الشعر والفروسية ، لقد عرفني على الطبيعة والوطن ، والماء والنار ، العنصرين اللذين صنعت منهما مادة حياتنا بأكملها تقريبا . .»

عادة «تعريف بالوطن» في بحبوحة الطفولة ؛ يالأهميتها هو أول وأهم درس على عاتق كل أسرة مسؤولية ممارستها مع أطفالهم فحب الوطن حب يتأثث بأصالة مذ نعومة الحياة في أعطافهم . .

وفي تلك المرحلة الحاسمة ما بين الطفولة والبلوغ ناهض داخلها رائحتان متماسكتان قويتان مترابطتان محبتان عميقتان كبيرتان . . كانتا تباغتانها على هيئة سؤال وظلتا ملتصقتين بها في حلها وترحالها كمصيرين لا تنفكان عن بعضهما مطلقا : أنت عمانية أم إماراتية . .؟

وتجيب بتوضيح مفصّل تسبقها ابتسامة : عمانية لكني ولدت وترعرعت في الإمارات ومازلت مقيمة فيها . .

هويتان . . حملتهما مبكرا جدا في حياتها ، تفرعتا بهدوء حتى

نضجتا على أتم نضج ، وعلى أتم حب ، وعلى أتم انتماء . .

وطني «عمان» هو معشوق ثقيل وزنه في فؤاد الفؤاد . . في البعد يتحلى في لوعة الحنين وفي الأزمات يثقل وزن هذا الوطن يثقل حد كبرياء عاشق جفته الصحة في علل تواكبت عليه ، تواكب ما تواكب عليه وهو بعد قوي ، متماسك . . في نظر محبوبته ؛ كي لا يثقب بـ«آهة» الشكوى خاصرة قلبها قد تسقطها في نفق حزن غائر . .

وطني «الإمارات» معشوقة غالية لها حكاية معها تطول كحكايات شهرزاد ، تتأبط يدها في كل فسحة ، وعندما تفرقهما المسافات في طارئ سفر تتشابك خطوط اللهفة إليها ، لتعيدها إلى مسقط رأسها «رأس الخيمة» وكم يشعرونها أولئك العابرون بأن هذه المدينة الشامخة بتاريخها تحتويها وحدها : «مررنا بالقرب من رأس الخيمة وكانت روحك في سماواتها» وآخرون يبلغونها بطرافة : «ستزور ابنتي قريبا رأس الخيمة ، كم يسرني استقبالك لها في المطار» وهم ليسوا سوى غرباء لا تعرف عن تفاصيلهم شيئا لكنها كم تبتهج للطف رسائلهم في صندوق بريدها الافتراضي ، وهي الوفية لا للروائح فقط بل يتسامق وفاؤها الأماكن ولهذا لم يدهشها مطلقا حينما أشار - المحلل الفسيولوجي- في إحدى محاضرات تحليل الخطوط حين أمعن النظر في تركيبة حروفها قائلا لها : «ليلى ، تجدين مشقّة في مغادرة الأمكنة» لدرجة تدعوها أحيانا إلى ممازحة رفقتها الطيبين من حولها : جدوا لي منطقة حدودية تفصلني عن هذين المعشوقين المعذبين ، اللذين أجهداني في هواهما الشاسع كلوحة السوريالي «سلفادور دالي» وحياة زهرته الحمراء المعلقة ما بين لا سماء ولا أرض . .

وأعود متخوّفة انقبض من اقتراحي هذا : فماذا إن وقعت في غرام

تلك المنطقة الحدودية لتضيف ثقلها على ظهر قلبي . .!

في الكتابة من هي . .؟!

هكذا واجهتني بفلاش هذا التساؤل الكبير والمهم . . من هي ليلى في الكتابة . .؟!

الكتابة وحدها حملتهّا عدة هويات وعدة مذاهب وأديان . .

في الكتابة هي متعددة ، مجموع ، يستقيل الرقم واحد عن أصله ، في الكتابة اعتقد المصريون إنها مصرية ، وذهب السودانيون إنها شربت من نيلهم ، واللبنانيون أجمعوا على قرار لبنانيتها ، ورفيقاتها الفلسطينيات لا يصدقن سوى كونها واحدة منهن تشاطرهم نبض القدس وأكثر ، ما أكثر الأوطان التي استكانت في أعماقها متخبطة مع أتراحها وأفراحها تلك المقيدة والمحررة ، المتحضرة والمتخلفة . . . تلك وتلك وتلك . .

في الكتابة عالميون . . كونيون . . الآخرون . . كل رفقاء القلم وهي . .

صيني مع شاي كرك
وهندي مع شاي أخضر..!

حين تكون في مدينة دبي يتعاظم فيك إحساس بأنك في كل الأماكن وهذا ما أشعر به دائما حين أكون في دبي . . وهي مدينة تتميز في كونها تجامع تحت سقف واحد مختلف الثقافات والحضارات لدرجة يصعب على المرء التمييز بأنها دولة خليجية بل هي خليط سكاني متعدد الفكر والثقافات والهويات وفي مثل هذه المدن يقابل المرء العجائب وتجتمع أمامه الدهشات ويجد نفسه متعاطيا ومتلقيا ومستمتعا بها ومعها . .

ومن الغرائب التي استوقفت نظري أثناء تواجدي في هذه المدينة هو تعاطي الناس ببساطة مع كل ما هو مختلف ومع كل ما لا ينتمي إلى ثقافتهم ؛ ففي «دبي مول» رأيت رجلا من جنسية هندية يتأمل وهو مسترخي على مقعده الفراشات الصناعية البيضاء المتدلية كأسراب من قبّة السقف بينما يحتسي بهدوء راهب شايه الأخضر . . وحين عرجت على «سوق التنين» فاجأني صيني يحملق في جهاز الآي باد وهو يأكل شطائر الجبن مع كوب شاي كرك كبير . .!

ولحظتها تساءلت : ترى هل ما رأيته هو «تمازج ثقافات» أم أنه «تصادم حضارات» . .؟!

لا شك أن الانفتاح الذي يحياه العالم اليوم أحدث انقلابا هائلا

في الأفكار وفي تعاطي الثقافات بمختلف أنواعها ، دون أن نشك لوهلة أن هذا التطور يكاد يساوي بين جميع الدول فـ«لندن» كـ«دبي» و«الصين» كـ«الهند» من هنا تشكلت هوية مختلفة يتعاطى منها ومعها الجميع دون أن ننكر الحذر السائد في عملية التعاطي ، فكما هو معروف دائما العالم الغربي منفتح بشكل أكبر وأعمق على كل ثقافة جديدة تحمل معها تحديات واستحداثات جديدة ؛ فالشعب الغربي يقبل على المغامرة بهدف اكتشاف لبّ المغامرة نفسها ومراكمة معرفة جديدة على رصيدهم المعلوماتي على نقيض الشعوب العربية التي كانت في موضع متوجس ومتفرج ومن ثم متلقي حذر ومعظم الإقبال على الوسائل المستحدثة بقي لزمن بتسويغ تقليد أعمى ونتاج إشباع فضول من ناحية أخرى . .

ولكن حاليا الثقافة العربية أخذت تقبل باندفاع حقيقي وواضح على مختلف الفكر والثقافات لارتفاع منسوب الوعي والنتاج المعرفة والرغبة في التلقي دون أن ننكر مع انفتاح الحضارة الإسلامية بدأ يتدفق خوف من قبل أوروبا في استقبال كل ما هو عربي لما يحمله من نظرة إسلامية بدأت تكتسح دولهم نتيجة هجرات العرب والمسلمين . .

لعل توجس الحذر للأمم من الانفتاح عائد إلى تفاقم الشعور من فقدان ماض عريق بالأصالة أو إسقاط لقيم نبيلة يتمتع بها تاريخهم ، وهذا ما عانته اليابان حين انفتحت بعد خسائر الحرب على كل ما هو مستحدث وأمريكي توجس معظم كتابهم ودعاتهم من هذه الخطوة الجريئة في التعاطي مع هويات أخرى وهذا ما دعا أديب عظيم بحجم «يوكيو ميشيما» إلى الانتحار لاستعادة الروح اليابانية النبيلة نتيجة انجراف اليابانيين خلف العولمة . .!

لكن انفتاح اليابان تسامق بمكانتها عاليا كدولة صناعية كبرى وذات هيمنة اقتصادية فهي عرفت جيدا كيف توازن ما بين معطياتها العريقة كإمبراطورية وما بين روح العصرنة والحداثة وحققت ذلك بجسارة دون خوف أو وجل . .

على نقيض فرنسا فمعظم الفرنسيين باتوا لا تثيرهم الوسائل الحديثة ذاك الاهتمام كالعولمة والانترنت وذلك ناجم عن خوف أن هذا سوف يؤثر على مكانتهم وثقافتهم ولغتهم فهم يرون أن العولمة مرادفة اليوم للأمركة ؛ لهذا يمتعضون من افتتاح مطعم للوجبات السريعة في حيهّم . . كما أنهم حانقون على هوليود والـNN وديزني والميكروسوفت وغيرها من أشياء ليست من أصول فرنسية . .!

هنا الحداثة تغدو مثار شبهة حتى في بلد مزدهر ومتطور كفرنسا ؛ فدولة كعراقة تاريخ فرنسا تخشى من فقدان هويتها أمام تحديات هويات أخرى بدأت عن طريق الانفتاح العولمي تحتل حدودا وتصل لآفاق شتى . .

عصرنا يشهد تحديات عديدة والإنسان كائن متحول ومتغير في طبائعه وذوقه وفكره وثقافته فإذا ما كان الهنود أصبحوا يفضلون الشاي الأخضر والصينيون استعاروا منهم الشاي كرك هنا تظل المسألة حاصرة في منتج واحد مختلف في مذاقه وطريقة إعداده ولكن أن ينكّب الفرنسيون على الموالح والهريس والبرياني بالمقابل العرب يهجمون على أفخاذ الضفادع المشوية ونودلز الأندومي فهنا المسألة تكاد تكون غريبة ومدهشة ودمج وتلاقح حضاري عميق . .

واتفق مع ما ذهب إليه «أمين معلوف» في كتابه «هويات قاتلة» حين قال : «إن الانقلابات التكنولوجية والاجتماعية التي تحدث حولنا

تشكل ظاهرة تاريخية ذات تعقيد واتساع كبيرين ، يستطيع كل فرد أن يستفيد منها ولا أحد قادر على السيطرة عليها ولا حتى أمريكا . .»

وللروائي التركي «أورهان باموق» رأي عن التصادم الحضاري عبّر عنه بقوله : «أنا لا أؤمن بالصدام بين الحضارات ، فأنا أؤمن بالوئام والتواصل بين الحضارات ، فالثقافات دائما متداخلة وهذا هو الثيمة الأساسية لكتبي» . .

وأضيف أخيرا : من الجميل أن نحيا تنوعنا دون أن نفقد ذاكرة أو كرامة . .

وجه «نائل البرغوثي»
مبللا بالشمس يبتسم

«نحن لسنا إلا جنود عائدين إلى قواعدنا» عبارة أطلقها بعفوية أقدم أسير عربي فلسطيني على وجه الأرض - حسب ما ذكر موسوعة غينيس - «نائل البرغوثي» وقطعا لا تهمنا لغة الأرقام ولا موسوعة غينيس؛ لأن حساباتنا تختلف عن حساباتهم فهم يهرعون خلف «أطول» أو «أكبر» كأرقام . . القوة والعظمة ليستا في ضخامة الشيء ففي موسكو تم بناء أكبر جرس عام ١٧٣٣م ويقدر وزنه بحوالي مئتي ألف كيلوغرام، لكن ذلك الجرس لم تصدر عنه حتى رنة واحدة، فقد تكسر خلال صنعه بفعل الحرارة، إن ذلك الجرس الضخم بقي مجرد عملاق كسيح وأخرس لكن الرشاقة وفصاحة الرنين كانتا من نصيب الأجراس الأصغر؛ بينما نحن نلهث بلغة حساباتنا خلف كم مرة كان وجبة وحشية، كم مرة طالع الشمس، كم مرة نام بلا ضجيج السجان، كم مرة استنشق هواء نقيا بل كم من يوم مر عليه بلا وجع في الروح وعطب في الجسد، ولا نهاية لتلك التساؤلات المتكتلة حيرى في أعطافنا ونحن أمام أسير قضى أربع وثلاثون عاما في زنزانة إسرائيلية، وأشدد على لفظة إسرائيل بالتظليل وبالخط الأحمر فجلنا يعرف جيدا مواصفات زنازينهم . .؟!

«نائل البرغوثي» عميد أسرى الفلسطينيين والعرب ساقته الأقدار

إلى السجون الإسرائيلية بتاريخ ٤ / ٤ / ١٩٧٨م ، حين كان شابا يافعا في ١٩ من عمره ، وحتى هذه اللحظة في ٥٥ من عمره أي نخرج بحصيلة ٣٤ عاما . . فكم من زمن ما بين «قبل» و«بعد» . .؟! وضمن صفقة «وفاء للأحرار» سوف يشم لأول مرة هواء العالم خارج تلك العلب الضيقة التي اختزلت حاسة شمه طوال تلك السنوات المتعثرة من علبة إلى أخرى مصاحبا معه إرادته القوية وعزيمته السامقة وحبه اللامحدود للوطن مقتفيا آثاره – دون شك – قيود الذل الإسرائيلية وسلاسل التعذيب المستمر . .

وحينما يخطو لأول وهلة على أرض الحرية بعد الأسر فمن يا ترى ينتظره ومن يتوق له ، وأكاد أتخيل قائمة منتظريه . . أمه غادرته في عام ٢٠٠٥م وقد سبقها والده عام ٢٠٠٢م ، وتلك الأم كانت تؤمن بخروجه مهما طال الزمن إنه قلب الأم ساعة ينبض بالأمل ، فتركت له نصيبه من مصاغها الذهبي لعروس بكرها «نائل» وأغنية في عنق نساء القرية كي ينشدنها له يوم فرحه لكن أعظم ما خلفته له الأم هو الوطن ، فأمه الوطن وأباه الوطن وأخوته الوطن ، زوجته الوطن وأبناؤه الوطن وأحفاده الوطن بل عمله ورفاقه وأحلامه ورصيده في هذه الحياة جلها ملتصقة بمفردة «الوطن» . . هذا هو «نائل البرغوثي» وبياناته الشخصية الذي حجز شابا ليعيدوه إلى وطنه رجلا خمسينيا ، أبهة لا تليق سوى بوطن وهي المفردة الحقيقية والوحيدة التي عاشرها البرغوثي في خلال ذلك الماضي حتى لحظة الإطلاق ، وهؤلاء هم «الوطن» حقا . . هم من عرف جيدا قيمة الوطن والتضحية في سبيله ، أدركوا معاني الكرامة والحرية والمطالبة بحق الإنسانية والرفض الكلي والتام لأي خدش يعلو أرض الوطن ، فأمعنوا النظر إلى «نائل البرغوثي» إلى

قلبه وعقله وحواسه فهي وحدها تختزل المعنى الكلي والشامل لحكايا الوطن . .

سوف يخرج . . فأي وجبات سوف يستسيغها ذوقه بعد وجبات الاعتداء الوحشي الصهيوني . .؟ وفي فترة ما تعدى السجان الإسرائيلي على البرغوثي بالضرب المبرح ؛ لأنه احتج ورفض عمليات التفتيش العارية التي اعتادوا على القيام بها بين حين وحين ، فما كان منهم حين تناهى إليهم احتجاج نائل الرافض إلا أن اعتدوا عليه وزجوا به في سجن إنفرادي فصخب السجناء احتجوا وداسوا العلم الإسرائيلي بأقدامهم المكبلة ويومها قال نائل : «إن على إدارة السجون وإسرائيل أن تدرك جيدا أن القيود التي تكبل أيدينا لن تجعلنا نرفع راية الاستسلام سنبقى عند حسن ظن شعبنا الذي نستمد منه العزيمة والإصرار والكرامة وإن سلبونا الحرية فنحن أحرار رغم القيد . .» .

«نائل البرغوثي» أسير بهذا الحجم حتى سيرته الشخصية لا تطالعها كما كنت تطمع بسهولة من موسوعة ويكيبيديا التي لم تسقط من سيرها الفضفاضة «جلعاد شاليط» بوزنه الإسرائيلي رغم فارق مدة السجن التي قضاها خلف القضبان مقارنة بأسيرنا العربي البرغوثي . .! وما هو سوى دليل آخر وما أكثر الأدلة على خذلان قادة العرب دليل كاشف يستشف عن حقيقة هؤلاء القادة الذين ما كان همهم سوى المناصب والكراسي وشغل شعوبهم بالتناحر والخلافات في حين إسرائيل تصنع المعجزات وتستدعي ما هو مستحيل ؛ كي تستعيد أسراها من السجون الفلسطينية وكان رأسها صفقة شاليط الذي خرج مقابل ١٠٢٧ فلسطيني . . وقد تندر البعض على هذه المعادلة غير المتوازنة في الصفقة عن واحد مقابل الألف وفوقها أنفار أخر ؛ ولكن لا

لوم إذا ما كان العربي وداخل دياره ووطنه دمه غدا رخيصا جدا بمعية سلاطينه فما هو سوى «جرذ» و«جرثومة» ونعات أخرى لا تمت إنسانيته بصلة . .!

قضية أسرى فلسطين هي ليست قضية فلسطين وحدها بل هي قضية كل العرب ؛ لأن الهم الفلسطيني واحد والعدو نفسه الذي نكأ الويل جميع العرب ومازال دسائسهم المسمومة سارية حتى اللحظة . .!

سوف يخرج الأسير «نائل البرغوثي» وهو لا يحمل في ذاكرته سوى طاحونة جدته التي احتفظ بها أهله كتذكار فكم كانت عزيزة عليه كرائحة جدته مع لوحة ورقية بريشته واختزل بها حكاية طاحونة الجدة . .

ولهذا إن أبسط ما يمكن تقديمه لأسير حافل بتاريخ باذخ وبثقل تراب الوطن هو أن يهبوه حياة يستحقها كمناظل حر ، فنى أهم وأروع وأفضل سنوات عمره في مقابع إسرائيلية ، إن أقصى ما يقدم له هو توفير كافة سبل المعيشة والراحة له مع تنصيبه على مركز يستحقه وتضحيته الغالية رغم أنه في غنى عن المناصب فلا يمكن أن يرتقي أحد المنصب الذي حصل ووصل إليه «نائل البرغوثي» بدم روحه وتضحيته كأقدم أسير عربي أبيّ النفس والعزة والكرامة ، إنه بطل حقيقي وفارس نبيل بلا شك . .

إن أقصى ما يقدم له جائزة باسمه أو شارع أو مدينة كاعتراف نبيل من أرض عرفها جيدا وعرفته ، تمنح له باستحقاق في حياته وليس حين مماته ، فما انتهجت عليه دولنا العربية للأسف ولهم فيه باع طويل ممتد في تكريم الموتى . .!

وختاما نقول : ليت «حماس» زوجت شاليطا لفقست زوجته

شلاليط أخرى كان من الممكن جدا استبدال هذه الأسرة الإسرائيلية المكتملة بكل سجناء أسرى الفلسطينيين ، كما عبرت بطرافة مذيعة قناة الجزيرة «خديجة بن قنة» تعليقا على الصفقة : «سامحكم الله يا حماس ؛ لو خطفتم جندية إسرائيلية «شاليطة» وزوجتموها لشاليط منذ خمسة أعوام ؛ لكان الآن لديكم سبع شلاليط ، وعندها نستطيع إخراج جميع الأسرى في سجون الاحتلال» . .

والمهمة لم تنته فما أفرزته هذه الصفقة ما هي إلا بشارة بتحرير جميع الأسرى وأرض الأسرى ، فالزمن على ما يبدو ضد إسرائيل والجبهات تخر من ثقوب السنون والجهات تضيق وما على الفلسطينيين سوى رؤية الأمل والمستقبل من وجه «نائل البرغوثي» وبقية الوجوه الآسرة بسيرة العزيمة والكفاح والتضحية . .

كائنات تحت الصفر..!

أن تغـدو فـردا في وطن لـك مـا للآخـر من جسـد مـوصـول بعـقل وقلب وشرايين دموية ورئتين لضخ الأكسجين وكبد وطحال . . . لك ما للآخر تماما لكن إنسانيتك ليست كإنسانية الآخر فأنت مجرد كائن تحت الصفر ، لا تملك أساسيات العيش كأي بشري سويّ ، تأتي إلى الحياة بلا شهادة ميلاد وتغادرها إن طال بك العمر المرير بلا شهادة وفاة ، بل أنت كائن خارج قانون التملك فلا يحق لك بامتلاك منزلك الخاص ولا يحق لك كأي كائن أن تحلم ببناء أسرة وأطفال محلقين حولك ينادونك بابا ، ليست لديك رخصة قيادة ولا شهادة تعليمية ولا بطاقة صحية ولا وظيفة تشعر من خلالها بكيانك ، وحبيس في سجن كبير يدعى وطن ولدت وشاخت تفاصيل حياتك فيه ولكنه لا يعترف بوجودك ولا حقوقك ولا إنسانيتك كل هذا وأوجع ؛ لأنك كائن لا تحمل ورقة تدعى «هوية» أو كما يحلو للبعض «جنسية» . .!

ياللعار . .! هل غدت الأوراق هي التي تحدد إنسانية الإنسان . .؟! هل بمجرد عدم امتلاك الإنسان تلك الورقة يعني أنه كائن خارج حدود الحقوق الإنسانية بالمعنى الأعمق بلا أحلام ولا طموحات ولا تطلعات فقط كائن يحيا في ترقب أبدي طال أم قصر ؛ لتهبط عليه رحمة من يملك زمام القرار وتلك الرحمة تستحيل حياته إلى جنة على الأرض

وإن اعتكفت تلك الرحمة عينها فجحيم وساء سبيلا . .؟!

هذه الكائنات متواجدين في «الإمارت» و«الكويت» وعلى استحياء في «السعودية» ولفيف هنا وهناك ، الألقاب التي تحملها هذه الفئات أشهرها «البدون» وبعض الدول استحدثت المعنى إلى «محددي الجنسية» ثم تسمية «لا يحمل أوراق ثبوتية» . .!

في الإمارات قبل قيام الاتحاد وجدت قبائل لا تحمل جنسية ، ولكن مع قيام الاتحاد معظم تلك القبائل قدمت طلبها للحصول على الجنسية والبعض تراخى ؛ لأن في ذاك الوقت لم يكن الوعي الشعبي عميق ولم تكن تلك الإنسانية في تلك الحقبة تعي أهمية أن يكون للمرء ما يدل على انتمائه إلى أرضه ولهذا بعض تلكم القبائل إلى اليوم لا تحمل أوراق هويتها هذا من جانب ومن جانب آخر ضمن هذه الفئة تداخلت مشكلة البدون الذين يندرجون تحت أقسام عدة ، فمنهم من يمتلك جواز سفر ومنع من تجديده ، ومنهم أبناء المواطنات المتزوجات من غير المواطنين ، ومنهم من أقام في الدولة قبل الاتحاد وليس لديه أوراق ثبوتية ، والكثير منهم تسللوا إلى الدولة في التسعينيات واخفوا جوازاتهم . .

أحوال البدون في دولة الإمارات تكاد تكون متأرجحة بل تتفاوت من إمارة إلى أخرى وبعض الإمارات منحت فعلا بعض البدون جوازات ولكن دون جنسية لأن منح الجنسية خارج اختصاصها ، ولكن تلك الجوازات التي تم منحها وقف إصدارها لأسباب غير معروفة ، ثم جاءت منح جنسية وجواز لفئة من البدون ممن عاشوا في الإمارات قبل الاتحاد وأعمارهم تفوق ٣٥ سنة ، وهنا استبشرت الفئات الأخرى وظلوا على أمل صدور قرار يعترف بوجودهم ، ولكن الآمال ما تزال مترنحة

مذ ذلك الحين وطال الانتظار وتعطلت الأمور واستصعبت طرق العيش بلا وظيفة ولا رخصة قيادة وتعقيد عقود الزواج والطلاق ومنع السفر، حتى ظهر قرار جديد يطالب كل فئات البدون في دولة الإمارات بما يسمى بـ«تحسين الوضع» وذلك بإصدار جواز دولة «جزر القمر» ومنحت الإمارات حوالي ٢٥٠ مليار دولار لهذه الدولة ؛ كي تمنح جوازها لفئة البدون وكما قيل خمسين ألف درهم عن كل رأس . .!

وكانت الخيارات صعبة فإما حصول على جواز دولة جزر القمر أو فصل من الوظيفة، اليأس والإحباط والخوف من فقدان لقمة العيش هي أهم أسباب التي دفعت معظمهم إلى الرضوخ للأمر، أما كبار السن فكانت فريضتي الحج والعمرة هما أهم سببين لإصدار جزر القمر من أجل تحقيق حلم الحج إلى بيت الله خاصة بعد فقدانهم بارقة الأمل في الحصول على جنسية الدولة . .!

دون أن نسقط أن أحوال البدون في فترة ما قبل أواخر التسعينات كانت جيدة وعوملوا كمواطنين وكإنسانيين في الإمارات حيث وفرت لهم الدولة المدارس والصحة والوظائف ومنحت بعضهم الجنسية، ولكن ربما عندما تكاثرت هذه الفئة وتفشت وجاء من هب ودب وأخذ يسمي نفسه البدون هو ما أوقف كل تلك المنح دون إسقاط مسؤولية الدولة في تفشي ظاهرة البدون مع الزمن، حيث كان عدد البدون في البدء ضئيلا ثم مع مرور الزمن تكاثروا إلى عشرة آلاف واليوم يفوق أعدادهم المئة ألف . .!

ولأن أحوال البدون في الإمارات متفاوت من إمارة إلى أخرى، فهم أفضل حالا من الكويت فحالة البدون الحرجة جدا هي التي دفعتهم إلى رفع حناجر مطالباتهم في مظاهرات لضخّ حقوقهم

الإنسانية في أرض لم يعرفوا غيرها منذ وقت طويل ، وهذه الأصوات المتجمهرة حصدت حصيلة احتشادها في الكويت فمن فترة قريبة أعلن وزير الداخلية الكويتي الشيخ «أحمد حمود الصباح» عن منح بعض فئات البدون الجنسية وحددهم بأربع شرائح هم العسكريون والذين يثبت وجودهم في الكويت أثناء إحصاء ١٩٦٥م ، إضافة إلى أقرباء الكويتيين وأبناء المطلقات الكويتيات . .

أما دولة الإمارات فمع احتفالات الأربعين لاتحاد الإمارات السبع صدر مرسوم من رئيس الدولة بتجنيس أبناء المواطنات بدءا من سن ١٨ . .

هذه الخطوات مباركة وجيدة دون شك من قبل الدولتين ، ولكن ماذا عن الفئات الباقية سواء في الإمارات أو الكويت . .؟! هل ثمة أمل في تجنيسهم مع مرور الزمن . .؟ هل ثمة حلول فعلية لإغلاق ملف البدون . .؟ ومتى سوف يحين ذلك . .؟!

استفهامات حاشدة في زمن الحريات والمطالب والعدالة وحقوق الإنسان ، إن أبسط حقوق الإنسان اسم ووطن وجنسية ؛ ليشعر بمعنى الانتماء ويتطور منها إلى انفعال أعمق وأشدّ أهمية هو الشعور بـ«الأمان» . .

ربما تكون هناك فئات عربية غدت من فئة «البدون» بين يوم وليلة ، وربما هناك آباء كانوا يحملون وثائق ثم تخلوا عنها أو أتلفوها أو كانوا متسللين في التسعينيات ثم أخفوا جوازاتهم ، ولكن المرارة والوجع وغياب أبسط الحقوق الإنسانية تحملها الجيل الجديد اليوم ، فهم ضحية آباء أو أجداد لم يعوا أهمية الجنسية أو هوية أوطانهم السابقة ، وضحية دولة سوّفت القضية حتى كبرت وأصبحت متجذرة . .!

حكاية شائكة ولا سبيل للهرب منها أو تنحيها جانبا دون حل كل التسويفات والمظالم الواقعية سقطت كقذيفة على هامة الأجيال الحديثة التي لم تشخص أعينها سوى الأرض التي ولدوا عليها ، ولم تشتم أنوفهم سوى أكسجينها ، ولم تمش أقدامهم سوى على رمالها ، إنها مشكلة عويصة تحتاج إلى حل فعلي وصارم دون التلاعب بفئة عريضة من البشر الذين أشجبوا آمالهم وأحلامهم على أمل شاخ مع مرور عبء الزمن ، كل طفل من البدون اليوم يكبر ويسأل بصمت . بصخب . بهدوء . بانفعال - مهما اختلفت انفعالات السؤال - يظل مندفعا من حنجرة متشظية بوجع مرير : من أنا . .؟!

امنحوا الأبناء هؤلاء الذين ولدوا في أرضكم ، هذا الجيل الجديد عبارة عن طاقة هائلة ، وهم صنيع أرضكم ليست أرضا غريبة أو مهجرة ، هم ثروة لا تقدر بثمن ، امنحوهم مفتاح الأمل والطموح وأحلام تثمر أول ما تثمر في دياركم . .

ارحموا إنسانية «كائن تحت الصفر» في زمن حتى الحيوانات غدت لها حقوق في الهوية والتوريث والعلاج والصحة وترف الحياة وكفى . .!

هاشل: «بلى تستطيع ذلك»..

يقول «باولو كويلو» : «احتمالية أن تجعل حلمك حقيقة هو ما يجعل الحياة ممتعة . .» ويقول أيضا : «كلما اقتربنا من تحقيق أحلامنا أصبحت الأسطورة الشخصية دافعا حقيقيا للحياة . .»

لا يوجد إنسان في هذا العالم ليس له أحلام . . مهما غدت تلك الأحلام كبيرة أو صغيرة . . قريبة أو بعيدة . . ممكنة أو مستحيلة . . فالخيال مولّد للأحلام والإنسان تواق ومتلهف دائما نحو بلوغ مسافة أحلامه والاحتفاء بها والكابوس الحقيقي حين يبقى الإنسان بلا حلم أو يكون فارغا من الأحلام . . ويذكر أن حكيما صينيا عزم الانتقام من عدو له ، فدأب على تحقيق كافة رغباته وعمل على توفير جميع الأحلام التي تاق لتحقيقها أو الحصول عليها . . وحين لم يبق للعدو شيء يطلبه أو يشتهيه فرغ قلبه من الحياة كليا ، فلم يطق هذا الفراغ المهول الذي سقط في هوته ، ولهذا لم تمر أيام قليلة حتى غادر الحياة كئيبا وبائسا وفارغا . .!

وكم من إنسان فنى في مجتمعاتنا العربية ليس لأنه بلا أحلام بل لأن أحلامه ردمت في جوفه قبل أن تنمو . .؟! هناك كثيرون لهم أحلام ولكن هناك أيضا من يمنع هذه الأحلام من أن تتحقق في واقع جميل . .؟! ففي مجتمعاتنا الخليجية والعربية هنا لديهم هواية تحطيم

الأحلام ويجدون متعة كبيرة في تكسير الطموحات . . هنا على الإنسان الحالم أن يذم حظه العاثر ، ولهذا يهرب آلاف العباقرة إلى الخارج إلى قارات ودول تستوعب عقولهم وأحلامهم وطموحاتهم . .!

هذا عن الانسان العاقل الذي يجد حيلة في الهرب . . أما الذي لا تمكنه ظروفه من الهرب فأمامه درب شاق كي يصل إلى كوة أحلامه . . أما الإنسان المريض أو الذي يعاني من إعاقة فإن إعاقته الكبرى والأشد مرارة هو «المجتمع» عدوه الأول والذي يسعى سيرا حثيثا إلى غلق الأبواب في وجهه وإعاقة أحلامه وإعاقة محاولته في أن يكون إنسانا طبيعيا . . إلى إعاقة كل محاولة له في الحياة . .!

الإنسان الذي لديه إعاقة في مجتمعاتنا العربية عليه وعلى أهله ومن حوله أن يدفعوا ثمن إعاقته وكأن هو من سبب لنفسه الإعاقة وهو من قدّرها على نفسه . .! هكذا يفعل المجتمع بهم حين يرفضهم وينبذ أحلامهم ويرفض كل طريق تفتح لهم . .!

لماذا كل تلك المقدمة وهل أنا أضخم سرد الواقع . .؟! خلال هذه السنة تحديدا كلنا عرفنا بحالة الشاب السعودي «عمار بوقس» الذي من خلال شبكات التواصل الاجتماعية استطاع أن يوصل للعالم العربي حكاية مشواره الشاق في مجتمع رفض فيه لأن لديه «إعاقة» فلاحقته سلسلة من الصعوبات في دخول المدرسة والجامعة حتى حصوله على الوظيفة . . وحكايته لا تختلف عن حكاية شاب عماني في مقتبل العمر يدعى «هاشل» والتي فجرت أيضا منذ فترة قريبة عبر وسائل التواصل الإجتماعية و«هاشل» لديه إعاقة مذ كان في الثالثة من عمره ولديه شقيقتان لديهما إعاقة أيضا ولكن بدرجة أقل منه وتلكم الشقيتين أكملتا الدراسة حتى وصلتا مرحلة حصول على

شهادة ماجستير في مجال الحاسوب وبدرجة إمتياز و«هاشل» الشاب حين رأى أختيه ورغم الصعوبات أكملتا دراستهما حفز ذلك فيه إرادة قوية كي يكمل الدراسة وعزمه كان واضحا ، فعلى الرغم أنه يعيش مع أهله في الإمارات قرر أن يكمل لنيل شهادة الثانوية العامة في بلده عمان كي يتمم إجراءات دخول الجامعة . . ولكن وكما يقول القول الشائع : «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن» . .! فالشاب الطموح وصاحب الإرادة والعزيمة «هاشل» رفض طلبه من قبل أكثر من جامعة . .! و جامعة أخرى حصرته في تخصص واحد فقط هو الشريعة ؛ بحجة إعاقته مع تبريرات كثيرة أبرزها أن مرافق الجامعة لا تسمح بذلك . .!

كأن هذا المجتمع يوحي للإنسان الذي لديه إعاقة على أن يدفن نفسه في تابوت ويغلق على نفسه جيدا . .! ولا اعتقد بأنني أبالغ في توصيفي فواقع الحال كاشف للجميع . .!

ولا أدري من هؤلاء . .؟! بل من نحن كي نقرر عن الآخرين حياتهم وكي نملي عليهم ما نراه نحن . .؟! من نحن حتى نقرر أن ذاك الإنسان يصلح أو لا يصلح سواء أكان موفور الصحة أو يعاني من عطب ما . .؟!

هل يعلم محطمي الأحلام ماذا تفعل كلمة تشجيع واحدة . .؟ هل يعلمون مدى تأثير التحفيز على قدرات الإنسان التي لا حدود لها والتي وظفها الله - عزوجل - عند جميع بني البشر . .؟!

لا يوجد إنسان في هذا العالم لا يستطيع . . الجميع يستطيع أن يفعل طالما هناك إرادة وعزيمة وعندما تنتفي الإرادة فإن فعله لن يفعل بتأكيد . . لكن أن تتوفر الإرادة الحقيقية مع إنسان يراه المجتمع أنه لا

يستطيع فيمنعه بشتى الطرق والحجج والتبريرات المحبطة فهذه جريمة كبرى في حق هذا الإنسان ؛ لأنه يريد ولكن إرادته مقيدة بسبب الآخرين . .؟!

لماذا السعي الدائم إلى خلق فئات مهمشة في مجتمعاتنا العربية . .؟! تلك الفئات التي يتم تهميشها غالبا من لديهم إعاقات في بعض المجتمعات . . حيث لا يكتفون بتهميشهم ، بل إنهم يخلون مسؤوليتهم عنهم وعن حقوقهم . .! هؤلاء فئات عديدة ليسوا شراذمة قليلة ، ومن حقهم أن يمارسوا الحياة وعلى الدولة أن تقوم بتوفير كافة مستلزمات الحياة لهم كما توفرها لأي مواطن في الوطن فهؤلاء أيضا لهم حقوقهم . . لكن الأهم من كل ذلك هي كلمة «نعم» التي لها مفعول السحر . . هذه اللفظة بحروفها الثلاث هي من تفتح لهم أبواب المستحيل وتحوّلها إلى ممكن . . هي التي تنتشلهم من مستنقع الإحباط والكآبة والإحساس بالدونية إلى حياة مضمخة بالتفاؤل والأمل والإستمرارية وتحقيق الذات ما يسمى بـ«الأسطورة الشخصية» فهل نحن – مسؤولين – كفاية لندرك تأثيرها الفعّال . .؟!

ماذا سنخسر . . بل ماذا سيخسر هذا المجتمع حين يقول لمن هم بمثل حالة «هاشل» : بلى تسطيع ذلك . .؟

هاشل : بلى تستطيع دراسة الحاسوب . . حلمك الأجمل . . بلى تسطيع ذلك . .!

وهناك آلاف كـ«هاشل» في قائمة انتظار أحلامهم أن تنتشلها معجزة لفظة «نعم» أحلام بسيطة كمقعد في مدرسة أو جامعة أو وظيفة . .!

مونولوج عابر عن
ثورات الربيع العربي..

سأتحدث في هذه المقالة حديثا نابعا من الذاكرة وما تمخضت به عبر متابعة أحداث الربيع العربي الذي يكمل عامه الثاني في بعض الدول العربية وأخصص بالحديث «مصر» و«تونس» ؛ لأن بذرة الربيع كانت سباقة فيهما ولأن شجرة الثورة بدأت تتشكل في الوقت نفسه تقريبا . .

كما هو معروف استلم السلطة في كل من «تونس» و«مصر» إسلاميون فقد تولى حزب النهضة سلطة الحكم في تونس وتولى حزب الحرية والعدالة سلطة الحكم في مصر ، وقد نصبت كلا السلطتين بشرعية انتخابية من قبل شعوبها وإن انقسمت هذه النسبة ما بين مؤيدين ومعارضين وما بين محايدين . .

وفي الوقت الراهن بمتابعة مجريات الأحداث في كل من «مصر» و«تونس» نرى أن هناك مظاهرات جارية في شارعهما بل هناك اعتصامات واسعة ومطالب شعبية ، أما في «تونس» نتيجة ما تمخضت عنه سياسات حزب النهضة الإسلامية . . وأما في «مصر» ففتيل الاشتعال من المعارضين جاء على خلفية رفضهم للإعلان غير الدستوري الذي أقرّه الرئيس ، إذن شعوب الربيع في كل من «تونس» و«مصر» ما يزالان يفتقدان الأمان والسلام في أوطانهم . . وهذا بدوره

جعلنا نجري أشبه ما يكون بتحاور نفسي مع بعض أفكار متلاطمة في عقولنا أو ما يسمى بـ«المونولوج» . .

ما يحدث في «مصر» و«تونس» حاليا من تشابك واعتصامات يحيلنا إلى مسألة «السلطة» التي يريدها الشعب ومسألة «الشعب» الذي تريده السلطات . .

ما يحدث في «مصر» و«تونس» هو العودة إلى الدائرة الأولى «السلطة» التي فشلت في اختيار أسلوب المناسب للشعب بكافة أطيافه . .

إذن هل يصلح هذا التفسير بأن «السلطة» نجحت فقط في سلب عواطف الشعب بكلامها المعسول عن العيش والحرية والكرامة الإنسانية والنسبة الهائلة من البسطاء المعدمين الحالمين صدقوا ذلك ونامت مع أحلام وردية . .!

وهذا بدوره يمخض عن سؤال بدهي يتوافق والأحداث الجارية : اللوم يقع على من . .؟! هل على «السلطة» التي لحست العقول البسيطة بآمال عريضة أم على «الشعب» الدراويش الذي فاق من حلمه على صدمة واقع مشابه وعلى مبدأ «لدغ من الجحر مرتين» . .؟!

لا تنسوا ارتفاع نسبة التخوين وانقسام الفرق بعدما كان معظم الشعب فريقا واحدا تجاه معارض واضح والذي لا يمكن إسقاطه من الحسبة وهنا الخطب ، فهل هو سقط واقعا أم رمزا . .!

بعدما كان الصراع على إسقاط الطاغية تفشى صراع آخر وهو إسقاط فريق الطاغية مع طاغية منتخب الذي شارك في إسقاط الأول وكل معارضة تصنع طاغيتها . .!

الطاغية الحقيقي لم يسقط وهو من يصنع البلبلة حاليا وعلى من

حل محله أن يكسب ثقة الشعب كي ينال شرعيتهم ولن ينالها دون حسن نية يبذلها واقعيا . .!

وعلى حشد المعارضين أن يضعوا أمام أعينهم كفة «الوطن» وليس مصالحهم الشخصية والسياسية البحتة ، فهناك شعب بسيط يريد أن يحيا باستحقاق وضجر من قائمة الوعود . .!

الواقع متغير وكل سلطة تغلب مصلحتها على حساب شعوبها فلن تفلح وتكون مرهونة بالسقوط عاجلا أم آجلا . . غدت السلطات هي أيضا مراقبة من قبل شعوبها ، فهذا العصر يثبت لنا أنه ليس من السهل أن تكون رئيسا لسلطة ؛ فالوعي الشعبي أصبح يقظا ويمارس دوره الفعال في المحاسبة والمطالبة بحقوقه . .!

وسائل التواصل الاجتماعية هي المنافس الأكبر التي تنغّص على كل سلطة مستبدة في إخضاع شعوبها وفق وسائل عتيقة عفى عليها الزمن . . الوعي عدو الأكبر للطغاة ، فقط السلطة الحكيمة والعادلة والمسؤولة تحرص دائما على بث الوعي الفعال في روح شعوبها لمزيد من التطور والنماء والرقي . .

وعلى نحو تخصيص يمكن أن نقول بأن المرحلة الحاسمة في «مصر» ستتشكل فعليا على من يفوز في الانتخابات البرلمانية القادمة المقرر إجراؤها في فبراير المقبل . . فلو حقق الإسلاميون فوزاً آخر في تلك الانتخابات فإن هذا الفوز قد يعزز قوتهم في حين أن فوز المعارضة يمكن أن يحول دون ذلك . .

أما في «تونس» فعلى الحكومة المؤقتة أن تسعى سيرا حثيثا لطمئنة فئة الشباب وكسب ثقتهم من خلال توسيع الاستثمار الاقتصادي وبالتالي توفير فرص عمل كي تمهد الطريق أمام الحكومة

التي ستنتخب خلال الصيف المقبل . .

الواقع العربي اليوم يعبّر عن رؤية مهمة جدا تسري على جميع دول الوطن العربي بأن ثقة الشعوب بحكوماتها ما تزال متأرجحة ويستدعيها وقت حتى تمنح ثقتها المنشودة في زمن سقط فيه سلطة الحزب الواحد و الفكر الواحد والصوت الواحد . .!

كيف انتقّم من عدوّي..؟!

كم أغبط اليابان . .!

دولة الحضارة والفكر والحداثة والتطور والقيم والنبل . . كم أغبط اليابان على روح تسامحها وعلّوها على سوقية الانتقام والتشفي مما لحق بها جراء الحرب العالمية الثانية ؛ فاليابان بعد الهزيمة أصبح همها الأول وغايتها العظمى هو أن تنهض وتلحق بركب الأمم العظمى فاختارت العلم وسارت نحو المعرفة سيرا حثيثا ؛ لأنها تعي أن العلم والمعرفة وحدهما يصنعان حضارة ورقي الأمم ، فبعد شهر واحد فقط من إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما ، معلم وتلامذته يعودون إلى أقسام الدراسة في العراء ، لم يكلفوا أنفسهم عناء جمعٍ أحقادهم وبغضهم وكرههم للدولة التي قتلت شعبهم ، لم يعلنوا حرباً مقدسة باسم إلههم لأخذ الثأر والقصاص ، لم يلتفتوا حتى إلى الماضي بل أخذوا العبرة واتخذوا من الهزيمة تحديا وانطلقوا في البناء من الصفر . . اجتهدوا وتفانوا حتى أصبحوا ما هم عليه اليوم من نقدم وحضارة يشهدها التاريخ الحديث . .

من هنا يطفو إلى السطح مبدأ مهم من مبادئ بناء أي دولة من جديد بعد هدم نظام بائد ألا وهو مبدأ «التسامح» لنبني دولة عصرية ؛ فلا يمكن البناء مع التشفي وروح الانتقام ، والعقل الناقمة لا همّ لها

في الدنيا سوى الانتقام من أعدائها وحين يغلب ذلك ويسود المجتمع ، فإن التأخر هو وحده سرعان ما سيطال هذه الأمم . .!

وإذا ما رجعنا لقراءة التاريخ فلسوف نصادف مواقف عظيمة لزعماء في التسامح الروحي الشامل تجاه أعدائهم ولعل أشهرهم «نيلسون مانديلا» فهو لم يصفي حساباته مع سجانيه ولم ينكل بكل من ساند التمييز العنصري ، ولم يلحق الأذى بأي كائن تعرّض له أو آذاه ، بل على العكس لقد صفح عنهم ، ولم يكتف بالصفح عن مضطهديه بل حرص على القيام بزيارة أرملة رئيس الوزراء السابق «فيroود» الذي كان أحد مهندسي التمييز العنصري ، لكي يقول لها إن الماضي طويت صفحته وإن لها هي أيضا مكانة في أفريقيا الجنوبية الجديدة . .

وإذا ما تأملنا في حضارتنا الإسلامية في عمق تاريخ العرب سندرك أن الحضارة الإسلامية كان من أهم دعائمها هو مبدأ «التسامح» وهو ما أعلنه أول من أعلنه نبينا محمد - ﷺ - فحين فتح المسلمون مكة توقعوا أنهم سوف يعاقبون كفار قريش ، أولئك الذين آذوا رسول الله وتعرضوا له ووصفوه بأبشع الصفات وحاولوا قتله ، ولكن رسول الله يومئذ خاطب قريش قائلا لهم : «يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم . .؟» قالوا : «خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم» قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : (لا تثريب عليكم اليوم) اذهبوا فأنتم الطلقاء «من هنا انبثق شمس الإسلام ليعّم أرجاء المعمورة . .

ما أحوجنا اليوم إلى مبدأ «التسامح» . .!

ما أعوجنا إلى إرسائه بقين وإيمان حقيقي في زمن ثورات الربيع

العربي أن نتجاوز عن أحقادنا وأن نصفح عن أعدائنا وعن ماض تليد ؛ فلكي نبني حضارة راقية تليق بمستوى أوطاننا علينا أن نتجاوز عن أحقاد الماضي العتيق وعلينا أن ننسى ما تعرضنا له من ألد أعدائنا ، فالرغبة في الانتقام والرغبة في البناء لا يجتمعان على أرض واحدة وكذلك في نبض واحد وفي روح تأتلق في زخم السلام . .

وقد سأل رجل أحد الحكماء مرة : «كيف انتقم من عدوّي . .؟

فرّد عليه الحكيم : «بإصلاح نفسك . .! »

غرفة المفاعلات النووية

حين يتحرك رأي العام من أجل كلمات ؛ فاعلم بكل حواسك أن الكلمة جرحها . عمقها . فعاليتها . . أكثر تأثيراً من أي سلاح نووي عبر التاريخ البشري . .!

حين يكون الحاكم مثقفا..!

عرفنا مما عرفنا والأنباء بهولها العالمية منها والمحلية بفرعيهما الفضائي والأرضي تشع حول رجل نال عن استحقاق ألقابا متكاثرة كالجراد، وأشهرها في هذا العام هو لقب «أكثر شخصية دكتاتورية دموية لعام ٢٠١١م» . .!

ولا أدري لِمَ نوبل لَمْ تخصص لهؤلاء المستثنين في أفعالهم، جوائزها المعترفة بها في أصقاع العالم . .؟! فكم هؤلاء أحوج من غيرهم بكثير لمثل هذه الجوائز التي تنفخ مقاديرهم الحقيقية في قلب الجمع، فذاكراتهم تثمّن الأمور بالكسب الثقيل، واللقب الأعلى، والجائزة الأعم . .!

عرفنا فيما عرفنا أن العقيد «القذافي» بعد أن احتشد وجرّ خلفه ما جرّ من أعجب وأعلى الألقاب رنينا في الكون الشاسع، لم يكتف بما أضافته إليه ماضي تلك النياشين، ولم تشفع طموحاته كتاب واحد رغم قدسيته المدعو بجلال قدره «الأخضر» فها هو يفتح النار على وجه مشتعل من جوانبه التي ألهبها أكثر بقنابل وصواريخ ومدرعات موجهة فوهتها لفم الشعب الليبي العازل بشبابه وشيوخه ونسائه وأطفاله الرضع، ها هو اليوم يذّكر العالم أنه كان «كاتبا مثقفا» فلقد قدم للعالم في عام ١٩٩٣م كتابه القصصي المعنون بـ«القرية . . القرية . .

الأرض . . الأرض» لاحظوا أن اسم المجموعة طنانة على وزن كلماته الشهيرة «زنقة زنقة . . شبر شبر» هذا الكتاب الذي نفخ فيه النقاد في وقت صدوره حتى غدت موهبته خارقة بحجم صهريج ضخم ، ومن تباهي كماله أقعد على ظهر القمر بينما تحاط به وصيفات من النجوم البراقة . .! ولأن الأديب «القذافي» صاحب الحسب والنسب والمجد والثورة والمؤلف والمثقف ؛ فقد ترجمت هذه المجموعة إلى لغات عالمية عدة ، دون أن يفوتنا إخباركم أن رجلنا من كرمه الطافح المشهود به في محافل ممتدة بامتداد خارطة هذا العالم ، ترجم تلك الكتب على نفقته الخاصة ووزعها . .!

ويا لها من مصادفة ، حين نعلم أن الزعيم الصيني «ماو تسي تونغ» كان هو الآخر شاعرا مرهف الحس ، و«زين العابدين» كان فيلسوفا وصاحب فكر ونظريات وثقافة . .!

هذه الجوقة وغيرها ممن جامعوا وخالطوا ما بين «الحكم السياسي» و«الفكر الثقافي» كيف كان العلم ومعارف الفكر في عهودهم . .؟! هل كانت حالة الفكر والأدب بشتى فنونه في أتم وأكمل انتعاشها . .؟! لدرجة يمكن أن تعيدنا إلى عهود رخاء العلوم والمعارف والفلسفة مما كان عند الخلفاء العباسيين والأندلسيين حينما كان وزن الأدب يماثل وزن الماس بل و أغلى . . «بغداد» زمن العباسيين وحكامهم ، كانت أهم مدينة في العالم العربي ، إذ بنيت بها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة وتكاثر بها التجار والصناع ، وكان لكل طائفة منهم شارع خاص أو سوق خاصة ، فهذا سوق العطارين ، وذاك سوق الصيارفة مستبدلي النقود وذاك سوق الوراقين ، وهذا سوق بائعي الحلى والطرف المعدنية وغيرها ، وأمّها المغنون والمغنيات ، ونزلها الأدباء والعلماء من

كل صنف وعلى كل لون ، فزخرفت الحياة هذا في عهد «المعتصم» بينما في عهد «المأمون» الذي كان شغوفا بالفكر والمعرفة ، غدت الدولة العباسية من أزهى العصور ولم يكد يستقر مقامه في بغداد ، حتى جعل من مجلسه ندوة علمية كبيرة يتحاور فيها ويتناظر الفقهاء والمتكلمون والعلماء من كل صنف ، وكان يستدعيهم من أقطاب مختلفة فلم يكن يعيبهم اختلاف الآراء والمذاهب والمثل بل كان ينعش فكرهم ويثري أفئدتهم ، وفي عهد «الرشيد» أقامت الدولة مكتبة ضخمة هي دار الحكمة وعنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، وكانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة . .

لأن حكامهم آمنوا بأهمية العلاقة ما بين تطور المجتمع والمثقف والمفكر والعالم في مجتمع واحد تتوحد فيه قيم المعارف المتباينة كأنهار متفرقة في مجاريها فتصب في محيط واحد ويغتذي من خيرها كافة الخلق على اختلاف مشاربهم ، تلك المعارف التي شرعت لها جموع الأبواب والشرفات والنوافذ ؛ كي تستنشق هواء نقيا كفيل في معافاة رئاء الحروف وانتعاش أدمغة الكلمات ، ودفع العبارات بحيوية في عمق النفوس . .

لكن المدهش حقا حين الوقوف على أحوال فكرنا العربي وثقافته ، فلن نرى سوى خرائب متداعية تثبت حقيقة مفزعة هي أننا أمة تتراجع زمنيا إلى الوراء في تخلفها الفكري والديني والاجتماعي والسياسي . .!

فنحن لم نشهد في عهود «القذافي» أو «ماو تسي تونغ» وغيرهم . . هؤلاء الحكام السياسيين المثقفين الأدباء سوى ركلا لكل

ثقافة من شأنها أن تعلي من همم الشعب ، وتثري من حماسة الشباب وتناهض قيم المجتمع بكافة طوائفه ، لم نجد سوى مشاحنات ، وجدالات عقيمة عن اختلاف الشعوب في وطن واحد بمذاهبهم وقبائلهم ، وكأن هؤلاء كان يحضرون ثقافاتهم من أجل توسيع هاوية الاختلافات بين أبناء الشعب الواحد . .!

وبما أن الوضع الليبي على أشده من الاحتراق فقد حشدت مجلة «بانيبال» ملفا خاصا في عددها تناولت فيه مدى معاناة الكتاب الليبيين الذين زج معظمهم في سراديب مظلمة ، استطالت أعوام حبسهم من عشر إلى عشرين عاما بتهمة «قلم حق» خاصة الكاتب «راشد السنوسي» والذي لقبه البعض بـ«أمير الثورة الليبية» وهو شاعر كان سلاحه مداد ، حيث رأى فيه نظام القذافي سلاحا خطيرا يهدد وجوده ، فكان القرار بعزله وسجنه ومحاولة قتل قلمه . .! «حكام في مرتبة مثقفين وأدباء» يالها من نكتة سمجة فاغرة السخرية . .! وهم أنفسهم كانوا أعداء الفكر والثقافة ، سهام مرمية بمهارة إلى فؤاد كل مثقف ، كان يناشد قلمه صوت الحق والحرية والكرامة وأحقية كل مواطن في خبز شريف وإرساء العدالات الاجتماعية ، وعلى مدى حكمهم المغبون طوال تلك السنوات ما تزال أصوات الحق نفسها تتعالى في مشارق الأرض بمطالب ظلت بذورا ما شامخت أشجارها بعد ، فكلما استطالت الحياة فيها قليلا قطعتها فؤوس حاقدة ، فؤوس جنّدت لأداء هذه الخدمة خصيصا دون أن يشغلها أي شاغل سواها ، فكم كانت شعوبهم أسلاخ جثث مدلية من قطافها فقيرة اللحم والكرامة والعدالة والحرية والثقافة يصدق عليهم قول شاعرنا العربي «نزار قباني» الذي قال : «مضت قرونٌ خمسةٌ / ولا تزال لفظةُ العروبة

/ كزهرة حزينة في آنية . .!» .

ولا مثال أقرب من دولة شاركت ما بين سياستها وفكرها المثقف في عصرنا الحاضر المعاصر من إمارة «الشارقة» العاصمة الثقافية لدولة الإمارات العربية المتحدة ، فهذه الإمارة تعطي لكل عابر وزائر ومقيم ومواطن شكلا من أشكال الثقافات الممتدة المتجذرة بعمق في أراضيها ، تحت راية حاكمها صاحب السمو الشيخ «سلطان بن محمد القاسمي» عضو المجلس الأعلى حاكم إمارة الشارقة الذي كرم مؤخرا الفائزين بجائزة الشارقة للثقافة العربية في دورتها التاسعة بباريس وقال فيه : «لقد دأبنا منذ عقود عدة ، وحتى الآن على إقامة وتطوير جسور التواصل الثقافي والفني بين مجتمعات بلادنا والمجتمعات والشعوب في قارات العالم المختلفة من الأمريكتين وأوروبا وآسيا واستراليا ، لنؤكد على وحدة الإنسانية وعلى ارتقاء بتفهم وتقبل الفروق الثقافات» ومضيفا : «وإضافة إلى ذلك نرعى وندعم التعبير الأدبي والفني المبتكر ، ليس في بلادنا فحسب ، بل في العديد من البلاد الأخرى ونشجع الموهوبين على التميز والاشتراك في المعارض والمهرجانات الأدبية والفنية في الشارقة وخارجها» هذه المدينة التي زاوجت ما بين السياسية والثقافة في أرض واحدة ، في عصر قلّ أن نجد حاكما عادلا ما بين فكره المثقف وما بين فكره السياسي ، لكن تجربة الشارقة وهي المدينة التي تهتف مرحبة لكل زائريها قائلة لهم بحب : «ابتسم وأنت في الشارقة» ولا نملك سوى أن نبتسم في وجه مدينة حاضنت بصدق كبير وإيمان عميق الفكر والثقافة الكرامة والحرية والعدالة والإنسانية . .

لا نقول : «الشعب يريد حاكما كاتبا مثقفا» كي لا نزيد الكال ما لا يحتمله من مطالب بعدما تعثّر أكثرها في مصب الوعود . .!

بل نقول : «الشعب يريد حاكما يحترم الفكر والثقافة» بلا مصادرة ، ولا حجب ، ولا حبس على ذمة كتاب أو نشيد حق أو معزوفة عن الحرية من مزمار شيخ كبير وسط حشد من الأطفال . .!

«مانسا موسى» ملك كان يرتحل بالذهب ويعود بكنوز الكتب..

في خبر غريب من نوعه نشره موقع يعنى بتصنيف أثرياء العالم عبر التاريخ ليحتل ملك أفريقي مسلم من مالي يدعى «مانسا موسى» هذا الرجل الأسطورة حيزا ضمن قائمته الثرية ، فمن يقف على قصة حياته وثرائه الباذخ وكرمه المفرط في دولة اليوم تعد من أفقر دول العالم يصاب بمس الفخر والخيبة في آن . .!

أما منبع الفخر في كون هذا الملك الأفريقي المسلم المولود عام ١٢٨٠ من القرن ١٤ الميلادي من أغنى أغنياء العالم على مر العصور ، إذ بلغت ثروته ٤٠٠ مليار دولار أميركي وفقاً لقائمة «أغنى ٢٥ شخص عبر التاريخ» . .

كان حاجي كانجا «مانسا موسى» من أعظم زعماء امبراطورية مالي ومن أشهر زعماء أفريقيا والإسلام في القرون الوسطى . . خلف السلطان أبو بكر الثاني عام ١٣١٢م ، كان عالما ورعا إلى جانب حنكته السياسية ، في عهده ازدهرت جامعة سانكوري كمركز للعلم في أفريقيا ، وسع دولته لتضم مناجم الذهب في غينيا بالجنوب ، وفي عهده أصبحت عاصمته تمبكتو محط القوافل التجارية عبر الصحراء بالشمال . . ليس هذا فقط بل إنه نشر الإسلام في كافة أنحاء إمبراطوريته ، وسافر إلى مكة لقضاء فريضة الحج في بعثة تضم آلاف

الناس ومئات الجمال المحملة بالذهب والهدايا . . وزع في طريقه إليها آلافاً مؤلفة من سبائك الذهب خاصة في القاهرة فتسبب في أزمة هبوط أسعار الذهب ، وعند عودته أحضر معه عدداً من العلماء بينهم مهندس معماري أسهم في بناء مسجدي جاو وتمبكتو القائمين إلى يومنا هذا . .

كانت مالي منجما للذهب ، غنية جدا بالثروات ، فكان طوال رحلته يمنح كل بلاد يمر بها سبائكا من الذهب واستمر في منح عطاياه وهداياه حتى وصل إلى مكة المكرمة وأدى فريضة الحج فيها ثم رجع بالجمال ، ولكنها لم تكن فارغة بل محمّلة بالكتب . . كان يرحل محملا بالذهب ويرجع إلى دياره بكنوز الكتب . .

ولم يكتف بتحميل الكتب وبل يصحب معها بعض الطلبة والمهندسين المعماريين ليحولوا مدينته إلى مساجد ومدارس ومكتبات ، استغرقت هذه الرحلة عاما كاملا وأصبحت مالي – تيمبكتو . . وهي البلدة الغنية بالذهب في مالي مركزا تجاريا وثقافيا ودينيا . .

بعد وفاة «مانسا موسى» عام ١٣٣١ م لم يحسن ورثته إدارة ثروته وأنفقوا جزءاً كبيرا منها في الحروب الأهلية والجيوش الغازية ، وفقاً لما ذكره موقع «الإندبندنت» البريطاني . .

والآن مالي هي من أفقر الشعوب الافريقية ولكنها تحتوي على كنز ثمين يحاول العلماء العثور عليه وهي الكتب التي جاء بها مانسا واحتفظ ببعضها أهل القرية إلى الآن في أغلفة من الجلد أو في الكهوف وفي صناديق تحت الأرض . .

ليس هذا فقط بل ذكر الموقع الذي صنف أثرياء التاريخ أن عائلة «روتشيلد Rothschild» والتي احتلت المركز الثاني و يعتبر أحفادها من

أغنى الأشخاص على هذا الكوكب ، بدأت العائلة في تكوين ثروتها بعملها في المجال المصرفي في أواخر القرن ١٨ وتقدر ثروتها اليوم بـ ٣٥٠ مليار دولار وزعت على مئات الأحفاد الذين هم من كبار رجال الأعمال في أيامنا هذه ويعرف أنها عائلة يهودية . .

عائلة روتشيلد الصهيونية التي بنت ثروتها بتمويل الحروب وخاصه الحرب العالمية الثانية وهي تمتلك وتموّل إسرائيل و٨٠ ٪ من أراضي فلسطين تملكها عائلة روتشيلد اليهودية الصهيونية حيث هم من أكبر المولين للنشاط الاستيطاني اليهودي في فلسطين ، ودعم الهجرة اليهودية إليها وذلك بتمويلها وحمايتها سواء سياسياً أو عسكرياً . . كيف لا وهي تبنت فكرة إقامة عائلة يهودية في فلسطين . .!

بين ملك مسلم كان أغنى أغنياء العالم انتهت إمبراطوريته إلى بلد يغرق في فقر مدقع وبين إمبراطورية صهيونية عرفت جيدا كيف تحافظ على ثرواتها حتى اليوم - مما لا شك - أنها مقارنة تفقع المرارة وتثير الخيبة المُرّة . .!

طريق المثقف هو انتفاضة عمالية

من هو المثقف . .؟! هل مفهومه يظلل فقط الذي يملك مخزونا ثقافيا . .؟!

تعريف الثقافة كما جاء في قاموس المحيط : «ثقف ثقفا ثقافة ، صار حاذقا خفيفا فطنا ، وثقفه تثقيفا سوّاه ، وهي تعني تثقيف الرمح ، أي تسويته وتقويمه» . .

وحينما بزغ شمس الثقافة في أوروبا في القرني الثامن عشر والتاسع عشر كان دائرا حول عملية الاستصلاح كما هو الحال في عملية الزراعة أو البستنة ، أما في القرن التاسع عشر غدا يشير إلى تحسين أو تعديل المهارات الفردية للإنسان ، لاسيما من خلال التعلم والتربية ، ومن ثم إلى تحقيق قدر من التنمية العقلية والروحية للإنسان والتوصل إلى رخاء قومي وقيم عليا ، وفي منتصف القرن التاسع عشر استخدم بعض العلماء مصطلح «الثقافة» للإشارة إلى قدرة الإنسان البشرية على مستوى العالم . .

ومع حلول القرن العشرين تفاوتت معاني الثقافة ، وأصبحت تحتمل مفاهيم ذات علاقة بعلم «الانثروبولوجيا» ، ليشمل بذلك كل الظواهر البشرية التي لا تعد كنتائج لعلم الوراثة البشرية بصفة أساسية . .

المثقف الذي يحمل كمّاً من المعلومات ولا يوظفّها في المكان

المناسب والاتجاه الصحيح هو كما الذي يحمل على رأسه خزانا ضخما من الماء ولكن غير صالح للشرب . .!

من هنا يمكن القول بأن للمثقف عدة تأويلات حسبما تأثيره ؛ فالثقافة والتثقيف ليسا مقصوران على من لديه مخزون ثقافي ، فهو لا يشمل فقط الكاتب أو الشاعر أو الباحث أو الصحفي أو الأكاديمي أو الفنان ولا من لديه شهادة عالية يتخذها عكازه لتثبيت شخصه . .!

بل يفيض هذا المفهوم فئات أخرى لا يقل تأثيرها في المجتمع عن أولئك المثقفين كـ الإعلامي ومقدم البرامج والمغني والممثل ، المعلم ، المحامي ، أعني هنا بالنخبة المتعلمة . .

وآخرون وتأثيرهم الإنساني لا يقل أهمية عن النخب المتعلمة في حبها الوطني الممتد وهم العاملون : كالفلاح والعامل البسيط والخباز والحداد إلى ما لا نهاية ، وهؤلاء لديهم ما يسمى بثقافة «الواقع» أو ما يوازي ثقافة «المجتمع» . .

لن نسأل بـ لفظة ما «دور» المثقف في المجتمع . .؟! لأن المثقف الذي عجز عن تحديد موقعه عن مرحلة «الدور» وتاه عنها فإن تأثيره أيضا سيان تائه وبلا بصمة حقيقية في المجتمع . .!

وجب السؤال بــ ما «تأثير» المثقف في المجتمع . .؟!

كأن العلاقة ما بين المثقف والمجتمع في الوطن الواحد علاقة مترددة كعلاقة الإبرة بالبالون تنقصها المرونة في التعاطي ، في بعض المجتمعات يرى الأفراد بأن ما يدلي به المثقف هي مجرد عبارات فضفاضة عن الحاجة ، يفرغها في سطور منمقة لها جرس تنظيري أكثر مما يكون لها أي دور فاعلي تطبيقي في حياة الأفراد ضمن المجتمع الواحد . .

ولا يمكن بأي حال من الأحوال لوم الإنسان البسيط الذي يستطلب ثقافة تكون على مسافة قريبة من أحلامه وطموحاته وحقوقه ، ثقافة تنوّره تمنح ظلمته الكابية ضوء أمل ؛ ليرمم آمال مشواره في الحياة وهو على ثقة بأن ثمة أصوات واعية تلملم جراحاته وتستعيد حقوقه بصوت الوطن والوطنية . .

في مقطع من مقالة معنونة بـ«نحو فن بروليتاري» لـ«مايد غولد» كتبها عام ١٩٢٩ م في صحيفته الراديكالية «الجماهير الجديدة» قال فيه وقتئذ : «لم يعد الفن أمرا نخبويا متعجرفا أو جبانا ، فهو يعلم الفلاحين كيف يستخدمون الجرارات ، ويمنح الأناشيد للمقاتلين الشباب ، ويصمم القماش الذي يرتديه العاملات في المصانع ، ويكتب المسرحيات الهزلية لمسرح المصنع ، وله فوق ذلك مائة مهمة أخرى ، الفن المفيد مثله مثل الخبز» . .

من عمق هذه العبارة يمكن القول : بأن لا ثقافة حقيقية إن لم يجس الجانب الإنساني في المجتمع قبل أي غاية أخرى ، فالمثقف هو إنسان قبل كل شيء والحاسة البشرية فيه ينبغي أن تكون على مستوى أعلى / أرقى من الشعورية ؛ كي تساند كلماته الأفئدة المحطمة ، كي ترمم أزمة معدم ، كي تمنح أملا ، كي تخضع بقوة كلماته سلطة مستبدة وتقهرها ، ما أعرض وأطول حاجات البشرية على وجه الكون . .!

ولا أبعد عن المثال الكاتب الياباني «كينزا بورو أوي» الذي عزم منذ سنوات خلت أن يكرس حياته لابنه المعوق ذهنيا ، إن أول ما دفعه ليصبح كاتبا إدراكه العذاب الصامت الذي تعاني منه السمكة في الخطاف وأصبح كاتبا ليشف الستار عن تلك العلاقة المعذبة لسمكة في الخطاف بإنسانية مكثفة ، ووحده صدقه الإنساني النبيل هو ما

أوصله إلى جائزة بحجم نوبل . . المثقف لم يعد ذاك الذي يقتعد خلف مكتبه بين أوراقه وكتبه هذا الدور التقليدي العتيق عفي عليه في زمن غدت فيه السلطة جلادا تتلذذ في تذليل مواطنيها فهم في مرتبة العبيد بالنسبة لها ، وهذا العبد البائس دوره الهامشي ، وخفوت صوته الإنساني الهزيل يسد حنجرته عن النطق خاصة إن ثمة بطون جائعة فلا حيلة له سوى أن ينتمي إن أبت عزة نفسه إلى قوم «بني صامت» متحسسا الجدار في كل خطوة من خطواته المرتجفة . .!

المثقف هو ابن المجتمع له حصة من الوطن كما الجميع ، وما يقع على الآخرين يقع عليه وما يمس وطنه يمسه ، وفي أثناء الثورة الثقافية في عهد الزعيم الصيني «ماو» فرض التأهيل على المثقفين وأجبروا على التوقف عن مباحث العلم والدراسة والذهاب إلى القرى واعتكاف فيها لممارسة الحياة الثورية مع الفلاحين في أسوأ إيديولوجيا لسياسة الحكم . .!

انقسم المثقفون وذلك بسبب حدوث خلل في سياسة السلطة في المجتمع الواحد . .! قديما كانت العلاقة متجانسة ما بين السلطة والفرد في مجتمع يسوده التجانس ، ولعل خير مثال هو عهد الخليفة العادل «عمر بن الخطاب» عندما خطب المسلمين غداة تولية الخلافة فقال قولته المشهورة : «أيها الناس ، من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقوّمه» وكان الرد على هذه المقولة ما نطق به أحد أولئك البدو البسطاء : «والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا» . .

وشأن المثقفين الذين مع السلطة كما الطائرات الورقية . .!

بوق سلطوي ينفخ لعرش من بيده سوط الأمر وجَلد النهي ، متزاحمين كل حسبما مصدر خوفه ونزعة آماله وأبدا هم حيثما ريح المصالح تميل . .!

وحين يزفر مقام السلطان عن غضبه فعاصفة هوجاء تمزقه إربا إربا، ويتلاشى مبعثرا كأن لم يكن . .! أو قد تثخن جراحاته لدهور وهو مشربك على غصينات التعذيب أو التخبط ما بين الصخور فللريح أمزجتها الخاصة . .!

والمثقف ضد السلطة كعظم في الحنجرة لا يبتلع . .!

لأن السلطة تعي جيدا تأثيره كأسلحة الدمار الشامل ؛ فالتنوير الذي يمارسه في فكر أبناء المجتمع عميق التأثير، ولكن المثقف إذا ما أراد أن يغدو فاعلا فعليه أن يكون واحدا من الآخرين وضمنهم فوعيه الفكري ومخزونه الثقافي يؤهله كمتحدي لاستبدادية السلطة وكمنافع قوي الذي يكسر شوكة الطغيان . .!

ولأن للمثقف تأثير جم ؛ فالسلطة عكفت بحرص دؤوب على تضييق نطاق حريته، فكم من رقيب عسسي بحوزته مقص يقطع أعناق الحروف وأرجل العبارات وأيدي الكلمات ؛ لتمنعها عن المضي في دربها، كي تستأصل دورها الحيوي وتكممه عن الآخرين . . فكم من كتب أحرقت، منعت عن الحصول على جنسية الوطن، وكم من كاتب نفي وبترت أصابعه وخمد صوت أحلامه في اغتيال قبل أن يصل حسها النبيل معدمي الأحلام . .! ولا أمرّ من تجربة الكاتب الجزائري «ياسمينه صالح» الذي اختبأ وراء اسم زوجته مضطرا من بطش السلطة كونه جندي في سلك الدولة ولم يكشف عن هويته الأصلية إلا حينما تقاعد ليعلن على ملأ عن اسمه الحقيقي «محمد مولسحول» . .!

وتبدو هنا «أيسلندا» هي حلم كل مثقف وئدت أحلامه وحرياته تحت مسميات باطلة ففي «أيسلندا» ثمة حرية تعبير شامل انطلاقا من

عبارة عضو البرلمان الآيسلندي «روبرت مارشال» : «إننا نرغب في الذهاب بعيدا إلى أقصى حد يمكننا الذهاب إليه لخلق بيئة جيدة لعمل الصحافيين وحماية حرية التعبير» . .

أما المثقف الذي يجد في نفسه نزعا نحو المشاركة الفعلية للوصول إلى مقاعد سياسية عليه أن يكون على الدراية بهدفه وبتطلعات الشعب كأداة فاعلة مناهضة لا مستبدة برتبة مثقف . .!

ويذكر أن الحكومة الإسرائيلية عرضت منصب رئاسة الدولة في عام ١٩٥٢ م على «آينشتاين» لكن الأخير رفض العرض قائلا باقتناع : «أنا رجل علم ولست رجل سياسة» . .

أما في مصر فثمة جهات رشحت العالم المصري «أحمد زويل» الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء ، والذي أعلن أمام وكالات أنباء العالم بأنه سوف يرشح نفسه لرئاسة مصر بعد تغييرات الدستور ، وإذا وجد المناخ المناسب معلنا أن حب مصر والمصريين عنده أقوى من حب العلم والمغريات الأمريكية والعالمية له . .

طريق المثقف هو انتفاضة عمالية

لكن ماذا عن المثقف «الغائب» أبدا في صفوف التأثير المجتمعي . .؟!

المقولات المتخشبة والشعارات الفاقعة والعقول المغلقة ما عادت تسدي نفعا ، وما عاد إنسان اليوم الطامح إلى الحرية والكرامة والمثل العليا في وطنه بحاجة إلى مثقف متقول يصافح بالقفازات الحريرية أيد خشنتها الحياة ، ما عاد يرنو إلى مثقف استكان كمتفرج ، كسيد من أعلى شرفته . .!

على المثقف أن يكون كالماء يمتلك صفة الماء في انسيابيته حول الصخور بجسارة دون خشية من صلابتها ، يتكيف كالنهر مع الظروف مهما غدت قسوتها عليه ، يتحول إلى بحيرة مهما امتلأت بالحفر والحجارة فإن سائر إلى مساره ، فالماء حركي ، نشط ، دائم التجدد والفوران مهما اشتدت الطبيعة ، في الشتاء القارص تتجمد من السطح ، لكن في أعماقها الغائرة دفئية الحياة وأسماك طازجة يعتشي عليها الإنسان متى شاء ، وفي بقية الفصول فهو ارتواء حقيقي لظمأ الحناجر وربيع القلوب . .

أما الذي يدفن رأسه في الرمل فيغدو منسيا بإرادته ، فالغائب عن المشهد ليس كما الحاضر فيه ، فالأول مستبخل بخبراته وفكره والثاني

على قدر من كرم العطاء ليمنح جل ما يمتلكه من خبرات وفكر ومفاهيم وطاقة البحث لرقي أفراد يشاطرهم الوطن تكلل انتصاراته خيباته كلاهما بالوقع نفسه من التأثير . .

على المثقف أن يكون حالة إنسانية شاملة : خوفه ، حزنه ، حلمه ، تطلعاته تكون قريبة من قلب الإنسان العادي وعقله ، فيتعرف الآخر على تواضعه ويحتفي بثقته ، في وقت عينه تغدو تلك الآمال والتطلعات من الرقي ، كي لا تسقط في فخ السذاجة والتسطيح «لا يعرف الحقيقة سوى من يجلس تحت المطر معتصما . . .» كما قال الكاتب «حامد بن عقيل» . .

أما عن أمراض المثقفين في المجتمع الواحد فينبغي أن تتصادق حلولا ، كي تتوحد الجهود وتتعاضد قوى التأثير فالوطن الذي يرغبون في تأثيث تحضره واحد والأفراد الذين يحررونهم من قيود العبودية السلطوية واحد فـ : «معظم التجمعات العربية الثقافية في المجتمع صارت موبوءة وأهم أمراضها الشللية ، تدني الخطاب ، مشروع الدعاية والإعلام ، تقزيم المعرفة ، فقدان الحصانة ، رخص التسعيرة . .» كما أشارت الأديبة «ظبية خميس» في أحد مقالاتها عن ثقافة المجتمع . .

فحينما يتحرر المثقف عن نوازع الملة وقواطع الشلة أو عبودية لون وعجيج عرق سوف يسمو فكره وحسه الوطني النبيل . .

ماذا عن تأثير الفئات الأخرى من المثقفين . .؟!

قلنا في المقالة السابقة أن مفهوم الثقافة في المجتمع الواحد شامل شمولية تأثير الثقافة على قطاعات شتى في صالح تحضر الأفراد تحت سقف واحد يدعى «وطن» . .

تحدثنا عن تأثير المثقف الذي نعني به «الكتاب والشعراء

والأكاديميين» ونستكمل الحديث عن نخب المتعلمة الأخرى كـ المحامي والمهندس والطبيب والإعلامي والمغني والممثل . .الخ

لهذه النخبة رصيد من الشهرة يكفل لهم أدوارا وتأثيرا جما في أي مجال من مجالات الحياة ، هذا يستدل الستار على وجوه من الممثلين والمغنيين الذين تناقضت أدوارهم بين ما يعرضوه على الشاشة وبين واقعهم ، على سبيل المثال الممثلة السورية «سلاف فواخرجي» في مسلسلها «ولادة من الخاصرة» تؤدي دور مثقفة سورية معارضة للظلم في بلادها ، وتتزوج من ضابط كبير في السلك الأمني ، وتكتشف هذا بعد الزواج منه ، فتقرر إجهاض الجنين في أحشائها ؛ كي لا يحمل اسم ضابط يعذب المقهورين وعبرت في أثناء المسلسل عن إعلان حربها عليه بقولها كما في الدور : «يلعن أبو الخوف إحنا بدنا حرية» ولكن في الواقع السوري فقد حاربت الثوار بحزم معلنة بأن : «هؤلاء مندسون وليسوا منا وخونة ويجب محاسبتهم ، نحن نعيش من خير النظام . .!» .

ومع الثورات الربيع العربي ساحت معظم الأقنعة التي غطت وجوه الممثلين والمغنين في تناقضات فاغرة ما بين شاشة التمثيل وواقع الحياة ، واكتشف الإنسان البسيط أن الفنان الذي كان ينافح طوال أعوام عن خبزه وعن أحلامه البسيطة لم يكن سوى ثرثرة أدوار في خيبة غدت الشعوب العربية تتقبل الأمر . .!

بينما في الغرب تجد نماذج يقتدى بها تصفق لها القلوب عن محبة خالصة كالممثلة الأمريكية «أنجلينا جولي» وهي سفيرة في حقوق الإنسان تؤدي دورا محوريا مهما للإنسانية عبر العالم ؛ ففي وقت كان فيه الفنان أو الفنانة العربية غارقة في امتصاص شهرة الأضواء ، كانت

هذه الممثلة بين اللاجئين التونسيين والليبيين أثناء اشتداد نار الثورات . . كما الممثل «جورج كلوني» وجهوده الثاقبة للاهتمام في مشاحنات جنوب السودان والسودان . .

وفي أثناء أزمة اليابان ألفت معظم مغنيي وممثلي الغرب في حملة لمساندة تسونامي الياباني وعلى رأسهم الممثل «جاكي تشان» والمغنية «ليدي جاجا» ولم يتناهى إلينا عبر مكبرات الإعلام العربي عن نية أي ممثلة أو مغنية عربية لمساندة جوعى الصومال إلا من رحم ربي . .!

وفي الاتجاه عينه يمضي الإعلام كتأثير في المجتمع ، فإذا كان الناس على دين ملوكهم فإن ملك هذا الزمان بلا منازع هو الإعلام . .!

والعالم حاليا في قبضة الإعلام ولا يمكن نكران تبعات الإعلام الحاضر من رفع أو إسقاط أي جهة ومهما بلغت نفوذها ، وفي وقت ما لعبت صحيفة «نيوز أف ذي وورلد» ومالكه «مردوخ» الرجل الذي كان يرفع ويسقط كيفما شاءت إمبراطوريته المرشحين بالانتخابات والمشاهير إلى أن غدا هو الساقط بعد سنين ألحقت المرارة بالآخرين . .!

فكل إعلام مشوّه سوف يتشوّه في الختام مهما استرخى في سنون الدّعة . .!

يلزم المجتمع إعلاما مسؤولا لا إعلام يقتات على الفضائح وقدح نار الفتن وتفشي الغوغائية بين الأفراد في سقف واحد . .!

لهذا على هذه النخبة الخروج من أدوار الحركات والأصوات كببغائيين وقردة إلى قامات ذات همم تناهض أممها وتعلو من شأن أفرادها . .

طريق المثقف هو انتفاضة عمالية

الفنان المصري «محمد صبحي» قال في أحد حواراته : «أنا كرجل تشتمل تركيبتي على رجل الشارع ورجل السياسة ورجل الفن ، وهذه التركيبة تتشكل منها كل فرد ، ولكن بطبيعة الحال بنسب إنما النسبة الأكثر هي رجل الشارع ؛ لأن السياسي إذا كذب يسقطه الشعب ، ورجل الفن إذا كشف أسدل الستارة لكن المتلقي في الجانبين والحالين هو رجل الشارع وفي الحالتين ، فإن إسقاط السياسي وسقوط الفنان بيد هذا الرجل . . أي رجل الشارع . .»

الحديث عن الطبقة العمالية فهم رجال الشارع الحقيقي تأثير الأشمل والأكبر بشهادة الممثل «محمد صبحي» ، لا تقل أهمية وتأثير لحراك التطور الحضاري وهم العمال البسطاء من حدادين ونجارين والفلاحين والخبازين ولا يستغني عنهم أي مجتمع ولا يحل محلهم أي اختراع على الأقل في معظم دول الوطن العربي الذي يفتقد معظمها أساسيات التحضر في مجتمعاتها . .

وفي ربيع ثورات التغيير الذين خرجوا أفواجا إلى ميادين التغيير والتحرير لم يحملوا على أكتافهم شهاداتهم ولا رتبهم ولا ألقابهم ولا أموالهم غير أن دافعهم إلى تلك الخطوة الجريئة والجسورة هي غاية واحدة : حب الوطن ، هذا الحب وحدّ صفوفهم وغاياتهم رغم

اختلافات الأديان والمثل والقيم والأفكار في ساحة واحدة متشبثين يدا بيد يهتفون بصدور حامية لكرامة الإنسانية ولحرية الجمعاء . .

لقد تضافرت جهود هؤلاء مع الثورات العربية في كل بقاع العالم العربي ، غدا لهم التأثير بعد أن كانوا منسيين من سلطة الحاكم من جهة ومن نخب المثقفة المنفوخين بعقدة «الأنا» ويبدو أن وحده اختراع يدعى «الانترنت» هو من أخرج هؤلاء من غياهب النكران والظلام إلى أنوار الكشافات . .

إنهم عن طريق كبسات أزرار انظموا بجدارة إلى من أطلقوا كبسة الانطلاق إلى الشارع ، فخرجوا أفواجا كما الحجاج في مكة ، ساعين هذه المرة وبيقين بنصر مؤزر من - الله تعالى - ببساطة القلوب التي لم تحتوي في جوفها حبا سوى حب الوطن ، ولم تحلم سوى في كرامة تنقي عرق جبينه الذي طالما وجد مصباته في مستنقعات الذل والهوان ، الذي لم يطلب سوى عدالة اجتماعية تحترم وجوده كإنسان في وطن لا يملك فيه سوى جسده كما أجساد أسرته ، فمعظم هذه الطبقة معدمة من أبسط حقوق الحياة فهم بلا بيوت بل يعيشون في مجمعات سكنية من طوب العشوائيات في سكيك الخراب ، وجيوبهم المرقعة لا تحمل سوى قوت يوم بيوم ؛ لهذا ما كانوا يأبهون كونها ممزقة أو بها ثقوب كحفيرات صغيرة فهي خاوية أبدا . .!

إنه رجل الشارع الحقيقي ورجل المطالب ومفجر نافورات الثورات ، ولولا همته وصوت هتافاته المرتفع لما توصل أولئك المثقفون لشيء يذكر ، فكلنا يدرك أن المثقفين المخلصين هم ندرة ، تلك القلة التي طوردت ونفيت وحبست وقطعت أوصاله ، والبعض منه يئس وتسلقه التعب عن أمل ضئيل ينبثق في كون ما حقا لولا مساندة هؤلاء لما

تنحى الرئيس «حسني مبارك» ولا فرّ «زين العابدين» ولا احترق بشظايا قذيفة الرئيس اليمني «علي عبدالله صالح» ولا اندس العقيد «القذافي» في مجاري ليبيا ولا ضغط «بشار الأسد» بهاون الضغوط الدولية . .!

إننا نعيش في مرحلة حاسمة من مراحل التاريخ ، لكل فرد في وطنه بلاط سوف يتحمله وأحلامه وحقوقه وطموحاته شريطة أن يسعى من تلقاء جهوده ؛ كي يستعيدها إن سلبت منه ويطالب بها إن ضاعت عنه ، فلا تغيير ولا حضارية عادلة في حصصها بين أفراد في المجتمع إن تقاعس البعض وتكاسل آخرون فلكل مجتهد نصيب . .!

أما الاكتفاء بسياسة التذمر من الواقع الشاق أو زفر ضيق على الظلم المتفشي أو المسكنة من الجدران العالية ما بين الحاكم والشعب ، فإنها تظل كما هي إن ظل الفرد العربي على حاله لكن الآن سياسة الخوف وضع على المقصلة وثمة جسارة هائلة يحياها العامة والكل يريد أن يقول شيئا والكل يريد أن يشترك في صفوف المطالبة بالحقوق والكل يرغب في وطن آمن . .

في أزمنة الحكم السابقة أشهرت السلطات أسلحتها الكاتمة في عقل الشعب فسممت فكره وألبت بنيران الفتن ما بين الطوائف والمذاهب ؛ كي تنعم هي في عاجية قصورها بسلام آمنين على عروش أبدية لا يزعزعها الجن ولا الانس . .

لهذا على الشعوب اليوم وبعد انكشاف الحقائق وتواري الظالمين في مزابل التاريخ وفضائح العصر أن يتكاتفوا ؛ كي لا تضيع الحقوق في أفواه خارجية قروش من أمريكا وأوروبا وإسرائيل ، فبعد الزعزعة الداخلية التي شبعت منها الشعوب ، ثمة زعزعات خارجية طالما لا

تكف يوما يد مطامعها ولا قدم استلائها على ما هو حق للعربي وحده في أرضه . .! بشهادة «جان بول ساتر» الذي قال جملته الشهيرة بعد زيارة «نيكسون» للقاهرة : «سيظل تاريخكم نزيفا من الشقاء والدم ، حتى ينضب نزيف البترول» . .!

فليكن هذا الزمن بهول مفاجآته ضد هذه المطامع وذلك لن يتحقق دون اتحاد متضافر وتعاون حقيقي بين كل الشعوب العربية من محيطها إلى خليجها ، فحين تكون القلوب سليمة بنياتها وحين تصفو العقول من هرج الفتن ومرج المصالح سوف يتحقق النصر الأكيد ، الأعظم الذي يترقبه كافة المسلمين عبر بقاعات العالم الأجمع ، بدءا بتحرير الأقصى إلى استعادة أمجاد الأندلس الضائعة . .

أكثر المثقفين الذين كانوا في تواز محب وتوافق متواصل مع الطبقة العمالية هم من دفعوا ضرائب ، أعتى الضرائب بأجسادهم وأرواحهم ودحضهم خلف حياة بلا شمس ولا هواء لا شيء سوى عدم . .!

على رأس القائمة رسامي الكاريكاتور فهذه اللغة المرسومة والمنطوقة بالألوان هي اللغة الأقرب إلى الأميين ، وما أكثر الذين إلى اليوم لا يمكنهم فك حرف وتركيب مجموعة ألفاظ في عبارة ، لهذا كثيرا ما محقت بهم السلطات من اغتيال وبتر للأصابع «الأول ناجي العلي والثاني علي فرزات والقائمة تطول» . . وأناشيد الشعراء فمقولة الشابي من لم يرددها ما بينه ونفسه ما بينه وهتافات الآخرين : «إذا الشعب يوما أرد الحياة فلابد أن يستجيب القدر» . .

لغة البساطة والصدق هي مرآة هؤلاء البسطاء هي التي تشد من أزرهم وترفع من معنوياتهم حين يهبطها الظلم والطغيان ، هي وحدها تفعل فيه ما لا يمكنه سحر الساحر . .

وكاتب الوطن الذي نزل إلى الشارع وكان جنبا إلى جنب مع الإنسان البسيط ، يمشي كلاهما في أفق حلم واحد وعبر شارع واحد سيان كلاهما في منحدراته وتعرجاته وحفره وانغلاقه وتكسره وابتلاعه . .

المثقف وحده لا يصنع شيئا ؛ فاليد الواحدة لا تصفق بعد هذا لا يمكن الإيمان سوى أن طريق المثقف هو انتفّاضه عمّالية ولن يحلّ السلام قبل أن يتوحدوا . .

المثقف «التوي»
بين بائع آراء وغاسل أدمغة..!

«برتولت بريخت» كاتب ألماني يعد من أعظم كتاب المسرح في القرن العشرين وهو طريدة غير مناسبة للباحثين عما هو خارج الفكر فهو بفكر كل شيء ونقيضه ، كما إن لسانه لا يزَلُّ بل هو ينتقد من طرف خفي لا على غرار الخبيث - الساخر - الذي يقف مع الحقيقة ونقيضها بوصفها ازدواجية لهذا ينطبق عليه تماما الحكم الذي تطلقه إحدى شخصياته على هيغل . .

تطرح مسرحيات «برتولت بريخت» قضايا تمس الوطن والوعي وعلاقة الحكومة مع الشعب يطرح دلالاته بطريقة رمزية وعابرة ومعظم مسرحياته تطابق والوضع العربي الحالي بعد تفجر الربيع العربي وانطلاق الصوت الإنساني . .

في إحدى مسرحياته والتي بعنوان «الرؤوس المستديرة والرؤوس المدببة» يعرض «بريخت» حكاية عن بلاد تمر بأزمة وقد سماها باسم خيالي «ياهو» وتعيش فيه جماعتان . . جماعة الرؤوس المستديرة «تشوك» وجماعة الرؤوس المدببة «التشيش» وتعيش كلتا الجماعتين في وئام وسلام إلى أن تؤدي الألاعيب السياسية إلى زرع الشقاق والخلاف بينهما . . ولا يمكن أن تستمر فيها الأمور كما كانت فيما مضى إذ يجد الشعب نفسه أمام خيار صعب ومخيف : الاشتراكية أم البربرية . .؟!

حالة هذه تنطبقِ على «مصر» فشعبها اليوم بين خيارين صعبين خيار «فلول» يمثله «شفيق» وخيار «إخواني» يمثله «مرسي» والمدهش أن هذه المسرحية قد مثلت في مصر على أحد مسارحها . .

يقول «برتولت بريخت» في موقف ما : «هل بعت نفسي؟» ويأتي الجواب عن هذا السؤال قاطعا : «لا تأتي آرائي من كوني هنا وإنما أنا هنا لأن لدي هذه الآراء . .»

من هنا نسدل الستار على مسرحية «في غابة المدن» هو يخترع «بريخت» المبدع الخلاق لفظة «التوي» ويعني المثقفين الرسميين الذين يبيعون الأفكار الجاهزة ويتلاعبون مقابل المال بالكلام الأفكار والآراء . .!

وهنا الصفقة تجري بين ثري يدعى «شلينك» وبين موظف في المكتبة يدعى «غارغا» حيث يطلب الثري من الموظف «غارغا» أن يبيعه رأيه ؛ فصورة بائع الآراء بوصفها صِنْو الفنان المنتج وفساد الإنتاج في التبادل هو موضوع يعتبر هاجسا من هواجس «بريخت» منذ إقامته في هولندا حيث لا يتحدث المهاجرون الذين حققوا ثروة فيها إلا «بالصكوك» وحيث الفنان التقدمي كما يرى «بريخت» أنه لا يمكنه أن يعيش إلا إذا صار بائع أكاذيب كما ينص : «أقصد كل يوم ، لأكسب لقمة عيشي ، السوق التي تُشترى فيها الأكاذيب . .»

إن المثقف «بائع الآراء» هو تلك الشخصية التي أطلق عليها «بريخت» اسم «التوي» وهو مشروع فكر فيه «بريخت» طوال عشرين عاما كرواية يسميها «التوي» حيث أراد فيها عرض تلك الشخصيات التي راقبها في الغربة والتي يمثلها بصورة خاصة فلاسفة مدرسة فرانكفورت . . إلا أنه لم يكتب العمل الوحيد المستكمل إلى حد ما

والداخل ضمن هذا المشروع إلا في آخر حياته وفي ألمانيا الديمقراطية ويحمل عنوان «توراندوت أو مؤتمر غاسلي الأدمغة» وهنا يظهر غموض شخصية «التوي» أفضل من أي مكان آخر . . والحق أن «بريخت» يعطي لهذه الشخصية سمتين جوهريتين : فالتوي هو المثقف الذي يعتقد أن الفكر يحدد الواقع ولكنه أيضا الرجل الذي يتاجر بالآراء إلا أن التعريفين لا يتقاطعان ؛ فالأول يحيل على الشكل التقليدي للوهم «البرجوازي الصغير» ويستدعي عمل الحقيقي الذي يكشف عن الوهم . . أما الثاني فلا يعود الحقيقي مجرد الوجه الآخر للوهم إنه موضوع اتجار يختفي فيه الفرق بينه وبين الوهم . . وتبشر تجارة الآراء هذه بعصر جديد لوظيفة الأيديولوجيا . . الوهم باطلا . .

ما تريد المسرحية قوله هي أن الحقيقة سقطت مستوى «السلعة» وذلك من خلال فصل الحقيقة عن الشعب لبيعها إلى السلطة وقد تطوّر مفهوم «التوي» إلى مفهوم «غاسلي الأدمغة» ويوظّف هذا التوي أو غاسلي الأدمغة من قبل الحكومة ؛ ليخدعوا الشعب ويشغلونهم بعيدا عن الحقيقة الكاملة . .!

نحن أمام أمرين : أمام مثقف يتكسب ببيع الآراء وأمام حكومة تشتري الآراء من المثقف لتخدع الشعب . .!

وهذين النموذجين شائعين في الوقت الحالي والتسمية استجدت مع الوقت وصارت «بوق» الحكومة أو «مزمارها» أو «طبلها» . .!

مع الإشارة أن المثقف من هذا النوع لا يبيع آراؤه فقط بل كذلك ضميره ويبيع نفسه ويبيع فكره المستقل ليكون فكرا موبوءا وعبدا تابعا ومتبوعا للسلطة وحدها . .!

الفن الحقيقي هو الذي يعالج مشكلات المجتمع وهموم المواطن في

وطنه خاصة حين يكون الوطن مثقلا ، فمن العار تقديم فن مرفّه في وضع مجتمع متردي وغائص في الفساد والظلم والتحزبات والعنصرية وهلم جرا . .!

مثقف نخبوي وأميّ ابن شارع..!

كتب الروائي المصري «علاء الأسواني» تغريدة في حسابه على تويتر ردا فيها على إلغاء غير الدستوري الذي أعلنه الرئيس المصري «محمد مرسي» مفضيا إلى إعلان دستور جديد عبر إجراء إستفتاء . . فعلق الروائي المصري مكتوبا : «لو وافقنا الإخوان على الإستفتاء بشرطين أولا أن يستبعدوا الناخبون الأميّون وثانيا عقوبة الحبس لمن يشتري الأصوات بالزيت والسكر هل يقبلون أو لا . .؟»

عبارة الروائي «علاء الأسواني» رسمت علامات تعجب مذيلة بإستفهام في عقلي وعقول من مرت بهم التغريدة ؛ فالأميّون كأنهم ليسوا ضمن قائمة الشعب المصري . .؟!

اتذكر في وقت سابق كتبت مقالة عن دور المثقف في المجتمع ، مثقف الثورات الذي له دور أساسي وفعال في نشر الوعي واسميت المقالة يومئذ والتي جاءت على ثلاث أجزاء : «طريق المثقف إنتفاضة عمالية» . .

ومما قلت مكتوبة : الثقافة والتثقيف ليسا مقصورين على من لديه مخزون ثقافي ، فهو لا يشمل فقط الكاتب أو الشاعر أو الباحث أو الصحفي أو الأكاديمي أو الفنان ؛ ولا من لديه شهادة عالية يتخذها عكازه لتثبيت شخصه . .!

بل يفيض هذا المفهوم فئات أخرى لا يقل تأثيرها في المجتمع عن أولئك المثقفين كـ الإعلامي ومقدم البرامج والمغني والممثل، المعلم، المحامي، أعني هنا بالنخبة المتعلمة . .

وآخرون وتأثيرهم الإنساني لا يقل أهمية عن النخب المتعلمة في حبها الوطني الممتد وهم العاملون : كالفلاح والعامل البسيط والخباز والحداد إلى ما لا نهاية، وهؤلاء لديهم ما يسمى بثقافة «الواقع» أو ما يوازي ثقافة المجتمع . .

كما أني يومئذ استعنت بعبارة في مقطع من مقالة معنونة بـ«نحو فن بروليتاري» لـ«مايد غولد» كتبها عام ١٩٢٩ م في صحيفته الراديكالية «الجماهير الجديدة» قال فيه وقتئذ : «لم يعد الفن أمرا نخبويا متعجرفا أو جبانا، فهو يعلم الفلاحين كيف يستخدمون الجرارات، ويمنح الأناشيد للمقاتلين الشباب، ويصمم القماش الذي ترتديه العاملات في المصانع، ويكتب المسرحيات الهزلية لمسرح المصنع، وله فوق ذلك مائة مهمة أخرى، الفن المفيد مثله مثل الخبز» . .

نعود لتغريدة الروائي المصري والتي تقصي الإنسان الأميّ البسيط عن أن يكون فاعلا في مجتمعه ؛ تقصيه وكأنه إنسان حقوقه منقوصة في وطنه ؛ فمنعهم من الإستفتاء على الدستور علما أن نسبة الأمية في مصر تصل إلى ٤٠٪ في حين نسبة المتعلمين ٥٠٪ تقريبا . . أي أن المنع لو طبق هذا يعني أن نصف الشعب المصري سيسقط حقه من المشاركة في بناء منظومة الوطن، وفي المطالبة بعد ذلك بحقوقه السياسية والاقتصادية والدينية والإجتماعية وهلم جرا . .! وليس هذا من العدل بشيء فما موقع مطالب الثورة هنا والتي جاءت تطالب

بعيش وحرية وعدالة إجتماعية . .؟! وهل هذه المطالب للمتعلمين فقط . .؟!

إذا كان إعلان الرئيس المصري «محمد مرسي» للدستور جعل الشعب ينقسم إلى قسمين . . إلى موافقين وإلى معترضين إلى «نعم للدستور» وإلى «لا للدستور» فأستطيع القول بأن عبارة المثقف النخبوي بدورها تدور في دائرة الانقسام نفسها بل تفرض عقدة الثنائيات ما بين «متعلمين» و«أميّين» . .!

حاجة الطبقة الأمية وبساطتها لا يعني استغلال ظروفها حسبما مصلحة كل جهة أو طرف أو حزب أو مؤسسة ولا يعني تقويض كرامتهم بل من واجب المثقف خاصة النخبوي أن يسعى حثيثا إلى توعيتهم لا أن يكون عنصرا أو سببا في إقصائهم . .!

الطبقة الأمية هم أحوج الناس إلى كتّاب واعين يعنون بمصالحهم وحقوقهم الإنسانية . . هم أحوج الحاجة إلى من يقف على آلامهم ويكتب واقعهم وينقلها كما هي محاولا أن يلفت نظر الوطن والعالم إليهم . .

مسألة إقصاء الأميين في المشاطرة في قضايا الوطن مهما بلغت الحجج والمزاعم لن يساهم سوى في إنشاء جدار وهمي برليني ما بين طبقة الأميين والمثقفين والتي تفاءل العالم العربي تحديدا في السنوات الأخيرة وبفضل وسائل التواصل الاجتماعية في كسر هذا الجدار الوهمي وفي إخراج الكاتب النخبوي - خاصة - من قوقعة برجه العاجي ، فيخاطب ويتحاور ويناقش مع قرائه الذين يتابعون ما يكتبه . . ومع أولئك الذين يكتب لهم وعنهم «الأميين» والبسطاء الذين لا يملكون من أدوات الكتابة وفنونها ما يعينهم على التعبير عن

أنفسهم كما الكاتب المتمرس في وصف ونقل ظروفهم للعالم الأجمع . .!

بمجرد ما تتعاظم أسوار ما بين المثقف والأميّ سوف ينأى المثقف عن فهم الأميّ وواقعه كما ينأى الأميّ عن فهم المثقف ورسالته في الحياة . .

الأميّ هو ابن الشارع أي ابن الواقع الذي يعايش بالتجربة والتطبيق ويكون جزءا أساسيا بل بطلا في مسلسل يحكي الواقع كما هو بلا ميكأب أو فوتوشوب . .!

وطوال تلك القرون وإلى يومنا هذا أصبح الجميع يتحدث باسم حقوق الإنسان ويتزعم المنابر حجة الدفاع عنهم وعن حقوقهم حتى أن الثورات قامت باسمهم وهم من أجج أوارها ، فالجميع يدرك مدى تأثيرهم الفعال والمهم في كل خطوة لبناء وطن متكامل الحقوق والحريات . . وهذا الواقع ليس ببعيد عن عبارة أقرّ بها الفنان المصري «محمد صبحي» وهو المعروف بأفلامه ومسلسلاته التي تتناول شأن الإنسان المصري البسيط بمختلف أحواله وظروفه مشيرا في أحد حواراته : «أنا كرجل تشتمل تركيبتي على رجل الشارع ورجل السياسة ورجل الفن ، وهذه التركيبة تتشكل منها كل فرد ؛ ولكن بطبيعة الحال بنسب إنما النسبة الأكثر هي رجل الشارع ؛ لأن السياسي إذا كذب يسقطه الشعب ، ورجل الفن إذا كشف أسدل الستارة لكن المتلقي في الجانبين والحالين هو رجل الشارع وفي الحالتين ، فإن إسقاط السياسي وسقوط الفنان بيد هذا الرجل . . أي رجل الشارع . .»

فمن هم «الشعب» الذي عناه الفنان المصري «محمد صبحي» يا «علاء الأسواني» ، الروائي . الكاتب . الطبيب . المثقف النخبوي . .؟!

غرفة التعذيب

حين تعتقل من أجل كلمات ؛ فاعلم يقينا أن الكلمة تصنع حضارة وتاريخا وإنسانا . .!

ما من موهبة تمر بلا عقاب..؟

للكلمات تاريخ طويل في تأثيرها العميق على الحس البشري مذ عرف الإنسان لغة الكتابة باختلاف أشكالها وألغازها المعبرة ، ولعل هذه الحكاية القصيرة عن رجل أعمى تؤكد لنا ذلك ، فقد جلس رجل أعمى على رصيف شارع ومعه لافتة مكتوب عليها : «أنا أعمى أرجوكم ساعدوني» ولكن المارة لم ترم إليه سوى بضعة قروش ، ومرّ أمامه شخص لم تنل إعجابه العبارة ، فأخذ لوح الأعمى دون استئذان منه وكتب عبارة أخرى وأعادها إلى مكانها ومضى في طريقه ، بعد قليل شعر الأعمى أن قبعته بدأت تمتلأ بالنقود وأدرك أن شيئا قد تغير ، فسأل أحدهم عن العبارة المكتوبة على اللوحة ، فقرأ المحسن العبارة التي كانت تقول : «نحن في فصل الربيع ، لكنني لا أستطيع رؤية جماله» . .

إنها حكاية كلمات أكثر من كونها حكاية رجل أعمى ، بضع كلمات جعلت من المتشرد في موضع الاحترام والتقدير والتعاطف من الآخرين ، ولهذا لم يفاجئني مطلقا حينما تناهى إلي حادثة «قطع اللسان» التي تعرض لها مؤخرا الشاعر اليمني «وليد الرميشي» بعد أن خطفته جماعات مجهولة ، أقدمت على احتجازه وقطع لسانه وإلقائه في شارع تعز وسط العاصمة صنعاء ، وذلك في حادثة تعد الأولى من

نوعها في تاريخ اليمن ، في ظل تواصل مسلسل الاعتداءات ضد الشعراء والمثقفين اليمنيين ، حيث سبق وأن تعرض عضوا اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين الشاعر «محي الدين جرمه» والقاصة «بشرى المقطري» للاعتداء بالضرب المبرح في إحدى الساحات بالعاصمة صنعاء ، كما تعرضت الأديبتان «هدى العطاس» و«أروى عثمان» للاعتداء في ساحة التغيير ، وهو ما دفع الأمانة العامة لاتحاد الأدباء إلى إعلان التضامن الكامل مع هؤلاء الكتاب وإدانة كل ما يتعرض له الأدباء والكتاب والصحفيين . .

هذه الاعتداءات التي لوحق بها الكتاب اليمنيون ، هي عينها التي لوحقت بها مئات بل آلاف الكتاب والشعراء والرسامين والصحفيين ، بل حتى حاملي كاميرات كحادثة المصور القطري التابع لقناة الجزيرة الذي لقي حتفه في ليبيا على أيدي كتائب القذافي ، وبتدوير الذاكرة سنجد حشدا من الأسماء في تاريخ الكتابة فقدوا أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الحق التي يريد جماعات معينة تواريها خلف قدر مدلهم فالفيلسوف «سقراط» الذي كان نصيبه سم الشكران الذي تشربه ومات ، ظنا من قاتليه أن بموته تموت الفلسفة . .! والكاتب «عبدالله المقفع» الذي ضربت أصابعه حتى تشنجت ، فلم تعد صالحة للكتابة ، والصحافي اللبناني «سليم اللوزي» الذي وجد مقتولا وقد دس القتلة أصابعه في فمه بعد اغتياله ، فالأصابع هي التي كانت تكتب . .! اغتيال «غسان كنفاني» ؛ لأنه كان فحلا في الكتابة . .! والرسام الكاريكاتوري «ناجي العلي» وهو أول شهيد للكلمة المرسومة في العالم الأجمع ، وإلى هؤلاء يضاف أولئك الذين زجّ بهم في زنازين مجهولة لا يعرف الطريق إليها إلا الله وحده . .!

إن ظاهرة الاعتداءات في تاريخ الأدب والكتابة يضعنا أمام تساؤلات مهمة : هل بإبادة الجسد تبيد الكتابة . .؟! هل ينتهي مطاف الكلمات حين يفنى صاحبها شهيدا في سبيل قضية تبناها . .؟! هل كفّت المحابر عن النزيف في سبيل مطالبها المشروعة . .؟!

لم يحدث شيء كهذا ولن يحدث ، فمازلنا نتشرب تعاليم «سقراط» ومازالت روح عبارات «غسان كنفاني» تهيم في أراضيه المحتلة ، لكن ما حدث أن للكلمة أصبح ثمن ، ما حدث أن الكلمة ستظل ملاحقة من قبل كلاب عنيفة لتطمس حقائقها بوحشية ضارية ، والحقيقة المثلى هي أن قيمة الكلمة أصبح يوازي قيمة الخبز جنبا إلى جنب ؛ فكلاهما يحمل التأثير نفسه ولعل تاريخ الثورات العربية عزز هذا التوازي بشكل كبير عن طريق لغة الكتابة ورسم الشعارات والفن الكاريكاتوري التي غدت طعاما معنويا يغذي الفكر والروح كما يغذي الخبز الجسد تماما . .

و كما يلي الربيع الشتاء فلا شيء يمكن أن يتوقف ، وطريق المحارب بلا نهاية ، وبعد أن يصل إلى مراده فإنه يجد تحديا آخر ، ومن المهم البدء من جديد واستخدام كل شيء تعلمه في غمار تحديه للعالم ، واضعا نصب عينيه هدفه الأسمى مدينته العظمى تلك التي يسود فيها العلم والحرية والإخاء والعدل ، وهذا ما لم يدركه سفاحي الحروف والكلمات طوال تلك القرون . .!

نحن أمام حقيقة كبيرة وكاشفة بأبعادها كما أقرها الكاتب «محمد الماغوط» قائلا : «ما من موهبة تمر بلا عقاب . .!» لهذا يوم طولب بجلد الشاعر «والت ويتمان» أمام جمهرة الناس ؛ عقابا له على ديوانه «أوراق العشب» اكتفى ويتمان بالقول : «توقعت الجحيم ونلته . .»!

وعلى هذا فإن كل كاتب سيجر ضريبة عباراته خلفه ، وبحجم كلمات الكاتب تقدر حجم محاكمته وهذا أساس الاختلاف بين كل كاتب وكاتب عبر الحياة ، صراع الكتابة لاهث في بقاعات شتى . . أفلم تكلّف رواية «آيات شيطانية» لسليمان رشدي رقبته في حقبة ما ، كما فعلت الكلمات مع الروائي الايطالي «روبيرتو سافيانو» ليكون مطاردا من المافيا في كل بقعة من العالم حتى الآن . .؟!

الكتابة صراع جبار ، لا يطيقه إلا المؤمنون بحرية أنفسهم قبل إيمانهم بحرية الكتابة ، فلا إيمان حقيقي إن لم ينبثق من تربته الأصلية ، نحن لا نستعيد الإيمان من الآخرين كما الحرية تماما ؛ لهذا فالمطاردة تظل دائرة طالما ظلت مجتمعات تسحب أكسجين الحياة الكريمة من أفرادها ، المطاردة مستمرة طالما عالمنا خاصة - العربي - يقف على أرض هشة يحكمها مصاصي الحرية والعدالة والإنسانية قبل أن يكونوا مصاصي دماء بشرية . .!

والكاتب مناضلٌ . . قدّره أن يدفع جسده ما صاغه بدم فكره وإيمانه بمبادئه في الحياة ، التي خلفت له جلادين - فارغي الوفاض - سوى من قلوب حاقدة وعقول متجبّرة لا تدين سوى بدين هواها المستبد وكل من يصفق لمنافعها الشخصية فقط . .!

مكتبة
t.me/soramnqraa

حيونة الإنسان..!

- ما الذي يدور في ذهنك عندما تقتل شخصا . .؟

- في أول مرة تكون غير واثق بأنك قادر على القيام بذلك ، لكنني لا أنظر إلى هؤلاء الناس الذين أقتلهم كبشر ولا أتساءل إذا كان لديهم أسر وإنما كل ما أريد فعله هو الحفاظ على زملائي العسكريين في أمان . .

الحوار أعلاه أجرته مجلة «تايم» مع الجندي الأمريكي السابق في قوات البحرية الأميركية بالعراق «كريس كيل» والذي قتل حوالي ٢٦٠ شخصا وقد ألف كتابا عنوانه «قناص أميركي» . .

***

«حيونة الإنسان» أي تحويل الإنسان إلى حيوان كي يبرر القناص أو الجلاد أو المعتدي قتله . .! وقد أسهب الكاتب «ممدوح عدوان» في توضيح هذا المفهوم في كتاب يحمل العنوان نفسه وقال في مقدمة كتابه : «أرى أن عالم القمع المنظم منه والعشوائي الذي يعيشه إنسان هذا العصر هو عالم لا يصلح للإنسان ولا لنمو إنسانيته بل هو عالم يعمل على «حيونة» الإنسان (أي تحويله إلى حيوان) ومن هنا كان العنوان ولعل الاشتقاق الأفضل هو «تحوين الإنسان» . .!

ترى ما الذي يجعل الآخر يحوّل البشر مثله إلى منزلة الحيوان أو تشييئه إلى أقل من الحيونة . .؟ ما هو غرض الجلاد وما هي مسوغاته

للقتل بدم بارد . .؟ هل للجلادين ضمائر أم هم مجرد عبيد مأمورون . .؟!

حشد من الاستفهامات ذرع عقلي حين قرأت اعترافات ذاك القناص الأمريكي المدعو «كريس كيل» وهالني موقفه البارد رغم أنه قتل أشخاصا عديدين بل كما روت مجلة «تايم» من أنه أكثر الأشخاص في تاريخ الجيش الأمريكي قتل ضحايا . .!

واسعفني كتاب «ممدوح عدوان» «حيونة الإنسان» الذي خصص بالتفصيل كيف يمكن أن يسوّغ الجلادون جرائمهم تجاه قاتليهم وكيف أن البعض منهم يفاخر بضحاياه وكأنه قام بعمل بطولي فذ قل نظيره . .!

ومن ضمن الأمثلة التي ذكرها كتاب «حيونة الإنسان» محاضرة .د لينغ بعنوان «الواضح» وهي المنشورة في كتاب «ديالكتيك التحرر» يشرح لينغ التجربة التي قام بها د . ستانلي ملغرام في جامعة بيل الأمريكية وهي ذات التجربة التي قدمها فيلم «أنا المقصود بإيكاروس» من اخراج «هنري فرنويل» وتمثيل النجم الشهير «إيف مونتان» تجري التجربة على البشر بهدف الوصول إلى الجواب التالي : إلى أي مدى يمكن أن يصل الإنسان في إيقاعه الأذى بإنسان آخر أو تسبب الألم له وهو الذي لا تربطه به أي رابطة سلبية أو إيجابية وحتى معرفة مسبقة أو حب أو حقد أو مصلحة . .؟

ويكون الجواب في الفيلم أن أكثر من ٦٠ ٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يصلون إلى أقصى الحدود المفترضة للقتل «طالما هناك سلطة يحترمونها أو يخافونها وهي التي توجه إليهم الأمر» . .

أما عن «المجازر الجماعية» وكيفية حدوثها بسلاسة من قبل

القتلة ؛ فقد وضّح الدكتور المشرف على التجربة كيفية اتمام العملية بذكاء دون أن يشعر كل فريق بفعلته الشنيعة ، فالدكتاتور يقوم بتوزيع المهمات والمسؤوليات . . هناك من يقومون بعمليات الاعتقال وآخرون بالتجميع وغيرهم بنقل المعتقلين بالسيارات وغيرهم أيضا بحراسة معسكرات الاعتقال وكل منهم لا يحس بأنه ينفذ مجزرة ، بل إنه ينفذ أمرا محددا صدر إليه ويتعلق بتفصيل يمكن عده منفصلا عن المجزرة ثم تأتي عمليات القتل النهائية والتي تقتضي وجود بعض العتاة الذين لا يصعب العثور عليهم أو تدريبهم أو إعدادهم لكي يصيروا ملائمين لهذه المهمة . .!

إذا منفّذ التعذيب يتم شحنه بفكر معين وعواطف وأحقاد خاصة ، يشعر معها أنه يؤدي خدمة خاصة للسلطة التي يحترمها أو يخافها أو يهابها أو للإيديولوجيا التي يؤمن بها وهذه السلطة هنا هي الحكومة أو الشعب أو الحزب أو الطائفة أو الجماعة . .

أما عن «الخصم» الذي يعتدي عليه الجلاد فإنه يصنّفه على أنه «لا إنساني» كما يقول دافيد كوبر في «ديالكتيك التحرر» و«غير الإنساني يصبح غير إنسان» وبهذا يمكن تدميره تدميرا تاما من دون أي احتمال لشعور بالذنب . .

وهذا ما يؤكده مقال للبروفيسور «رالف روزنتال» في «المجلة الأمريكية لعلم الإجتماع» قال فيه بأن الإبادة كي تنجح لا بد من توفر أربعة عناصر على رأسها أن يكون منفذوا الإبادة على اقتناع تام بصحة عملهم وبأنهم يتصفون بالامتياز العنصري والإنساني من غيرهم . . وثانيها أن يكون أمام المنفذين مجموعة تستحق الإبادة - من وجهة نظرهم - وثالثها أن توفر الأسلحة القادرة على التنفيذ بالسرعة المطلوبة

أما رابعها أن تتم العملية وسط جو سياسي ومعنوي خاص لا يكترث لعملية الإبادة وإنما يقابل هذه العملية بالتفرج عليها . .!

وتلك الأسباب بعينها حملها الجنود الأمريكيون في العراق لتنفيذ مجازرهم ودمارهم في حق البشربة وقد اعترف معظمهم أن الأمر كان أشبه بلعبة الكيم «GAME» التي يمارسها الأولاد على الكومبيوتر . .!

نعود إلى «حيونة الإنسان» حيث يوضح الكاتب «ممدوح عدوان» مدلول لفظة «الوحش» أو «الوحشية» أو «المتوحش» يوضح بأن اللغة فقيرة حين نضطر استخدام هذه الكلمات ؛ فإننا نتواطأ مع جنسنا البشري لكي نظلم الوحوش . .! فقد دلت الأبحاث والتجارب على أن ما نصفه بالوحشية هو سلوك خاص بالإنسان و«إيريك فروم» يقول إن الإنسان يختلف عن الحيوان في حقيقة كونه قاتلا ؛ لأنه الحيوان الوحيد الذي يقتل أفرادا من بني جنسه ويعذبهم دونما سبب بيولوجي أو اقتصادي ويحس الرضى التام من فعل ذلك . .!

ويضيف «ممدوح عدوان» شاهدا آخر من كتاب «التعذيب عبر العصور» ترد فيه فقرة هامة في التمييز بين الإنسان والحيوان : «فالوحوش لا تقتل المخلوقات الأخرى من أجل الابتهاج والرضى فقط والوحوش لا تبني معسكرات اعتقال أو غرف غاز ولا تعذب الوحوش أبناء جنسها إلى أن تهلكهم ألما ولا تستنبط الوحوش متعة جنسية منحرفة من معاناة أقرانها وآلامهم» . .

الحيوانات المسلحة بأنياب ومخالب والقادرة على القتل هي الأقل فتكا بأبناء جنسها . . إذ مع وجود السلاح الطبيعي القوي يوجد الكابح وهذا ما نبهه «كونراد لورانزو» في كتابه «العنف» فهو رأى أن الكابح ضد القتل يضمحل كلما كان الحيوان أكثر ضعفا وأقل سلاحا

كالحمامة على سبيل المثال لا تتوقف عند أي كابح لدى قيامها بتعذيب حمامة أخرى حتى الموت بينما يكتفي الصقر أو النسر بتحقيق الهزيمة بخصمه فلا يسترسل حتى القتل . .

النظام القمعي شاء أم أبى لا يريد أن يرى البشر أو يتعامل معهم ، ولا يهمه أن يتطور البشر ولا أن يظل البشر بشرا ، يريد أن يحوّل الناس جميعا إلى هذين النمطين من الحيوانات الأرانب أو الفئران المذعورة التي يتم تصنيعها على أيدي الحيوانات الأخرى التي هي الذئاب الشرهة للدم . . أناس عبارة عن جلود ومن دون كرامة وكما يقول «سارتر» في نعت هذا النموذج : «هذا الشخص المتميز الذي أطاش صوابه ما يتمتع به من سلطة كاملة ومن دون الخوف عليها لا يتذكر جيدا أنه كان إنسانا وإنما هو يحسب نفسه سوطا أو بندقية» . .!

أنا القانون..!

في حكاية عن «دوق روشـينغ» الذي تناول روايتـها الكاتب والباحث الفرنسي «سيناك مونكو» في كتابه «تاريخ الحب» ١٨١٧ - ١٨١٤ م فقد كان من أقوى أسياد أوسترازيا يتلهى بحرق أفخاذ جواريه المسكينات بواسطة شمعة يشعلها ويطفؤها على لحوم أفخاذهن العارية ، وكلما كن يتلوين من ألم الحروق البليغة كان يطرب لذلك ، ولكنى الأنكى بشاعة أن هذا السيد الإقطاعي لديه زخم من الفطنة ليمارس اللعب بالكلمات بحذاقة ؛ فلما تجرأ شاب وشابة يعملان في مزرعته على أن يتزوجا دون إذنه استشاط غضبا ، ومع أنه قدم لأحد الكهنة ضمانا بأن لا يفرق بينهما ، فقد زوجهما على طريقته الخاصة إذ دفنهما حيّين في نفس القبر . .!

كما اذكر مسرحية للأطفال تحكي عن ملك يصدر قرارات شاذة ؛ متبجحا أنه يقوم بالصواب في مجتمع رعيته خانعون خاضعون فيغيب الحسيب ، وحين يبالغ هذا الملك في تدشين قرارين غير مألوفين من حشد قراراته العبيطة هنا يقف الشعب معترضا غاضبا ، فيتجلى المشهد بدخول الابن الحكيم على أبيه المتغطرس قائلا له : لا أخفيك يا أبي ، الشعب كله غاضب . . فيرد الملك - كمن يتذكر - : الشعب ، الشعب . . سمعت هذه الكلمة من قبل ، من أغضب الشعب؟ فيوضح

ابنه الأمير : قراراتك يا أبي . . فيقول الملك : أي قرارات؟ قراراتي كثيرة . .! ويتابع متمتما : هي قرارات صائبة ، اتخذتها بنفسي . . فيعلق ابنه الأمير : يا أبي ، أسمعت ملكا في الدنيا يحكم على شعبه بأن يمشي على يديه .؟! فيرد عليه الملك بسذاجة : أردت أن أريح أقدامهم . .! فيضاعف الابن استنكاره : أرأيت ملكا في الدنيا ، يزج بوزيره في السجن لأنه داس خياله . .؟! فيجيبه الملك باعتباط أكبر : أنت لا تحس بي يا بني ، كسر الوزير عظامي عندما داس خيالي . .!

فإذا ما كانت هذه المسرحية من نسيج خيال كاتبه وتتبدى بها رمزية عالية عن قرارات فاعلة يعكف على إصدارها بغطرسة واضحة بعض الحكام ، لا شيء سوى مزاجية وحب التملك واعتقاد الأبدي بالتعالي والفوقية وتملك الكلي للرعية . .!

ولا أبعد عن هذه الجوقة المستبدة بالوحشية بقراراتهم الشاذة وأمزجتهم المتخبطة رئيس كوريا الشمالي الحالي الذي أصدر قرارا شاذا هو الآخر ولا يكاد يخلو من مغبة الغرابة وهو معاقبة الشعب الكوري الشمالي ؛ لأنهم لم يحزنوا بما يكفي على رحيل زعيمهم المبجل . .!

وتلك العقوبة بندها أن يقضي المواطنون أشهرا في عدة معسكرات للعمل الإلزامي عن مدة لا تقل عن ستة أشهر ؛ لأنهم لم يحزنوا بالشكل الكافي لوفاة الزعيم «كيم جونغ إيل» وحتى الفئة التي شاركت وحضرت مراسيم الرحيل لم تبك كما يجب وهذا يلمح إلى انطباع على أن حزنهم لم يكن حقيقيا . .!

ولا تقف السياسة الشاذة إلى هذا الحد ، بل تسعى إلى فرض عقوبات أخرى وإعادة تأهيل لكل من توسله نفسه ترويج إشاعات وانتقادات حول انتقال السلطة المتوارثة داخل الأسرة الحاكمة . .!

مع كل هذه القرارات ارتفع منسوب الخوف بين أفراد الشعب الذي اكتفى فقط إلى اتهام الزعيم الشاب الواعد «كيم جونغ اون» بتسببه في تعذيبهم . .!

كأنما نحن أمام نموذج تاريخي برز في فرنسا قبل الثورة الفرنسية الكبرى ، وذلك حين أعلن ملك فرنسا عملية التماهي بينه وبين القانون فأعلن : «أنا القانون ، والقانون أنا» مما فتح الباب على مصراعيه أمام أكثر من حكم «ملكي» وراثي فلقد تحول الوطن إلى ملكية خاصة فاقدة حتى للضوابط القانونية المكتوبة والمقرّ بها . .!

لا أبعد حال هذه الجوقة عن الملك الذي وصفه الشاعر الكردي «لطيف هملت» في نص من نصوصه :

«أمر الملك باعتقال البحر / فصار البحر غيما / أمر الملك باعتقال المطر / فصار المطر فيضانا

الملك أمر باعتقال الفيضان / فالتهمه السيل بأسنانه الحادة . .»

وطوبي لجسارة الفيضان . .!

اعتقلوا «جوجل»..!

سأبدأ مقالتي هذه المرة بعرض حكايات طريفة نستقي منها الحِكم والعِبر مع الإشارة أن فضاء المكاني الذي احتوى هذه الحكايات واحد ويديره عسس ومحققين وقضاة . .

تقول الحكاية الأولى أن رجلا اقتيد إلى المحكمة في تهمة لها شأن بالنشر الإلكتروني . . ولما امتثل أمام القضاء ألقى القاضي على مسامعه تهمه الساقطة عليه مما جعل الرجل ينافح عن نفسه في كلمة واحدة مجلجلة مختزلة التهمة كلها قائلا بثّقة : لكني يا سيدي القاضي كنت «أغرّد» فقط . .!

فاندهش قاضي المحكمة وهو يردد حيرته في الكلمة التي قذف بها الرجل على مسامعه : «أغرّد» . . «أغرّد» . . ما معنى «أغرّد» يا رجل . . كيف يعني «أغرّد» . .؟!

وكان على الرجل الماثل أمام القضاء أن يحكي للقاضي «المسكين» الذي لم يسبق له أن «غرّد» قط حكاية «التغريد» . .!

وقيل أن امرأة اقتيدت إلى قسم العسس بتهمة نشر مقالة . . فسألها أحد المحققين بحنَق : لماذا قمت بنشر مقالة مُغرضةً تفوح برائحة الوعي . .؟!

هالت المرأة من التهمة التي نسبت إليها وهي ليست بكاتبة أو

شاعرة إنما مجرد قارئة ؛ فردت على المحقق موّضحة حقّها بجسارة : أنا لم اكتب المقالة ولكنني عملت لها (share) فقط . .!

فتلعثم المحقق ونفخ صدره بعصبية ويقول لها : ومن هذه «شير» . . ما أصلها وما فصلها؟!

فردت المرأة على استنفار المحقق الذي جهّز الكلبشات لإعتقال «شير» قائلة : (share) تعني مشاركة يا سيادة المحقق . .!

حكاية هذه المرأة لا تختلف في تفاصيلها عن حكاية رجل ربض متهما في أحد أقسام التحقيق بتهمة نقره على زر (like)! . .

ولعل أكثر الحكايات طرافة وأشهرها في ذاك الفضاء البوليسي هي حكاية (جوجل) فالرجل الذي جُرّ متهما للتمثيل أمام المحققين كي يذود عن نفسه ابتدأ الحكاية من أولها عن (جوجل) ليعبر خلالها إلى آفاق التواصل الإجتماعي والإنساني والتعامل التقني . . وبعدما أدرك أحد المحققين بلاوي (جوجل) وعبقريته وحدة ذكائه كبرنامج تقني يشرع حتى أدق تفاصيل الكون للجميع بلا استثناء ؛ فاستشاط نتيجة لذلك غضبا هائلا وأسقط شرارة هيجانه على الرجل الذي قدّم لهم معلومات عامة عن (جوجل) مهدداً ومتوعداً : سأغلق جوجل . . سأعتقله . .؟!

عادة تميل النفس الإنسانية نحو كل ما هو طريف خاصة ما يتعلق بالحكايات ونستمتع بمغزاها حين تكون ذات طابع أسطوري خيالي ، ولكن أن تكون الحكاية طريفة وفي الوقت عينه واقعية ؛ فهنا المتعة لا يكون لها محل من الإعراب سوى في نفس العبيط . .! لكن مغزاها وأبعادها العميقة تخلّف شرخا صادما في فكر الإنسان خاصة إذا ما كان حُرّاً ومسؤولاً . .!

فـمـا سـبـق هي حكايات واقـعـيـة ليس المهم المكان ولا الـسـقف الفضائي الذي تداول فيه بقدر أهمية أن ندرك أن هناك وفي هذا الزمن الحديث والمتعولم والسابق لنفسه قضاة ومحققون لا يعرفون شيئا البتة عن عوالم التكنولوجيا ودهاليزها وهم من يقوم بالتحقيق . . وهم من يقوم بتوجيه التهم . . هم ومن يقوم بالحكم على المتهم أو المذنب أو الجاني مهما اختلفت التسمية تظل النتيجة واحدة . .!

عندما يتطور مجتمع هذا التطور يشمل كل شيء ويسحب معه أفراد المجتمع بطريقة أو أخرى ، وهذا التطور ليس وقفا على الأشياء المادية فقط بل يشمل أيضا الجوانب المعنوية فيدخل من ضمنها تطور في مباديء استحداث القوانين في المجتمع المتطور ، فعلى سبيل المثال قبل تفشي اختراع الحاسوب كان الموظفون على رأس كل الوظائف الحكومية والخاصة ملزمين بمهر تواقيعهم في سجل خاص بالحضور والغياب وبالقلم ، ومع قليل من التطور أصبح من خلال الحاسوب ، ومع مزيد من التطور أصبح بنظام البصمة وهكذا دواليك . .

نحن اليوم أمام عالم غني باستحداثات هائلة وهذه الاستحداثات شملت تطوير جانب «القوانين» تلك القوانين التي تفرضها الدولة أو تشرعها السلطة على الفرد و واقع الحال اليوم يشهد استحداث تهم وقضايا جديدة لم يسبق أن سمعنا بها قبل أن تتفشى ظاهرة مواقع التواصل الإجتماعية على سبيل المثال تهمة إعابة الذات الملكية أو الأميرية أو السلطانية أو غيرها من التسميات ، أو تهمة مخالفة قوانين النشر الالكتروني وأي تجاوز يعد الإنسان مذنبا بنظر القانون بتهم على الصعيد التكنولوجي الافتراضي . .!

وأخذت هذه القوانين مجراها بغض النظر عن مدى صلاحها أو

حدود تعدّيها في ظل تقليص حريات الفرد في المجتمع فهو موضوع ذو باع طويل، ولكن ما نريد التركيز عليه في هذه المقالة هي مسألة إصدار القوانين أو من يقوم بإصدار هذه القوانين أو من يقوم بتنفيذها أو من هم لهم الحق في استجواب أي مذنب حين يتجاوزها بفعل نص القانون الوضعي، فكل من سبق ذكرهم قبل أن يقوموا بتعميم قانون أو محاسبة متجاوز أو الحكم على أي متهم، عليهم أولا قبل كل شيء أن يدركوا معناها ويفهموا مغزى ما يقومون عليه الحدّ أو يسقطوا عليه التهمة؛ فالمحقق بأي صفة يحاسب مواطن بتهمة الكترونية وهو ليس له علاقة بالتكنولوجيا . .؟! والقاضي كيف يحاكم وعلى أي منهج أو أساس وهو يواجه صعوبة بالغة في فهم معظم المصطلحات التكنولوجية التي يتقنها شباب عصر التكنو والهيب هوب كما يطلق عليهم . .؟!

أليس الأولى قبل أن نحاكمهم أو نحكم عليهم أن نفهمهم ونفهم لغتهم . .؟! تالله أن ذلك يحل معضلات جمة ويختزل الكثير من المشكلات العويصة في المجتمعات الحالية بدلا من اقتياد المواطن كمتهم واقع عليه التهمة قبل المحاكمة جارين إياه كحيوان إمعانا في الحطّ من شأنه . .!

لو أنهم استدعوا المواطن كإنسان له حقوق وإن كان على خطأ - فجلّ من لا يخطيء - ويجلسون معه ويحاورونه بلغة حضارية محاولين استخلاص المشكلة وإدراك مبعث التجاوز وتفاديه بطرق ذكية وأساليب ترفع من شأن القطاع البوليسي في نظر المواطن والمجتمع ككل . .

سأمعّن في التركيز هنا على «القاضي» الذي يقتعد على كرسي بيت العدل «المحكمة» هذا القاضي كيف يحاكم الإنسان الماثل أمامه

وعلى أيّ أساس أو منهج وهو ليست لديه خلفية عن مسائل «التقنية» أو عن «التجاوز» وحدود هذا «التجاوز» ومداه وأثره على «المجتمع» . .؟! بل إنما هو خائض في أمر يحتاج إلى خبير «تقني» وليس خبير في «القضاء» . .! فمن باب الاقتراح كي لا تقع المظالم في أحكام القضاء أن يقوموا بتعيين «خبراء تقنيين» لهم خبرة شاملة في مجال التكنولوجيا ومجارين لأفكار العولمة وعارفين لشفرات لغة العصر . .

وقد ذهب بعض المفكرين على الصعيد الغربي أن تطوّر الغرب في رؤيته الإنسانية يكون ويتحقق مداه الكلي والشامل بقدر تطوره التقني وأن هذا الشرط ضروري للحداثة الكونية وما بعد الحداثة ؛ لأن ذلك سيعطيها المعنى التواصلي بينما عدم التمكن من التغلب على التخلف السياسي والصراع العسكري وعلى السلطة تعد من أهم العوامل التي تعيق العدالة في هذا العالم . .!

بل أين هؤلاء من قول النبي - ﷺ - حين قال عن القضاة : «الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ ، قَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ حَقٍّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَقَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ وَهُوَ لا يَعْلَمُ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ» .

ركزوا جيداً أيّها القضاة على عبارة رسولنا : «قاض قضى بغير الحق وهو لا يعلم فهو في النار» . .! وهنا معنى «الجهل» هو الذي بجهله يهلك حقوق الناس . .!

تعطيل الحواس..؟

في كتابه «الحدس أبعد من أي حس» يرى الفيلسوف الهندي «أوشو» بأن جميع حواسنا معطلة فلم يسمح لنا أن نكون طبيعيين ولذلك فقد الإنسان وقاره وبراءته وجماله وأناقته . .

«أوشو» ذهب إلى أن الحواس التي منّها الله تعالى للإنسان ضرورية ومهمة كي يعيش الإنسان سويا ويتمتع بالحياة ، ولكن في مجتمعاتنا جرى تطبيع الإنسان بوجه عام وبطرق مختلفة . . حيث جرى تطبيع الرجل لأن يكون عدوانيا وتنافسيا ومناورا وأنانيا بينما جرى تطبيع المرأة بأن تكون جارية . .!

كما هو معروف يولد الإنسان بكامل حواسه : البصر والسمع والشم والتذوق واللمس . . وتتكامل هذه الحواس كلما كبر واستطال ، لكن الملحوظة أن الإنسان حين تكتمل حواسه يسعى إلى تعطيلها جلها أو بعض منها حسبما يتوافق وطبيعة المجتمع حوله . .!

فهناك مجتمعات لها شروط معينة لقبول الإنسان رعية من رعاياها ، فمثلا تطلب منه أن يرى ويسكت كان حقا أم باطلا ما يراه ، أو تنبهه إلى أن يغلق فمه فللجدران أذان . .!

حكايات مجتمعاتنا العربية هي أشبه بحكاية الضفدع الذي قطعت رجله ، حيث يحكى أن مجموعة من العلماء الظرفاء أجروا

تجربة على ضفدع ، فقطعوا واحدة من أرجله الأربعة ثم قالوا له : «اقفز» . . فقز الضفدع . . فثبت العلماء هنا أن الضفدع قادر على أن يعيش بثلاث أرجل ، فواصلوا التجربة وقاموا بقطع رجلها الثانية ، فتبين أنها تستطيع أن تعيش برجلين ، ثم قطعوا الثالثة ، فالرابعة وقالوا له : «اقفز» لكن الضفدع عجز عن القفز . .! فتوصلوا إلى النتيجة العلمية والتي مفادها أنه عندما نقطع رجل الضفدع الرابعة تتعطل لديه حاسة السمع . .!

واضح إن «الإنسان السوبر الخاضع» هو الأكثر طلبا في مجتمعاتنا العربية ؛ فهو الإنسان الذي لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم . . هذا النمط هو مرضيّ جدا من قبل السلطات وهو نموذج للعبد الصالح الذي لا في العير ولا في النفير كما يقول المثل الشائع ، هذا النمط البشري الذي ألغى بل أقفل على كافة حواسه ؛ كي يرضي مجتمعه أو كي يعبّر عن انصياعه التام وخضوعه الكلي فيكفي أنه يأكل ويشرب وينام ولا مطمح لديه غير ذلك في الحياة . .!

السؤال الذي يدغدغ حواس من هو محتفظ للآن بحواسه الأساسية : كيف يمكن للسلطة أن تقوّض الفرد في المجتمع وتخضعه كدمية . .؟!

الجواب ربما بسيط ؛ فهؤلاء الأفراد وصلوا لمرحلة الإشباع حتى تبلدت لديهم جميع حواسهم بمعنى أوضح «تعوّدوا» على تعطيل حواسهم وتجميدها ، وفي رواية «أعدائي» للكاتب السوري «ممدوح عدوان» يرد مقطع يوضح مرحلة «التعوّد» في الإنسان فيقول : «ذات يوم شرحوا لنا في المدرسة شيئا عن التعود حين نشم رائحة تضايقنا فإن جملتنا العصبية كلها تنتبه وتعبر عن ضيقها بعد حين من البقاء

مع الرائحة يخف الضيق . . أتعرف معنى ذلك؟ معناه أن هناك شعيرات حساسة في مجرى الشم قد ماتت فلم تعد تتحسس ومن ثم لم تعد تنتبه الجملة العصبية . .»

والأمر ذاته حين نمر على سوق يلوك بالضجة ، فإن الضجة عينها سوف تثير أعصاب الإنسان ولكنه مع مرور الوقت ستصبح جزءا من الاعتيادية ، وهذا يثبت موت الشعرات الحساسة والأعصاب الحساسة في الأذن . .!

يقال في أثناء الحرب اليابانية كانت هناك ملايين الجثث اليابانية متفسخة وممزقة ومتحللة وكان النتن المتصاعد يمنع الناس من النوم والأكل والراحة ، ولكن مع مرور الوقت ألف الناس الرائحة وما عادت تأثر فيهم . .!

«فتصوروا حجم ما مات فينا حتى تعودنا على كل ما يجري حولنا . .!» هكذا ختم «ممدوح عدوان» عبارته عن ظاهرة «التعّود» وتعطيل الحواس الإنسانية . .!

والمشكلة أن هذا الفقد والتعطيل في الحواس يفقده الإنسان دون أن يشعر بفقدانها ، فهو فقْد لا يحدث ضجة كبيرة يفقد الإنسان «ذاته» فلا يشعر ولكن حين يفقد ذراعه أو ماله أو بطاقة الإئتمان فإنه يشعر ؛ هذا لأن المادي غلب الشعوري العاطفي في حياته . .!

والسلطة المقموعة لها دور كبير في تعطيل حواس الأفراد في المجتمع ، فهي تعد نشاط أي حاسة تحريضا عليها ، وعلى مصالحها ، على السلطة المطلقة التي استولت عليها . .! وواقع اليوم حافل بالتوضيح ، فالإنسان الذي يفتح فمه وكأنما فتح فوّهة الجحيم كل الجهات السلطوية حينئذ تودّ فقط إبادته . .! وكلما أصغى السمع ليفهم

ما يجري حوله ولينتبه على حقوقه المشروعة تلجأ السلطة إلى تسكيته بصوت الوعظ والتهديد والويل ؛ كي يهمد لسان الناطق بالحق . .!

وكلما سعى الإنسان في مجتمعه إلى الشعور بمسؤوليته كمواطن تجاه وطنه ، وتبدى هذا الواجب كمناداة نبيلة بإصلاح المجتمع ، وتقويمه ، وتطهيره من الفاسدين والمرتشين ، وأصحاب المحسوبية نرى أن السلطة والدائرين حول السلطة يقذفون تهما خطيرة كالخيانة والأجندة والسعي الحثيث لتشويه سمعة المواطن في وطنه كعدو للشعب ؛ لأنه رأى وتكلم ووظّف حواسه جلّها كي يؤدي واجبه ومسؤوليته كمواطن من الشعب تجاه وطنه ، ولكن السلطات تنبذ وتنفي وتلاحق وتسجن وتعّذب كل من ينافح عن حقوقه وهي السلطة نفسها التي تهتف بنموذجها المفضل والمقرب والمرضيّ ألا وهو «الإنسان السوبر الخاضع» معطّل الحواس كلياً ؛ فلا يرى ولا يسمع ولا يتكلم . .!

لكن هيهات تتمكن السلطة . . أيّ سلطة مهما بلغ وزنها وثقلها وحاشيتها أن تقضي على حواس إنسان قرر أن ينافح عن حواسه حتى آخر رمق كإنسان سويّ وحرّ . . وليس بعيدا هذا التحدي عن قول الشاعر «سميح قاسم» الذي قال : «ربما ترفع من حولي جدارا وجدارا وجدارا / يا عدوّ الشمس لكن لن أساوم / إلى آخر نبض في عروقي / سأقاوم وأقاوم وأقاوم . .»

هنيئا لكل جسور محتفظ بكامل حواسه في زمن مات فيه الضمير وتبلّدت فيه الحواس البشرية . .!

سجون أضيق من حنجرة
ومقابر أوسع من وطن..!

كلنا يعرف «أندريس بريفيك» الذي نفّذ هجوما مزدوجا في ٢٢ يوليو٢٠١١م الماضي تسبب في تفجير مجمع حكومي في أوسلو أسفر عن مقتل ٨ أشخاص ثم توجه إلى جزيرة أوتويا وقام بقتل ٦٩ شخصا في مخيم للشباب تابع لحزب العمال الحاكم وذلك بإطلاق النار عليهم مستخدما سلاحا أتوماتيكيا فحكم عليه بـ ٢١ عاما وهي أقسى عقوبة تصدر في النرويج . . توقعت وأعتقد أن كثيرين شاركوني في توقعي أن أجد أمامي «بريفيك» بعد أن قضى مدة في السجن قبل إصدار الحكم عليه ، توقعت أن أشاهده عبر التلفاز في حالة مزرية وجه مليء بالكدمات وجسد هزيل وعينان منفختان من الضرب والسهر والإهانة ، ولكن ما رأيته خالف كل توقعاتي . .! فقد وقف «بريفيك» أمام التلفاز في هيئة مرتبة ووجه يشي بالاسترخاء والراحة وجسد عريض موفور الصحة وقد زاد وزنه بضع كيلوجرامات بشكل واضح . .!

سمعنا الكثير عن السجون الغربية ولعل أكثرها عنفا ووحشية هو معتقل «غوانتانامو» ولكن أكثرها إنسانية ورحمة هي السجون السويدية ؛ ففي العام الماضي من خلال برنامج خواطر ٧ الشهير الذي يقدمه «أحمد الشقيري» خصص فيه حلقة مؤثرة عن السجون السويدية التي قام بزيارتها وعرض وسائل المتوفرة فيها والتي تظهر مدى

اهتمام القانون السويدي بالسجين، فهم يعدون السجين إنسانا له حقوق؛ لهذا سجونهم مجهزة بقاعات رياضية وأجهزة حاسوب وخطوط الانترنت والمعروف أن السجون السويدية مجهزة بسرير فردي بطول ٢٠٠ سم وعرض ٨٠ بالإضافة إلى خزانة ثياب وخزانة كتب التي يستعيرها السجين من مكتبة السجن وصحفه التي يمكن له شراءها ويحتفظ بها وطاولة مكتب صغير وتلفزيون، أصف لكم هذا الواقع السويدي وأنا أكتم حسرة مريرة في قلبي وحسراتي تضاعفت حين عرفت أخيرا أن وزير العدل السويدي «توماس بود ستروم» حريص على تفعيل قانون جديد يمكّن السجناء المنضبطين الذين لا يرتكبون أي أعمال مخالفة للقانون أثناء فترة سجنهم من قضاء نصف فترة عقوبتهم في السجن والنصف الآخر في المنزل وفوق هذا معروف أن السجون السويدية تسمح لسجنائها بالعمل أو الدراسة خارج أسوار السجن خلال فترة النهار لكن القانون الجديد يعزم منحهم حرية أكبر..!

«منحهم حرية أكبر» كل تلك الحقوق التي يحصل عليها مسجون سويدي في سجنه لا يحصل عليه المواطن العربي غير المسجون في وطنه..!

«منحهم حرية أكبر» هو سجن يحترم الإنسان ويقدر إنسانية الإنسان ويؤمن أن من يتعامل معه ليس مجرم ولا خطير بل هو إنسان ارتكب خطأ وسيصحح ولا يعني ذلك نهاية العالم..!

كما تبحرت كثيرا في تجارب المساجين وأحوال السجون في عالمنا العربي ومدى أساليب القمع والتعذيب والسعي الحثيث لحيونة الإنسان أي جعله حيوانا وتعذيبه على أساس أنه أحط من أن يكون

بشريا . . كنت اقرأ كل هذا بغصة مريرة عن عقول همجية تعاقب بني جنسها بتلك الطرق الوحشية الخالية من أي أثر إنساني ، لكني وبكل حق لم أتصور يوما أن ما كنا نشاهده أو نقرأه من تجارب الكتاب والمساجين يمكن أن نرى مثيلها في سجوننا الخليجية . . دولنا الخليجية والتي يقال عنها أنها دول حضارية ومرفهة وتعرف الإنسان وقيمته . .!

ولم أكن أتوقع أن أمرا مثيلا يجري في أوطاننا ؛ حيث المواطن السجين ما هو سوى مجرم حتى قبل إدانته والحكم عليه يعامل كالمجرمين بل يسعون حثيثا لتشويه سمعته في كل المحافل وكان لسجناء الرأي الحصة الأكبر من التنكيل والعنف ؛ فهل تستدعي تويتة من ١٤٠ حرفا أو عبارة فيسبوكية قصيرة كل هذا العنف والتخويف والوحشية . . بل كيف لسلطات تخشى من عبارة يكتبها افتراضي في تويتر أن تحمي وطنا بأكمله من أعداء واقعيين . .!

ففي الآونة الأخيرة هالنا ما قرأناه وما سمعناه وما كتبه البعض كإعتراف عن تجربة شخصية كسجين قضى فترة حكمه وآخرين على حافة انتظار حكم صادر! بل حتى طرق استدعائهم خلت عن أي أسلوب حضاري بالتعامل مع إنسان في دولة حضارية وذلك من خلال أساليب أقرب ما تكون لصوصية باختطافه من الشارع أو من المقاهي أو من السوق أو حتى عبر الاتصال بذويهم مع علمهم بأرقام المعتقلين وذلك إمعانا في ترويع الأهل . .!

يقول أحد المساجين الذي يذكرني بتفاصيل معتقلي غوانتانامو أو سجن أبو غريب : «لقد تعرضت لأقسى أساليب التعذيب ، تركوني في زنزانتي من الساعة الثانية صباحاً عند استلامي للسحور وحتى الرابعة والنصف عصراً بدون دورة مياه وبدون فرش وبدون أبسط

الواجبات الآدمية حتى أنني - أجلكم الله - اضطررت الى أن أتبول في الأواني التي اتسحر بها وبها ما بها من قذارة حارة الدماء رأيته هناك ، وذاك الملازم القوي يأمر بإدخالي الزنزانة وبمعاقبتي وهو في بيته بالرغم من أنني طلبت مقابلته أكثر من عشر مرات ولكنه أبى واستكبر وهذا من حقه . . حيث أنه لا يشعر بأي رقيب او حسيب سيوقفه عند حده . .»

ويسرد معتقل آخر بكل أسى تجربته المريرة في الفترة التي قضاها خلف أسوار الاعتقال : «طلب مني الوقوف وأن أرفع يدي إلى الجدار وأن أخلع نظارتي واضعها على الطاولة ، تسمرت واقفا هناك ودخل بعدها شخص مقنع ووضع كيسا أسودا على وجهي حتى ركبتي ، ووضع القيد على يدي من الخلف ، في تلك اللحظة أدركت أني سأنقطع عن العالم وأنني ذاهب إلى الانفرادي ، قادني بعدها السجان إلى شاحنة ووضعني وأنا مكمم الرأس مقيد اليدين في الخلف ، وبجانبي أحدهم ، وفك أحد القيود وربطه داخل صندوق الشاحنة ، من هناك يبدأ صوت الموسيقى الصاخب ، والأغاني الرديئة ، كان ذلك اليوم آخر يوم أرى فيه الشمس» . .

هذه التفاصيل الإعتقالية شبيهة بأساليب الأمريكيين حين كانوا يعتقلون المتهمين ويسوقونهم في شاحنات إلى معتقل غوانتانامو بالضبط ؛ فمن كان سيصدق أن تنتهك سلطاتنا أساليب أمريكا ووحشيتها مع مساجين غوانتانامو ثم يطبقونها بالوحشية نفسها مع شعوبهم من وراء الكواليس . .!

يتابع المعتقل حكايته : «في الزنزانة التي يبلغ طوله مترين في متر ، فراش مرمي على الأرض ، وبطانيه وبجانب الباب الحديدي

جرس لمناداة السجانين ، يظن الكثيرون أن زنزانة الانفرادي عبارة عن قضبان حديدية مثلما في السينما والأفلام ، لكنها في الحقيقة مغلقة من كل النواحي ، تفقد الإنسان توازنه ، تجعله مختلا مضطربا ، في الانفرادي يشد أذنيك رنين المفاتيح في الخارج ، تتمنى أن ترى أي علامة من علامات الحياة ، تشتاق الألوان ، الحياة ، تشتاق العالم الآخر بحسناته وسيئاته ، بفضائله وبقذاراته ، هناك في تلك الزنزانة الصغيرة تتمنى أن يزورك كائن حي ، حتى لو كان صرصورا ، في تلك الزنزانة تكون ببساطة رقما آخر لسجين تعيس ، شاء حظه العاثر أن يعود هناك مرة أخرى . . سقف هذه الزنزانة وضعت الإضاءة التي تبقى مضيئة طوال الليل والنهار ، وبجانبها السماعة التي تبث تلك الأغاني المزعجة الكريهة» .

كل هذا وأوجع يعيشها المعتقل في سجون أوطاننا ؛ فلا حقوق ولا احترام ولا انسانية سواء أكان رجل أو امرأة يمعنون في إذلالهم ويجد السجان لذة مازوشية في تعذيب السجين وكأنهم مبرمجين على العنف خاصة إذا ما كان سجين رأي ، فأي سلطة تمارسها هذه الجوقة مع جسد حي بالعبث والتشويه وحين يكون الجسد لإنسان أعزل ومسالم . .؟ وماذا نسمي من يضع إنسانا مقيدا أو عاجزا أمامه ثم ينهال عليه ضربا وتجريحا وتقطيعا ليس مباراة للفوز بل زنزانة . .؟!

مما لا شك فيه أن منفّذ التعذيب يتم شحنه بفكر معين وعواطف معينة وأحقاد خاصة يشعر بأنه يؤدي خدمة خاصة للسلطة التي يحترمها أو يهابها دون أن يأبه بقانونية ما يقترفه . .!

وليت المسألة تنتهي بخروج المعتقل من غابة التعذيب ومن علب الوحشية ، بل إنه عند خروجه تطارده أجهزة التلصص والتي تخترق

حتى أدق تفاصيل حياته الشخصية كرقم الهاتف والبريد الالكتروني ومواقع التواصل الإجتماعية وكل ما له صلة بالسجين . . هذا السجين عند خروجه يكون مكبّل بقيود إفتراضية محكمة لا تحترم الحرية الشخصية وتنزل الإنسان إلى مرتبة عدو للبشرية . .!

ولكن ما لا يدركه هؤلاء أن هذه الملاحقات ، وهذا التشكيك ، وهذه التربية السوقية والتعذيبية والتذليلية التي يعانيها السجين لن تساهم سوى في مزيد من التمرد في المجتمع ، والتمرد سيكون مشحونا بمطالب حقوقية ولا اعتقد أن حكومات اليوم نسوا أن المبعث الأساسي لشرارة الثورة المصرية سجين كان يدعى «خالد سعيد» الذي اعتقل دون وجه حق وضرب وأهين وعذّب حتى الموت ، ولكن صرخته لم تتلاشى سدى بل فجّرت أكبر ثورة في مصر وأسقطت الحكومة وغيرت التاريخ . .!

ولا اعتقد فاتهم أيضا أن رئيس كل من دولتي «تونس» و«مصر» طالما دخلا سجون رأي وطوردا ونكّل بهما ولكن في النهاية أصبح كل منهما رئيس دولة . .

لعبة «التكفير»..!

أنت «كافر» أنتِ «كافرة» . . ثقافة مستحدثة مبتدعة يستخدمها كل متشك في إيمانه ليبررها في طعن إيمان الآخر كتهمة تنفض عنه شكّه . .!

أنت «كافر» أنتِ «كافرة» . . توجه فردي يقذف في وجهك فتصنّف بها لأنك خالفت الآخر في رأيه ؛ كلمة يطلقها أحدهم تخرجك من ملّة الله عزوجل لأنه لم يفهمك ، لم يحاورك ، لم يسمعك بل لمجرد أنه اقتنع بكفرك بلا شواهد على هوى تفسيره . .!

علمونا ونحن - صغار - في المدرسة في مادة «الدين» أنه لا يجوز أن نصّف إنسانا مسلما بأنه «كافر» ومذ يومها استهجنتها حتى لـ«كافر» . .!

في الآونة الأخيرة تفشت ظاهرة «التكفير» وهي ظاهرة خطيرة خاصة إذا أطلقها مسلم على آخر بلا أدلة وشواهد ثابتة تدين الآخر ، وقد نهى ديننا الحنيف عن ذلك وقد وردت نصوص قرآنية وأخرى أحاديث نبوية ففي كتابه قال تعالى : ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ وسبب نزول هذه الآية أن صحابيا قتل مشتركا قال لا إله إلا الله عندما همّ بقتله ، فبلغ ذلك الرسول - ﷺ - فغضب وقال : «ومن رمى مؤمنا بكفر فهو

كقتله» ترجم له البخاري . . وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : «إذا قال المسلم لأخيه كافر فقد باء بها أحدهما» رواه البخاري بلفظه . .

يغيب عن الكثيرين مخاطر وتبعات تكفير إنسان بلا ضوابط كاشفة كالشمس نتائج لا تحمد عقباها على رأسها إباحة الدم والمال وفسخ عصمة الزوجية وامتناع التوارث وعدم الصلاة عليه ومنع دفنه في مقابر المسلمين . .!

لهذا حدد واجتهد العلماء في بيان ضوابط التكفير على المعين حسبما تظهر أدلة ثابتة وواضحة ومن ذلك :

١- لا تكفير إلا بإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، والمقصود بالمعلوم من الدين بالضرورة النص يقيني الورود من الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام القطعي الدلالة ولا يحتمل التأويل . . ويقول الشوكاني في هذا : «اعلم أن الحكم على المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار» . .

٢- التكفير على العموم أما المعين فيتوقف تكفيره على استيفاء الشروط وانتفاء الموانع ، ويروى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعن شارب الخمر على العموم ولما جلد رجلا شرب الخمر قام رجل فلعنه . . فقال عليه الصلاة والسلام : «لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله» فهنا وجد الرسول الكريم المانع من اللعن العام هو محبته لله ورسوله - رواه البخاري . .

٣- التمييز من الكفر الأكبر «الاعتقادي» والكفر الأصغر «العملي» والكفر الأكبر الاعتقادي هو إنكار أصل من أصول الدين

والكفر الأصغر العملي هو المعصية . .

٤- العذر بالجهل . . كما قالوا بعدم تكفير من جهل إن قوله هو كفر ودليل ذلك في السنة قول - ﷺ - : «اللهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون» . .

أما عن تكفير حرية الرأي وحرية الفكر ، فهو حديث ذو شجون وهو دأب مرير ذاق ويله العلماء المسلمون منذ الأزمان مبعثه عدم فهم المقصد أو اعوجاج رأي حول فكرة ما ومبتغى المعنى ، ولغة التفاهم الوحيدة معهم هي التكفير والقمع والنفي والتعذيب وهلم جرا والمفروض قبل الحكم الاستماع والتحاور والنقاش حول المعنى والفكرة والمفروض النصيحة والأخذ باليد إن وجد الذنب فمنهج ديننا هو التسامح ، لكن لا تجري الرياح كما تشتهي السفن . . وعلى سبيل المثال لا الحصر تحريضهم على قتل الطبري وصلب الحلاج وحبس المعري . . وسفك دم ابن حيان ونفي ابن المنمر وحرق كتب الغزالي وابن رشد والأصفهاني . . وتكفير الفارابي والرازي وابن سيناء والكندي والغزالي و السهروردي الذي قضى نحبه مقتولا . . ولم يتوانوا لحظة عن قطع أوصال ابن المقفع ثم شويت أمامه ليأكل منها قبل أن يلفظ أنفاسه بأبشع أنواع التعذيب . . والجعد بن درهم مات مذبوحا وعلقوا رأس أحمد بن نصر وداروا به في الأزقة وخنقوا لسان الدين بن الخطيب وحرقوا جثته وكفروا ابن الفارض وطاردوه في كل مكان . .!

وكما قال «الكواكبي» : «ألفنا أن نعتبر حرّية الفكر كفراً» . .!

أيها الفمّ إنك فوّهة الجحيم..!

اللسان هو أطول الطرق ، فإن رسمت دربا سينتهي مصبه ولكن لا نهاية مع لسان يغدو في كثير من الأحيان أطول من قامة صاحبه . .!

ومهما بلغت خطورة الأسلحة النووية التي اخترعتها البشرية طوال الأزمان يظل اللسان هو السلاح المدجج بكافة نوويات العالم . .!

طوله سلاطة وقصره قد يكون جبنا من مغبة إطلاقه ، يحتار المرء أيربيه أم يقطعه مرة بعد مرة . .؟! ولا حظّ في ذلك سوى لصاحب عرف عنه رزانته ، ففي الحق لسانه شعاع منير وفي الباطل لسانه فرس يستحث الخطى لنأي الشرور ، أما في المحبة والسلام فلسانه شجرة وارفة يستظل حواليها كافة البشر . . صغارهم وكبارهم ، إناثهم وذكورهم . . فللّه درّ هذا اللسان . .!

وقد كان قديما يستبين على عقل الرجل من ثمانية أمور فكان سابعها : أن يكون قادرا على لسانه فلا يلفظ من الكلام إلا ما قد روّى فيه وقدّره . .

يعد اللسان عضوا أساسيا في المضغ والبلع والكلام فهو يحتوي على سبع عشرة عضلة ، وقد تشعب العلماء قديما في ذكر محاسن اللسان حيث عدّد ابن سينا وظائف اللسان واسترسلها في قوله : «اللسان عضو من الفم وهو من آلات تقليب الممضوغ وتقطيع الصوت

وإخراج الحروف وإليه تمييز الذوق ، وفيه أعصاب كثيرة متشعبة فوق ما يتوقع من مثله» . .

بينما يرى الجاحظ في رسائله إلى أن : «اللسان ترجمان القلب» . .

وانشد العرب قديما :

لسانك لا تذكر به عورة امرئ
فكل عورات وللناس ألسن

فالكلام الذي يجرى على اللسان حكايته حكاية ؛ فقد يكون هذا اللسان حكيما ، شاعرا ، خطيبا مفوها ، ناطقا للحق ، ناشرا للخير ، ساعيا إلى العدل ، داعيا للحب . . وقد يكون مذموما يصّوب كافة أعضائه السبعة عشر ويطلقها في وجه الشتائم والقذف واللعن وإفشاء الأسرار وغرس الفتن وقد يكون صانع الفضائح والويلات وإرساء الخراب بين الديار . .الخ .

وقد حذر رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - من مغبة اللسان حين أعلن بأن : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» . .

وقيل قديما بأن اللسان يسأل الأعضاء في كل يوم فيقول : كيف أنتن؟ فيعلّن : بخير إن تركتنا . .!

هذه العضلة الصغيرة في جوف الفم رهينة لها الإنسان تتحكم به ورغم بساطتها ؛ فهي أحدُّ من السيف وقد يصرع بصاحبه لسلاطته فإن سلّطه للخير كان للخير وإن سلّطه للشر كان للشر . .!

وثمة أمثلة كثيرة في تاريخ البشرية كان أصحابها ضحايا ألسنتهم ولعلنا نذكر عالم الفلك «غاليليو» حينما أقّر بحقيقة دوران الأرض حول الشمس فطلب منه رجال الكنيسة أن يسحب كلامه تحت طائلة

الإعدام ، فاضطر نتيجة التهديد أن يسحب حقيقة من حقائق الكون أمام جمهرة الناس ولكنه خارج المحكمة أدلى بكلمته المعروفة : «ومع ذلك فهي تدور» . .!

و«المتنبي» الذي كان شاغل الدنيا ومالئ الناس كان مقتله ما بين فكّيه حينما سلّط لسانه هاجيا «ضبة بن يزيد الأسدي» بقصيدة شديدة ، فلما كان عائدا يريد الكوفة وكان في جماعة منهم ابنه مجسّد وغلامه مفلح ، لقيه «فاتك بن أبي جهل الأسدي» وهو خال «ضبة» فلما رآه المتنبي أراد الهرب منه فقال له ابنه : أتهرب وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال «المتنبي» : قتلتني يا هذا ، فرجع فقاتل حتى قتل . .!

وثمة شراكة عميقة ما بين لسان المرء وأذنيه ؛ ولعل حكاية الضفدعتين تفسر مآل هذه الشراكة : يحكي أن مجموعة ضفادع كانوا يقفزون مسافرين بين الغابات وعلى حين فجأة وقعت ضفدعتان في بئر عميقة ، فتجمهرت الضفادع حول البئر ولما شاهدوا مدى عمقه صاحوا أسى بالضفدعتين موضحين لهما بأن لا فائدة من محاولة النجاة فهما هالكتين لا محالة . .!

وإحدى الضفدعتين تحت ضغط هتافات المحبطة للجمهور الخارج قبض عليها اليأس فأذعنت للاستسلام وقضت نحبها ، لكن الضفدعة الأخرى ظلت بجل طاقاتها تقفز باستمرار حتى أوصلتها إحدى قفزاتها السريعة إلى خارج البئر وعند ذلك سألها جمهور الضفادع بعجب : «أتراك لم تكوني تسمعين صياحنا» . .؟!

شرحت لهن الضفدعة أنها مصابة بصمم جزئي ؛ لذلك كانت

تظن وهي في الأعماق أن قومها يشجعونها على إنجاز المهمة الخطيرة طوال الوقت . .!

ألا تقول لنا الحكاية : بأن قوة الموت والحياة تكمن في اللسان فكلمة مشجعة لمن هو في الأسفل قد ترفعه إلى الأعلى وقد تضخ فيه الحياة بل تضخ قوة الحياة فيه . .!

صدق «جلال الدين الرومي» حينما أشهر أصابع الاتهام إلى اللسان قائلا : «أيها الفم إنك فوّهة الجحيم» . .!

ما أكثر ضحايا اللسان في كل زمان ومكان ، ولكن هل هذا حجة في أن نجعل ألسنتنا شياطين خرساء نربطها أو نقصّها عن قول الحق وإن كان السكوت يزن قنطاره من ذهب . .؟!

سؤال يجري على ضمير كل لسان له ضمير نابض بحس الحياة . .

غرفة في البيت الأبيض

حين تقتلك الكلمة وتحييك ؛ فاعلم كإنسان أن الكلمات حياة وموت كما أنها كرامة وعدل وحرية . .!

نواربيل ومعلوف يتحدثان
عن أوروبا واختلال العالم

تحيلنا مسألة الهوية واثبات الذات حتما إلى إشكال أعمق وربما أخطر هو الصراع بين الشعوب لتكريس الثقافات ، الأمر الذي أنتج نوعا من الازدراء الناجم عن نظرة البعض إلى الآخر وتصنيفه في سلم متعدّد الدرجات . .

في كتاب «شوكولا مهرّج أسود» للمؤلف جيرار نواربيل وهو مؤرخ فرنسي عمل لعدة سنوات في مجلس إدارة شؤون الهجرة ثم استقال منها في عام ٢٠٠٧ ، وجاءت استقالته احتجاجا على إنشاء وزارة فرنسية جديدة باسم «وزارة الهوية الوطنية» وتحددت مهمة هذه الوزارة بكيفية المحافظة على صفاء الهوية الوطنية الفرنسية وهذا يعني بدقة عدم السماح للمهاجرين وخاصة للسود والمسلمين المساس بالهوية الوطنية الفرنسية . .!

و«شوكولا» هنا هو مهّرج أسود مسرحي بارز لم يكن سوى أحد العبيد السود الذين كانوا يعيشون في الجزيرة الكوبية وقرر الهرب منها إلى أوروبا و المؤلف نواربيل يحكي تاريخ ظلم العنصرية الفرنسية من خلال شخصية «شوكولا» وأبسط أشكاله دفن «شوكولا» في مقبرة أحد الأحياء المهاجرين السود ولم تتم اللحظة الراهنة بينما المهرج الأبيض المدعو «فوتيت» فإنه دفن في مقبرة «بيرلا شيز» والتي تضم

رفات أكبر أدباء وفناني فرنسا ويجد ذكره في جميع الكتب التي تهتم بعالم المسرح والسيرك . .

وقبل إنشاء وزارة «الهوية الوطنية» الفرنسية أشار الكاتب «أمين معلوف» في كتابه «هويات قاتلة» إلى أن الفرنسيين باتوا لا تثيرهم العولمة ولا انترنت وذلك ناجم عن خوف أن هذا يؤثر على مكانتهم غدا وثقافتهم ولغتهم ومنهم يرون أن العولمة مرادفة اليوم للأمركة ؛ لهذا يمتعضون من افتتاح مطعم للوجبات السريعة في حيّهم وحانقون على هوليوود والـ«NN» وديزني والميكروسوفت ويطاردون في الصحف أية صيغة يُشتبه أنها تتسم بالطابع الإنجليزي . .

كل ما سبق عن «فرنسا» وهي جزء مهم في قارة أوروبا كأهميتها في الإتحاد الأوروبي ؛ لهذا يدفعنا تساؤل حاد ومتشعب : ما الذي أوصل فرنسا كمثال لمجمل أوروبا إلى هذا المستوى الحضيض من القلق تجاه كل ما هو خارجي . .؟ ما مبعث الحساسية المفرطة تجاه كل منتوج لا يمثلها شخصيا . .؟ وهل هذا قلق واقعي وحقيقي أم عابر وما تأثير هذا القلق . .؟

في كتاب «اختلال العالم» يطل علينا الكاتب «أمين معلوف» ليحكي لنا في بدء فصول الكتاب عن تخوّفه الشديد تجاه ما يحدث في قارة أوروبا ؛ فهو يرى أن أوروبا ضيعت معالم طريقها لحظة انتصارها فحين انهار جدار برلين انتهت المجابهة بين الغرب والاتحاد السوفياتي وذلك أبعد خطر حصول زلزال نووي كان جاثما برعب طوال أربعين عاما . .!

أوروبا مذ حينها غدت حلما يطوق إليه كثير من الشعوب يدنون منها مبهورين كما لو أنها جنة الله على الأرض ، فهاجر إليها كل ما

هب ودب وهنا أمين معلوف يركز بقوله : «كان عليها أن تسأل عن من تضم ولأي غرض . .؟ ومن كان عليها أن ترفض ولأي سبب . .؟» هذا القبول العشوائي جعل أوروبا اليوم تسأل عن هويتها وخصوصيتها ، والقلق الأوروبي وضياع وجهتها يرى معلوف أنها جديرة بالقلق وهذا القلق شامل ويفسر لنا أسباب قلقه على قارة أوروبا تحديدا دون غيرها ، وأولى تلك التفسيرات هي أن أوروبا تقدر خيرا من غيرها ضخامة التحديات التي يجب أن تواجهها البشرية ؛ لأنها حاملة مشروع تجميعي وانشغال أخلاقي شديد وإن كانت كما يرى معلوف تترك بعض الأحيان انطباعا بأنها تضطلع بها دون اكتراث . .

أما بقية العالم العربي - الإسلامي يغوص أكثر وأكثر في بئر التاريخية يبدو عاجزا عن الصعود منها ، وهو حاقد على الأرض كلها الغربيين والروس والصينيين والهنود واليهود إلى آخره وعلى ذاته بالدرجة الأولى كما ذهب «معلوف» . .!

أما البلدان الأفريقية هي باستثناء حالات نادرة غارقة في حروب أهلية وأوبئة ومتاجرات قذرة وفساد شامل وانحطاط للمؤسسات وتفكك للنسيج الاجتماعي والبطالة الكثيفة والقنوط . .

وتعمل روسيا بشق النفس على الإبراء من سبعين سنة من الشيوعية ومن الطريقة الفوضوية لخروجها منها ويحلم قادتها باستعادة قدرتهم فيما لا يزال سكانها يذوقون طعم الخذلان . .

أما الولايات المتحدة فبعد أن صرعت عدوها العالمي الرئيسي وجدت نفسها تخوض غمار مشروع هائل ينهكها ويدفع بها إلى التيه وإلى أن تروض بمفردها أو تقريبا بمفردها كوكبا يستحيل ترويضه .

حتى الصين التي تصعد لديها أسباب للقلق ، ومن خلال ما

عرضه «أمين معلوف» يجعلنا ندرك تبئير الوضع العالمي ؛ فجميع شعوب الأرض في مهب العاصفة بشكل أو بآخر سواء كنا أغنياء أو فقراء . . مستكبرين أو خاضعين . . محتلين أو تحت الاحتلال . . فجميعنا على متن زورق متصدع سائرين إلى الغرق معا ، لكن الجميع مشغول بالمشاحنات ولا يكفون عن تبادل الشتائم والتهم غير آبهين بتعاظم أمواج البحر . .

ثم يضعنا معلوف بين مأساتين إحداهما شرقية والثانية غربية ، أما الشرقية تسلط المشكلة على مأساة العرب في كونهم فقدوا مكانهم بين الأمم وشعورهم بعدم القدرة على استعادته . .

أما المأساة الغربية هي اضطلاعهم بدور عالمي مبالغ فيه باتوا على المضي في ممارسته بشكل كامل ولكنهم عاجزون عن التخلي عنه ، وهذا الغرب بحد ذاته أعطى البشرية أكثر مما منحتها أي حضارة أخرى في حقول عديدة في المعرفة والإبداع والانتاج والتنظيم الاجتماعي وهلم جرا . . وقد برهن نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي عن تفوقه ولكن انتصار «النموذج الغربي» في الميدان الاقتصادي هو في حد ذاته أدى إلى إضعافها كما ذهب معلوف . .

فقد برز نموذجان متعاظمان اقتصاديا كـ«الصين» و«الهند» وهما في موقع متنافس نهضتا كلاهما بصمت وبلا ضجيج ، وهما ماضيتان لتغيير توازنات العالم بشكل مديد وكلاهما يشكلان مزاحمين مخيفين وعدوين محتملين ، فهاتين الحضارتين مع مرور الزمن وفي مدى جيل أو جيلين سوف ينتقلان من التقليد إلى التكييف ثم الإبداع وهما متأهلتان لذلك وقادرتان بعد احتكار التفوق الأوروبي الغربي على مدى قرون . .

بل إن هذا التفوق واللجوء إلى التقليد الأوروبي خلال تلك السنوات الطويلة جعل أوروبا تفقد خصوصيتها وهذا يشكل مأزقا حقيقيا ليس في تجاوز حضارة بقدر ما هو فقدان خصوصية وتفوق . .

وهذا سوف يزعزع عرش «الرجل الأبيض» بصورة جدية وعلى يد شعوب كان الغرب يراها متأخرة وأقل ابتكارا وعلى يد عالم كانت تسميه بالعالم الثالث . .

أوروبا اليوم بين نارين . . بين نار آسيا ونار أمريكا وعليها أن تتقدم بسرعة وسط المنافسة التجارية والمنافسة الاستراتيجية من جانب أمريكا المتفوقة في القطاعات الطليعية كالطيران ومجمل الصناعات التي تنتج أدوات حربية ناهيك عن عجز أوروبا في الهيمنة على مصادر التموين بالنفط والغاز المتمركزة في الشرق الأدنى وفي روسيا بصورة أساسية . .

أمين معلوف في كتابه «اختلال العالم» يضع قارة أوروبا في قارورة ضوئية مشعة يوّد لو يحكم عليها الغطاء ؛ كي لا تشملها عوامل السلبية التي تحدث في بقية العالم وقد بين أسبابه في ذلك ولكن يبدو أن ذلك محال . .

فأوروبا اليوم مثلها مثل بقية العوالم في العالم تعاني مثلها و تسعى إلى الحفاظ على خصوصيتها التي بدأت فعلا في فقدها بعد أن فتحت الأبواب للجميع ؛ ففي الماضي هويتها كانت شاملة ومنحتها بسهولة للجميع ولكن عندما تفشى عدد المسلمين في بقعتها جعلها هذا تراجع حساباتها وبل تخالف الديمقراطية التي تعّود منها العالم خاصة العربي الإسلامي ، فأخذت تفرض قوانينا على المسلمين وأخذت تضيق الخناق على الهجرات وأصبحت حذرة من كل ما يأتيها

من رياح التغيير ومن مصادر ليست أوروبية خاصة . .

وغدت تلملم هويتها وذلك من خلال انشاء وزارات مختصة بالهوية الوطنية ، أي بالمجمل الواضح مثلها مثل العالم العربي الإسلامي الذي كان يريد التأورب وفي الوقت نفسه لا يريد الخضوع لسيطرة الدول الأوروبية التي كانت مسيطرة على بلدانها . .

وأوروبا اليوم لا تريد أن تخسر رهان الديمقراطية التي عرفت بها طوال قرون خروجها من عصور الظلامية إلى نور الانفتاح في أن تضيّقها أو تضعها على أرجوحة غير ثابتة في مبادئها فتمنع وتقمع وتفرض عنصريات تارة وتارة أخرى تقّر للعالم بأحقية الحريات . .

مما لا شك أوروبا اليوم تحيا صراعا لم تكن تتخيله يوما فهم كانوا يعتقدون أن «نهاية التاريخ» يكون حين يذوب العالم كله سلميا في قالب الغرب الظافر ولكن تاريخ اليوم يقول ويشهد بغير ذلك . .!

هيمنة أمريكا واختلال العالم..!

قال الروائي الأمريكي «هنري ميللر» مرةً عن أمريكا : «أنا أرى أمريكا مثل مرض منتشر . . أنا أرى أمريكا لعنة سوداء على العالم . .»!

«العرب فرحوا كثيراً بسقوط الاتحاد السوفياتي ، لكنهم حزنوا عندما وجدوا أن العالم أصبح في يد قطب متحكم وحيد وهو أمريكا ، فترحموا على الحرب الباردة . والآن يعود التوازن إلى الساحة الدولية بصعود قوى جديدة تنافس القطب الأمريكي . أيهما أفضل أن يكون العالم بيد قوة مهيمنة واحدة أم أن يكون هناك توازن قوى كي يمنع توحش وانفراد قوة واحد بالعالم؟»

هذا ما عرضة الإعلامي في قناة الجزيرة الدكتور «فيصل قاسم» على صفحات تواصل الإجتماعية في التويتر والفيس بوك وهو بدوره يدفعنا للتساؤل : لماذا وكيف ومتى أصبحت أمريكا على رأس زعامة العالم اليوم . .؟!

ذهب «أمين معلوف» في كتابه «اختلال العالم» إلى عرض منشور للمؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» والذي قسم العالم من خلال نظرة شاملة للبشرية إلى ثلاث مراحل وعرضها بالتفصيل في اثني عشر مجلدا ضخما تحت عنوان «دراسة التاريخ» أما المرحلة الأولى ما قبل التاريخ كانت حياة البشر وحيدة النمط في كل مكان ؛ لأن الاتصالات

كانت بطيئة ووتيرة التغير أكثر بطئا أيضا . . أما المرحلة الثانية والتي دامت حوالي أربعة آلاف وخمسمائة سنة من آخر مرحلة ما قبل التاريخ حتى السنة ١٥٠٠م قبل الميلاد كان التغير أسرع من الانتقال مما أحدث تفاوتا شديدا في المجتمعات البشرية . . أخيرا مرحلة الثالثة منذ القرن السادس عشر تزايدت سرعة الاتصالات وبالتالي سرعة التغير وتوحدت البيوت على الأقل تكنولوجيا واقتصاديا . . ومنذ توقف الحرب الباردة في آخر الثمانينات أخذ التطور الذي وصفه توينبي نحو حضارة إنسانية موحدة يجري على وتيرة مختلفة تماما وفي بيئة استراتيجية متبدلة بوضوح فقد وجدت حكومة ، هي حكومة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها مكلفة في الواقع بأداء دور سلطة عالمية وباتت منظومة قيمها القاعدة المسكونية وأمسى جيشها الشرطي العالمي وحلفاؤها تابعين وأعداؤها خارجين على القانون وهو وضع لا سابق له في التاريخ . .

ما الذي أهلّ أمريكا لتصبح حكومة عالمية . .؟! مما لا شك أن تطور وسائل الاتصالات دور قوي جدا في تغير شامل في بنية العالم ، وقديما كانت ثمة أمم وحضارات تحكم العالم كالإمبراطورية الرومانية وكانت تمتد بعيدا بحيث لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها والإمبراطورية الإسبانية في القرن السادس عشر والإمبراطورية البريطانية في قرن التاسع عشر وغيرها والمعروف أن الإمبراطوريات السالفة لم تحز على وسائل تقنية التي كانت تسمح لها بأن تتدخل كما تشاء في طول الكرة الأرضية وعرضها ولا بأن تعيق قيام دولة منافسة . .

وبات اليوم مع تطور وسائل الاتصالات العالم بكامله تحت فضاء سياسي موحد تحت جناح أمريكا ، وهناك عوامل ساهمت بقوة في

تزعم أمريكا عرش العالم وذلك من خلال قدرتها الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية هذه العوامل في زمن ما اكسبتها شرعية عالمية ، ولكن هذه الشرعية نفسها بدأت اليوم تتراجع خاصة بعد حرب أمريكا على العراق وأفغانستان . . وهنا نشير إلى أن أمريكا قبل ١١ من سبتمبر ليس كما بعد ١١ من سبتمبر في رؤية العالم على الأقل ، ولكن إذا رجعنا للواقع سوف نرى أن أمريكا جرت على يديها عدة حروب ومجازر قبل أحداث ١١ من سبتمبر ؛ ففي ديسمبر عام ١٩٨٩ م بعد مرور ستة أسابيع على سقوط جدار برلين تدخلت أمريكا عسكريا في باناما ضد الجنرال نورييغا ثم حرب العراق الأولى عام ١٩٩١م والتدخل في الصومال وهايتي وحرب البوسنة غيرها من المداهنات العسكرية ، فعلتها أمريكا في ذاك الوقت لتثبت للعالم الأجمع أنها الآمر في هذا الكوكب وعلى الجميع إطاعتها . .!

بينما جاءت أحداث ١١ من سبتمبر لتكون حجة تشجب عليها جرائمها ، فلقد ألقي قفاز فتاك في وجه أمريكا وقد شهد العالم ردود فعل المتسلسلة على ذلك غزوات وانتفاضات وإعدامات ومجازر وحروبا أهلية واعتداءات صارخة أنهكت دولا وحضارات . .!

وأمريكا اليوم مضطرة للحروب وغير قادرة على التراجع عن ذلك ، فبعد أن صرعت عدوها العالمي الرئيسي وجدت نفسها تخوض غمار مشروع هائل ينهكها ويدفع بها إلى التيه وذلك أن تروض بمفردها كوكبا يستحيل ترويضه كما يرى «معلوف» . .

وأسباب حروب أمريكا اليوم هي حصة تدني الغرب النسبية في الاقتصاد العالمي حسبما ابتدأ قبيل انتهاء الحرب الباردة وحمل عواقب خطيرة والذي جعل الدول الغربية على رأسها واشطن تحافظ بواسطة

التفوق العسكري على ما لم يعد يمكن أن تحافظ عليه بواسطة التفوق الاقتصادي ولا بواسطة السلطة المعنوية . . واليوم مع التراجع الاقتصادي غدا استخدام السلاح أمرا عاديا كي تحافظ على هيمنتها وسيطرتها ، فالملاحظ للعيان أن تدخلات أمريكا جعلها تنحدر اقتصاديا ولا تكف عن الاستدانة وتعيش بشكل واضح على مستوى يفوق طاقتها ولكن لأنها تحوز تفوقا عسكريا فقد عمدت إلى استغلال هذه الورقة الرابحة كي تعوض فقدان قدرتها في الميادين الأخرى . . فهي لا تنفك تهيمن على العالم رغم كل الظروف التي تمر بها ولا مجال للتراجع فهي لن تسمح لغيرها في إحكام قبضته على العالم خاصة موارد النفط وأهميته لنهوض اقتصادها ، وهي لديها قاعدة تسير على منوالها لو أنها تخلت عن الهيمنة وفسحت المجال لقوى منافسة فلسوف تخسر زعامتها وتنساق في سيرورة من الإضعاف والإقفار . .!

بعد حرب العراق بغض معظم العالم أمريكا بقيادة الرئيس بوش فقد أفلست أخلاقيا وبغضوا إعادة ترشيح بوش ولكن الشعب الأمريكي أعاد ترشيحه ، وبعد أعوام مضت ظهر رجل نال مبدئيا رضى العالم ورشحه الأمريكان . . في قضايا الترشيح تبادر إلى ذهن الكاتب «أمين معلوف» معضلة انتخاب رئيس الولايات المتحدة اليوم ، فبما أن أمريكا تتحكم في وضع العالم وتمس مصيرهم وبالتالي فالذين ينتخبونه يجدون أنفسهم مكلفين بأداء دور لا يخصهم قانونا ؛ لأن خياراتهم تتبدى غالبا ذات تأثير حاسم في مستقبل الآسيويين والأوروبيين والأفارقة والأمريكيين الجنوبيين «معلوف» عرض الفكرة . . فكرة مشاركة الآخرين من العراقيين والكولومبيين والصينيين وغيرهم في انتخاب رئيس أمريكا ثم استبعد الفكرة ، ولكن ذلك لا يمنع أن

نفكر نحن كقراء وكمتابعين في هذه الفكرة وطرحها على مستوى العالم ، فأمريكا اليوم تتدخل في كل صغيرة وكبيرة في شؤون غيرها وعلى مستوى عالمي . . فلماذا لا يكون من حق العالم نفسه والذي تحت جناح أمريكا في أن يكون لهم حق كالأمريكيين في انتخاب رئيس أمريكا . .!

ولو ألقينا نظرة شاملة على عالمنا اليوم لرأينا أن معظم الحكومات أول غاياتها هي أن تجعل نفسها مقبولة عند الدول العظمى على رأسها أمريكا ورضاها أهم من مصالح شعبها ورضاه ؛ كي يحتفظ بالحكم لهذا فقدت هذه الحكومات اليوم شرعيتها في نظر شعوبها بينما أمريكا هي أيضا تعاني من المشكلة نفسها فقدان شرعية من عدم اقتناع العالم بأعلويتها وزعامتها ، ولهذا البشرية في حالة حصار ولكن الفارق أن شرعية أمريكا لا تشكل فارقا ذات تأثير عليها مقارنة ببقية حكومات الدول والتي إن فقدت رضى أمريكا وموافقتها عنها لسقطت سقوطا مدوياً . .!

ويرى «معلوف» أن أمريكا لن تستعيد شرعيتها من قبل العالم كله إلا إذا فلحت في أن تعمل في مصلحة العالم الأجمع وليس في مصلحتها فقط ، فالمطلوب هذه المرة لا يقتصر على تنشيط الاقتصاد وإعادة الاعتبار إلى بعض الاهتمامات الاجتماعية بل المطلوب بناء واقع عالمي جديد وعلاقات بين الأمم جديدة ونمط لأداء العالم جديد يضع حدا للاختلالات الاستراتيجية والمالية والأخلاقية والمناخية ولكي تتمكن القوة العظمى من الاضطلاع بهذه المهمة العملاقة ينبغي لها أن تستعيد شرعيتها ، قطعا لأمريكا اليوم منافسون وأعداء ، لهذا إن أرادت الحفاظ على مركزيتها العظمى فعليها أن تكون متصالحة مع

ذاتها وعليها أن تمارس دورها العالمي في حدود احترامها للآخرين وأن تسعى إلى غرس مفهوم التعايش بينها والأمم الأخرى بشكل حقيقي وفاعل أي بمعنى أكثر أناقة «اختراع رؤية جديدة للعالم» . .

فهل ستبقى الهيمنة الأمريكية كما هي أم تتراجع فوق ما بها من شرعية متأرجحة . .؟! أقول هذا وأنا اقرأ خبر صدور كتاب الرئيس الأمريكي «أوباما» الجديد «اخدعني مرتين» والذي كتبه كي يمنحه الأمريكيون فرصة إعادة ترشيح أخرى وكي يكسب شرعية العالم ؛ فالكتاب يضمن مخططاً عاماً لاستخدام ما يسمى «بالأجندة الخضراء» لإعادة توجيه التمويل المخصص للدفاع ، فوفقا لدراسة بعنوان «تغير المناخ والهجرة ، والصراع» هناك عدة سيناريوهات للتصدي للأزمات المعقدة في القرن الـ٢١ ويتضمن هذا مبادرة لإعادة توجيه واستخدام ثروة أميركا بإعادة توزيع الموارد إلى البلدان النامية ؛ كي تستفيد من تجارب أمريكا . . وبالتالي هذا اعلان صارخ عن زعامة أمريكا وسعيها الحثيث لضخّ هيمنتها بشكل قاطع ولكن هذه المرة بحجة اختلال البيئة المناخية وتأثيره على العالم الأجمع فهل نيتّها صادقة هذه المرة أم أنه مجرد ركوب الأمواج ونهب ثروات العالم الآخر . .؟! التاريخ القادم وحده سيأتينا بالخبر اليقين وإنا منتظرون . .!

القومية واختلال العالم..!

بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي كشرّ وجه العالم عن دولة أخرى تسعى إلى إحكام قبضتها على جميع الدول وهيمنة نفسها وهي أمريكا كما وضحنا في المقالة السابقة، وقد مُني العرب بخيبات تاريخية كثيرة ومتراكمة خلّف عن نفسيات محبطة وأخذوا بيأس يترقبون الفرج بصمت مريب وبائس هو آخر، وفي مثل هذه الظروف انفقأ الفرج بالنسبة لهم في شخص رجل جاء حاملا معه ليس خطابه القومي فحسب بل أحلام وطموحات وآمال كل عربي في ذلك الوقت . .

هذا الرجل هو «جمال عبدالناصر» جاء وجاءت القومية معه ويُعد صعوده أهم حدث في تاريخ العرب منذ قرون . . فالعالم العربي في بداية الخمسينات كان خارجا للتو من العصر الاستعماري وكان المغرب لا يزال تحت السلطة الفرنسية وإمارات الخليج خاضعة للتاج البريطاني وإذا كانت بضعة بلدان قد نالت استقلالها، فإن الاستقلال كان شكليا صرفا وعلى رأسها مصر التي كانت تحت حكم الملك فاروق والذي عرف بالملك الطفل؛ لأنه كان أشبه ما يكون بلعبة في يد الإنجليز وهذا ما سبب غضبا وهياجا صارما من الشعب عليه ونتيجة أسلوب عيشه وفساد محيطه وتساهله مع الانجليز وانهزام جيشه المخزي

أمام اسرائيل عام ١٩٨٤ م كل تلك الأسباب الجامعة هي من هيأت الانقلاب العسكري الذي قاده الزعيم «جمال عبد الناصر» ونجح فيه برضى جماهيري مصري وعربي واضح ، فهو وضع حدا للنظام السابق واستكمل الاستقلال بالتخلص من النفوذ الانجليزي كما أنه وعد جماهيره العربية باستعادة فلسطين من اليهود ومن أصبح معبود الجماهير العربية وبرق نجمه عاليا خاصة عام ١٩٥٦م عندما نشبت أزمة السويس ؛ لأنه أقدم على تحدي الدول الاستعمارية الأوروبية وخرج من هذا التحدي ظافرا . .

مما لا شك مرحلة جمال عبد الناصر كانت حازمة ، فلقد دقت أزمة السويس ناقوس وفاة العصر الاستعماري وبات العالم يعيش في عصر آخر مع دول أخرى وقواعد لعبة أخرى ، وبما أن عبدالناصر كان الكاشف لهذا التحول ولأنه خرج رابحا من تلك المبارزة فقد تحول بين ليلة وضحاها إلى وجه كبير على المسرح العالمي وبالنسبة إلى العرب أحد أبطال تاريخهم الكبار . .

ولكن عصر عبدالناصر لم يكن عصرا ذهبيا ، والكاتب «أمين معلوف» يوضح ذلك فالزعيم المصري مما لاشك أصبح أسطورة يحتذى ويسير على نهجه كثير من الزعماء ولعل على رأسهم العقيد «قذافي» الذي كان منطلقا بالقومية في أول فترة حكمه ولكن سرعان ما حاد عن طريقه وهلك نتيجة ذلك على يد شعبه . . أما الرئيس المصري «عبدالناصر» من يخرج بلاده وفق «معلوف» من التخلف ولم يحسن إقامة مؤسسات سياسية عصرية ومشاريعه الاتحادية مع الدول الأخرى منيت بالفشل وتوج كل هذا بهزيمة عسكرية مدوية أمام إسرائيل ورغم كل ذلك ورغم تذبذب مراحل نجاح وفشل «جمال عبدالناصر» ظل

انطباع عند العرب في مرحلته أنهم صنعوا تاريخا ولم يكونوا مجرد كومبارس عاجزين وتافهين ومحتقرين ووجدوا في «عبدالناصر» زعيما يحمل ثقل خيباتهم المريرة طوال تلك الأعوام وطالما أنه كسب شرعية من الجماهير المصرية والعربية ، فإن كل التقصيرات التي نجمت في عصره لم تؤخذ بالحسبان ، فهو وقف في وجه الاستعمار الأوروبي في أزمة السويس وأعاد جزءا من الكرامة العربية بوجهة نظرهم . .

ولعل الأهم من ذلك هو رفضه الخضوع للاستعمار الأوروبي بشكل عام وهو ما تساهل معه الحكم السابق الملك «فاروق» وذلك بعينه أفقدته الشرعية . .

المرحلة الفارقة ما بين عهد «عبدالناصر» إلى اليوم هي أن الشعب العربي تعّود على التغيير من قبل السلطات أي انقلابات يقوم بها حزب ما ثم يعيدون زمام الأمور باستلام الحكم ولكن هذه الأمر يكاد يفنى بمفهوم اليوم ، فالشعوب العربية دخلت مرحلة مختلفة جدا وقديما كانت الشعوب همها أن تنقذ نفسها وأوطانها من سيطرة قوات الاستعمار وهذا ما تم بالفعل ولك مع مرور الأعوام غدت السيطرة الاستعمارية تغزو عوالم الوطن العربي بطريقة مختلفة حيث كانوا يتحكمون من الخارج من بعيد حيث هم في دولهم وعبر سلطات الحكومات والتي كان همها أن تحافظ على عرشها وتورثه لأبنائها وهذا بالتحديد أدخل العالم العربي لثورات الربيع العربي ومن خلال «البوعزيزي» شهد العالم العربي عصرا جديدا لمفهوم المقاومة والقومية ، فبعد أن كانت مختصرة لحزب وسلطة وحكومة أصبحت اليوم بيد الشعب . . الشعوب كافة هي من تقرر مصيرها وتخرج إلى الساحات والشوارع ترفع شعارات كرامتها وتهتف بعلو همتها مطالبة بإسقاط

أنظمة الفساد والطغيان والخضوع للغرب مستندة على مبادىء الحرية والعدل والكرامة وهلم جرا . .

ولم تعد الحرية ومطامحها مختصرة في شخص واحد يكون رمزا ولا في زعامة متوحدة بل أصبحت بيد الشعب ومنه وإليه . .

ولعل أهم سبب لنهوض الشعوب العربية هي فقدان حكوماتها لشرعيتها في نظر شعوبها ؛ فغياب الشرعية بالنسبة إلى كل مجتمع بشري هو شكل من أشكال انعدام الوزن الذي يخلخل كل السلوكيات فمتى كانت أية سلطة ، أية مؤسسة ، أية شخصية لا تستطيع أن تحوز صدقية معنوية حقيقية كما ذهب «معلوف» . .

وأصبح اليوم لسان الشعب يردد مع الشاعر «توفيق زياد» قوله شاعرا : «هل يعرف بعض الزعماء / إن الثورة لا يصنعها هم / في غرف العمليات / بل يصنعها / الشعب المتحد . . الوعي - بالدم / في الشارع والساحات . .؟»

الأقليات واختلال العالم..!

عالم اليوم غارق في التحديات الهائلة وكل دولة تسير بخطى حثيثة على إثبات خصوصيتها ما يعزز في اعتقادها مكانتها بين الأمم وتهيء لها الخلود . .

في هذا الجزء الأخير من سلسلة مناقشة أفكار الكاتب «أمين معلوف» في كتابه المهم «اختلال العالم» سوف نفغر الضوء هذه المرة على مسألة الأقليات وما تواجهه في هذا العالم في وقتنا الحالي وفق رؤية مؤلف اختلال العالم . .

يرى «معلوف» أن العالم العربي يعاني من فقر في وعيه الخلقي بينما الغرب لديهم وعي خلقي ولكنهم حولّوه إلى أداة للسيطرة . .! مما لا شك في وقت من الزمن كانت العالم العربي أكثر تطبيقا لمبدأ «التسامح» حيث لم تطف عقد الأقليات إلى السطح وكانت غالبا العلاقات ما بين المسيحي والمسلم تمضي على خير ما يرام و أواصر أكثر قربا كانت تجمع ما بين السنة والشيعة . . في حين عرف العالم الغربي عبر التاريخ بمجازر وحشية تم تطبيقها بدافع العنصرية والأقلية . .

بينما اليوم يشهد الزمن على بروز قضايا الأقلية إلى السطح بدرجة تشكل أزمات على مستوى الوطن والوطنية وما تحتمله من تأويلات الانتماء الحقيقي والخوض في دائرة الشك والتهم . .

يتحدث «معلوف» عن أقليات مختلفة منها الأقليات المسيحية في دول العالم العربي والتي كما يرى أن وضعها لم يكن مثاليا يوما ولكنها كانت تتواصل للحفاظ على البقاء في ظل جميع الأنظمة ولكن لم يسبق لها منذ فجر الإسلام أن شعرت بالتهميش كما اليوم . .

أما الطوائف اليهودية في العالم العربي ، فإن انقراضها بات أمرا واقعيا ولم يعد هناك سوى بضعة ناجين . . وقد نشرت وسائل الأعلام كما قرأت منذ فترة قريبة أن ما يقارب ١٣٠ يهودياً يعيشون في اليمن . . «بينهم ٥٠ يهودياً تقريبا يعيشون في العاصمة صنعاء ، حيث تعمل السلطات هناك على حمايتهم ، بينما يعيش الباقون في محافظة عمران» في إشارة منها لإعلان خبر مغادرة عائلة الزنداني إلى إسرائيل والاستقرار هناك حاملين جثته بعد مقتله . .

يعرض «معلوف» حالة أقلية اندهش شخصيا من بقائها في العراق حتى اليوم وهم معدودين ، ففي عام ٢٠٠٧م عرف بوجودها في العراق وهذه الأقلية تدعى بـ«جماعة المانديين» أو الصابئة وهي طائفة صغيرة ومتكتمة ومتواضعة إلى حد يجعل وجودها غير معروف لمن هم خارج العراق . .

ويرجع وجود هذه الطائفة التي عاشت في بلاد ما بين النهرين في القرن الثالث الميلادي وكانت لهم طقوس خاصة في ممارسة عقيدتهم وهم مع تضائل عددهم ملتزمين بتلك الطقوس وطريقة ممارستها حتى اليوم رغم مرور أربعة عشر قرنا ، ولكن منذ عام ٢٠٠٧م اتضح أن هذه الطائفة تعاني من خطر الانقراض فهم كسائر العراقيين مفاعيل الجنون القاتل الذي ينتاب هذه البلاد وفي غمرة هذا الانفلات غير المسبوق للتزمت الديني لم يعد حتى الوازع القرآني قادرا على حمايتهم ، بل

نتيجة الترويع اعتنقت عائلات منهم الإسلام مكرهة والسكين على نحرها كما أنهم طردوا من وظائفهم وهجروا من بيوتهم ونهبت متاجرهم حتى كتب أحد ممثليهم يقول : «سبق لنا أن مررنا بألف محنة لكن هذه قد تكون وبيلة نحن مهددون بالزوال في وقت قريب» . .!

لنفق هنا ولنتأمل قليلا فما يعانيه «المانديين» في العراق لا يختلف عما يعانيه مسلمي «بورما» في ميانمار على يد جماعات بوذية والتي صدمت العالم بمعاملتهم المشينة والوحشية للأقلية المسلمة في بلد واحد بل يضعنا أمام صدمة فطوال سنوات ونحن نسمع ونقرأ عن الديانة البوذية ومدى مبادئ التسامح والهدوء والتأمل العقلاني الذي تتصف به وما تمارسه اليوم يناقض تلك الواجهة التاريخية التي عرفت بها طوال تلك القرون . .!

فهل السعي إلى إثبات الهوية الدينية يكفي أن يكون مبررا لقتل الأقليات في كل وطن . .؟! ماذا عن المواطنة وشروطها وأحقيتها لكل إنسان في كل بلد . .؟! أسئلة تشعر الإنسان بالعجز التام والحيرة الصارخة بالإحباط . .!

ويذهب «معلوف» إلى أن مصير الأقليات بالنسبة إلى كل مجتمع وبالنسبة إلى الإنسانية جمعاء ليس ملفا كسائر الملفات ، وإنما هو بالإضافة إلى مصير النساء أحد أصدق المؤشرات على التقدم الخلقي أو على التقهقر ، وإن عالما يتحسن فيه يوميا احترام التنوع البشري حيث يمكن لكل شخص أن يتكلم اللغة التي أختارها وأن يمارس معتقداته بسلام ويؤكد أصوله بهدوء دون أن يتعرض للعداوة ولا للاحتقار من جانب السلطات كما من جانب الناس إن عالما كهذا هو عالم يتقدم ويرتفع ، وبالمقابل إذا تغلبت التشنجات الهووية كما هي الحال اليوم في

الغالبية الكبرى من البلدان في شمال الكرة الأرضية كما في جنوبها حيث يجد الإنسان صعوبة متزايدة كل يوم في أن يكون هو نفسه بصفاء وأن يتكلم لغته بحرية ويمارس إيمانه بحرية فكيف يمكن إذن أن نتكلم عن تقهقر . .؟!

يرى «معلوف» أن من الطبيعي أن تتحرك مشاعر الضحايا ومن المقلق أن تكون الوحيدة التي تتحرك مشاعرها ، فمشكلة الأقليات ليست فقط مشكلة لهذه الأقليات بل هو مصير بضعة ملايين من الناس وعلة وجود حضارتها وغائبتها . .

الجمهورية الأوروبية الإسلامية..!

شاهدت فيلما عبر اليوتيوب تحت عنوان «فيلم أمريكي يحذر من قيام دولة إسلامية مع حلول عام ٢٠١٦م» أي بعد خمس سنوات من الآن ، وهي فترة قريبة جدا وهذا بحد ذاته يشي عن مبعث الرعب الأمريكي والأوروبي من انتشار الإسلام وتدفق المد الإسلامي في أرجائهم . .!

الفيلم عرض إحصائيات ويتعامل بمفهوم أن تناقص عدد السكان في حضارة ما يؤدي إلى هلاكها بالمعنى الأدق اندثارها ، فحسبما إحصائية الأرقام خلال سنوات مقبلة سوف تختفي أوروبا والسبب في «الهجرة» بالتحديد «الهجرة الإسلامية» فمنذ عام ١٩٩٠م رأى الأوروبيون أن ٩٠ ٪ من الزيادة السكانية مبعثها الهجرة الإسلامية ، حيث معدل الزيادة في فرنسا ١,٨ والمسلمون ٨,١ ، بينما في فرنسا الجنوبية وهي واحدة من أكثر الأماكن المزدحمة بالكنائس في العالم تحتوي الآن على مساجد أكثر من الكنائس ، أما في روسيا فتوصوا إلى أن الجنود المسلمون في الجيش يتضاعف عددهم وبعد سنوات سيكون جيشا مسلما ، أما معدل الأطفال ففي عام ٢٠٢٧ م فإن واحد من كل ٥ فرنسيين سيكون مسلما . .!

واضح جدا من تلك الإحصاءات المختلفة والتي تتناول جوانب

عديدة أن أمريكا ودول أوروبا تعاني ما يسمى بالرهاب الإسلامي واستفحال خطره - كما يرون - على أوطانهم وحدودها ، ولعل هذا ما يجعل القس «تيري جونز» يعيد أفعاله المرة تلو الأخرى في إحراق القرآن . .! كما يبرر عند بعض الأوروبيين «أندرس بريفيك» الذي يعّد نفسه قائدا معاصرا لـ«فرسان الهيكل» أصولي مسيحي ، حصر أعداء أوروبا حسبما رأيه في ثلاثة : الماركسية والإسلام والتعددية الثقافية . .!

و تفجيراته جاءت كفعل اعتراض على الهجرات المتدفقة من قبل المسلمين لدول أوروبا ويوم فعلها رفع صوته بجسارة مهددا كما يذكر العالم : «إذا توقف تدفق المهاجرين المسلمين إلى أوروبا أو إذا ما اعتنقوا المسيحية فإني سأسامحهم على جرائمهم الماضية ، وإذا رفضوا القيام بذلك طواعية حتى عام ٢٠٢٠م ؛ فإنها ستكون نقطة اللاعودة ؛ فإننا سنمسحهم جميعا ولا نبقي منهم أحدا . .!»

ولن نذهب بعيدا فالجميع يذكر «جينجريتش» الذي تصدر قائمة المرشحين لنيل ترشيح الحزب الجمهوري لخوض انتخابات الرئاسة حجته عن الشريعة الإسلامية في كلمة ألقاها العام الماضي بمعهد «أمريكا انتربرايز» قال فيها : «إن المشكلة الأولى التي تواجهها الولايات المتحدة ليست الإرهاب كما يظن الكثيرون ، وإنما الشريعة . .» وقال أيضا : «إن الشريعة بطبيعتها تتسم بالوحشية التي تجد تمثيلا لها في ممارسات كالقمع والرجم وقطع الرؤوس وإن السعي لتحقيق انتصار الشريعة لا يقوم به الجهاديون فحسب وإنما يتم من خلال طرق خفية عبر حث الناس مثلا على الحضور للمسجد الذي يقع في نهاية الشارع . .»

واتبع شن حربه على الإسلام من خلال إنتاج فيلم يحمل عنوان «أمريكا في خطر: الحرب ضد عدو لا اسم له» ودعا فيه إلى سن قانون فيدرالي ينص على عدم جواز الاعتراف بالشريعة في أي محكمة أمريكية، وهو ما يعطي انطباع بأن الشريعة تمثل تهديدا حقيقيا في مدينة توبيكا في ولاية كنساس مثلما هي عليه في أي عاصمة إسلامية متشددة..!

يبدو أنه من الواضح كما أشرنا أن دول أوروبا وأمريكا يعانون من حالة رهاب إسلامي وذلك وحده كفيل في كل الإجراءات والصعوبات التي يثقل بها كاهل المهاجرين العرب المسلمون هناك ليس أولها منع الحجاب عن الجاليات المسلمة مرورا إلى منع النقاب وهذا ما له علاقة بالنساء المسلمات بل إلى حد منع تطبيق الشرائع الإسلامية في عمليات ذبح الدجاج واللحم وهلم جرا..!

ولا يتوقف الأمر هنا بل يستشعر المسلمون هناك أنهم مطالبون وملاحقون بوجهات نظرهم وآرائهم الصريحة حول بعض قضايا تمس الإسلام والمسلمين وما يهدد خطرا لدول أوروبا وأمريكا كمثل رأيهم في تنظيم القاعدة من خلال تحقيقات تجريها أبرز مجلاتهم وصحفهم؛ وهذا بحد ذاته وثيقة إثبات على نظرات التشكك التي يثقل بها المسلمون من قبل الآخرين وأكثرها شيوعا أن المسلمين لا يدينون ممارسات الإرهاب كما يجب، ففي أعقاب تفجيرات لندن عام ٢٠٠٥م كتب «توماس فريدمان» كاتب العمود في «النيويورك تايمز»: «حتى يومنا هذا لم ينشر أي رجل دين مسلم أو هيئة دينية فتوى تدين أسامة بن لادن» وهذا إدانة وتشكيك سافر في المسلمين وتعميمهم في منظومة التجريم والإرهاب الممارس من قبل جماعات معينة..!

يرى الفيلم الوثائقي أن خلال ٣٩ عاما فقط سوف تصبح فرنسا جمهورية إسلامية ، يعلنون هذا ويضعون أيديهم على قلوبهم وكامل حواسهم وتدابيرهم على رقاب الإسلام والمسلمين في استفحال ثقيل بينما الواضح للعيان أن المد الإسلامي يضخ دماؤه الحارة في شرايين تلك الأوطان وأصقاعها والتاريخ وحده بمرور الزمن يخلّد الحضارات التي تعمل من أجل تخليدها ويواري غبار الفناء على بعضها . .!

هذه الصراعات على الإسلام تحيلنا إلى ورطة الحريات واحترام الحقوق في أمريكا وأوروبا ، فهم من كان يتغنى بالحريات الشخصية للشعوب وهم أول من ادّعى حقها في ممارسة وتعاطي اختلافها على عدة أصعدة والحال يثبت لنا أنهم كانوا ينشدون أناشيد الحرب في زمن السلم وكان هذا وضعهم بلا شك . .!

«لماذات» مشروخة في الحنجرة..!

يواجه عالمنا الحالي كثير من التحديات على مستوى الاقتصادي والسياسي والديني ولعل «الدين» هو أكثر التحديات التي باتت تحرك الأفراد لدرجة أن هوية الإنسان غدت تنطلق من انتمائه الديني وليس من انتماءاته الأخرى كما ذهب الأديب «أمين معلوف» في كتابه «هويات قاتلة» . .

كما أنه عالم لا يخلو من التساؤلات وعقد مقارنات ما بين أنفسنا والآخر ما بين ديننا والآخر ما بين انتمائنا والآخر ما بين هويتنا والآخر ما بين نحن وهم . . وصلتني رسالة في بريدي مذ وقت طويل ونظرا لأهمية المضمون احتفظت بها دون أن أعرف مصدرها ، والرسالة عبارة عن عقد مقارنات وأفكار تتساءل وحوارات تبغي أن تتفجر في نقاشات هائلة لمعرفة حقائقها ، وسوف اعرض بعض ما جاء من مضمون تلك الأسئلة التي تعقد مقارنات شاملة تلفت النظر والتساؤل بحدة «لماذا» :

لماذا : عندما يطلق اليهودي لحيته يقولون إنه يمارس معتقداته وعندما يطلقها المسلم يكون متطرف إرهابي . .؟!

لماذا : عندما تتحجب الراهبات من الرأس إلى القدم ، فهي وهبت نفسها للرب وعندما تتحجب المسلمة فإنها تعتبر مضطهدة . .؟!

لماذا : عندما تبقى المرأة الغربية في بيتها لترعى بيتها وأولادها ،

فإنها محل احترام وتقدير لأنها تضحي وتعمل من أجل رعاية بيتها وعندما تفعل المسلمة ذات الشيء فإنها بحاجة لأن تتحرر . .؟!

لماذا : أي فتاة تستطيع الذهاب إلى الجامعة ولبس ما يحلو لها ولديها مطلق الحق والحرية بذلك ، ولكن عندما ترتدي المسلمة الحجاب تمنع من دخول أي مكان للعمل والدراسة . .؟!

لماذا : عندما يقتل اليهودي لا يذكر أحد دينه ، ولكن إذا حوكم المسلم بجريمة فإنه يدان لإسلامه . .؟!

لماذا : عندما يكرس أحدهم نفسه لحماية الآخرين فإنه نبيل ويستحق احترام الجميع ، لكن عندما يقوم الفلسطيني بذلك ليحمي طفله من الموت ويحمي يدي أخيه من الكسر وأمه من الاغتصاب ومنزله من الهدم ومسجده من التدنيس فإنه إرهابي . .؟!

لماذا : عندما يقود أحدهم سيارة جيدة على خراب لا أحد يلوم السيارة ، ولكن عندما يخطيء أي مسلم أو يعامل أحدهم بأسلوب سيء يقال «الإسلام هو السبب» . .؟!

ثم في النهاية يأتي الجواب كصفعة عن تلك الـ«لماذات» المتسلسلة بدهشة الاستنكار : «لماذا» : لأنه مسلم . .!

إجابة كاشفة كالشمس للجميع رغم ألم الصفعة وباتت أسنّة هذه الشمس أكثر وضوحا اليوم : بأن الدين الإسلامي هو دين المستهدف من قبل الديانات الأخرى ؛ لأنها تشكل خطرا عليهم وعلى دولهم لدرجة بروز مصطلح «رهاب إسلامي» وقد ترجموا هذه الحرب الشعواء على الإسلام بطرق ووسائل عديدة بعقد محاضرات وانتاج أفلام للكبار والصغار على حد سواء ، بل إن الأحزاب الرئاسية التي تطمع للسلطة في تلك الدول جعلت من ضمن برامجها الترشيحية هو

تبني قضية خطورة الإسلام وهجرات المسلمين على شعوبهم ودولهم وعلى رأسهم حزب الجبهة الوطنية في الفترة الأخيرة التي حاولت دغدغة مشاعر الفرنسيين المتأثرين بالأزمة الاقتصادية في فرض قضية المهاجرين على المعركة الانتخابية بل في توجيهها بإتجاه يثير عداء للمسلمين والعرب بصفة خاصة وقد حدث ذلك بدءا بالمبالغة في أعدادهم رغم استحالة معرفتها في فرنسا وإتخاذ أشد الإجراءات ضد «التهديد الإسلامي» رغم أن المسلمين لم يفعلوا شيئا سوى العيش بسلام في أوطانهم بعدما خذلتهم أوطانهم الحقيقية . .!

ولكن مع ذلك نقول : موقف الغربيين من الإسلام والمسلمين أضحى معروفا جدا ولا يدعو للدهشة وإن دعا للاستنكار والاستهجان ولكن ما يدعو لأكثف الدهشات المستنكرة وأكبر الاستهجانات هو أن يطعن المسلم في دينه وأن يشوه صورة الإسلام والمسلمين ، بل أن يتعدى على المقدسات . . على ذات الرسول _عليه الصلاة والسلام - وعلى الذات الإلهية _عزوجلّ _وهذا أعنفها وأشدها وأعظمها في وقت ينافح فيه بعض الغربيين عن الدين فمن وقت قريب عرفت أن صاحب تلك اللماذات في الرسالة هو «انجليزي مناصر للإسلام» . .!

ولعلي أضيف بدوري تساؤلا إلى التساؤلات التي شهرتها رسالة الانجليزي المناصر للإسلام : لماذا عندما تعرض «حمزة الكاشغري» برسائل عبر تويتر لذات الرسول -عليه الصلاة والسلام - زّج في السجن ليحاكم رغم اعترافه بذنبه واعلان توبته ولكن عندما تعرضت الكاتبة «حصة آل الشيخ» للذات الإلهية عفي عنها وسوّغ لها حجج من قبل الرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «عبداللطيف آل الشيخ» . .؟!

غريب أن تخالف الخطيئة مسارها هذه المرة ، فنحن اعتدنا منذ الأزل أن هذا المجتمع قد قسم الخطايا إلى خطيئة مذكرة وخطيئة مؤنثة لكن تاريخ الخطايا في تطور على ما يبدو واستحدثت إلى خطايا قبلية وخطايا طائفية وخطايا حزبية وهلم جرا ولكل خطيئة استثناء . .!

وما أكثر الـ«لماذات» المشروخة في حنجرة العقل والقلب واللسان فهل من مجيب عنها . .؟!

حين يكون العالم أمريكيا..!

«حين يكون العالم أمريكيا» طرحت هذه العبارة على حائطي في الفيس بوك مع رسم كاريكاتوري للفنان «شريف عرفه» والرسم يحكي عن الدبلوماسية الأمريكية لوجه أمريكي مكبر وهو يرتدي بذلة مع قبعة بألوان العلم الأمريكي مع رجل آخر بحجم صغير يتدلى على حبل متأرجح يسقط دلوا هائلا من الأوراق على الرأس الأمريكي المتأزم من التسريبات الجديدة . .!

وانهالت على الرسم نفسه تعليقات العابرين والعابرات ، والمتفق بينهم هي اللغة والنظرة السلبية والسوداوية عن عالم يحكمه الأمريكان ؛ فالكل اجمع أن العالم حين يكون أمريكا فسوف يشاع الدمار الشامل والفقر والمجاعة والحروب أي كل ما له صلة بالخراب . .!

وهي نظرة ثابتة جدا ولا يمكن نفيها مطلقا ، وأمريكا هي سبب تلك النظرة المليئة بشرارة القهر إن صح القول . .! قهر هؤلاء العرب والمسلمون من قبضة أمريكا على حنجرة العالم وعلى هدم كل ما له علاقة بالعالم العربي والحدود الإسلامي ، وكأنما هدفها ومبتغاها الأبدي هو القضاء على ملامح العرب والدين الإسلامي . .!

والحقيقة أن العقلية العربية تجاه أمريكا في عهود عتيقة وسنوات ما قبل الحادي عشر من سبتمبر كانت مختلفة تماما عقلية قائمة أن

أمريكا هي أرض الفرص والثراء السريع والمال والسطوة والشهرة والعيش الكريم لجميع الأديان بلا استثناءات، وبالفعل تم هجرة الآلاف من المسلمين العرب إلى أرض الشهرة والثراء . .

ولكن أمريكا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر تغيّر فيها كل شيء، يمكن القول إن هؤلاء لم يكونوا على صلة ود يوما ما مع كل ما له صلة بالعرب وتحديدا بالمسلمين، وكانت تلك المشاعر في وقت ما ضمنية لا يجاهر بها في أوساط أو صحف عالمية، ولكن بعد الحادي عشر من سبتمبر ومع بروز تعريف الإرهاب وإلصاقه بالمسلمين غدت مشاعر الأمريكية تجاهر بكرهها علنا للإسلام والمسلمين وتنعتهم بالإرهابيين، بل بات كل من الإسلام والإرهاب والهمجية مفاهيم ذات صلة مترابطة ووثيقة باعتبار الفكر الأمريكي وعلى المسلمين تحمل الاهانات في كل مكان وتحمل نبال العبارات المهينة ولعل أبرزها «أنت أيها العربي» أو «يا مسلم» باعتبارها شتيمة . .!

وها هي أمريكا تحيي الذكرى العاشرة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر وتزامنا مع هذه الذكرى الموجعة في ذاكرة التاريخ الأمريكي، فإنها تأهبت جيدا بالتجهيزات بغية تذكير العامة والعالم بالمأساة التي حيقت بأمريكا خلال هذه الحادثة، وتوظيف كافة الوسائل الممكنة من تلفاز وصحف ومقابلات ومعارض وكتب وموسيقى ومسرح جنبا إلى جنب لحشد الأحزان عن النكبة الأمريكية . .!

ومن ضمن ذلك أصدر كتاب تلوين للأطفال لإحياء الذكرى العاشرة لهجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ويصور هذا الكتاب الذي يتألف من ٣٦ صفحة بعنوان: «لن ننسى ١١ / ٩ أبدا - كتاب حرية للأطفال» مشاهد من الهجمات على مركز التجارة العالمي، كما تصور

إحدى الصفحات عملية قتل زعيم القاعدة «أسامة بن لادن» وهو مختبئ خلف امرأة محجبة بينما يضغط جندي أمريكي على زناده سلاحه . .!

وكتب الكاتب بجوار الرسم : «أيها الأطفال ، الحقيقة هي أن هذه الأعمال الإرهابية ارتكبها متطرفون إسلاميون يكرهون الحرية ، وهؤلاء المجانين يكرهون الحياة الأمريكية ؛ لأننا أحرار ومجتمعنا حرّ» . .!

أثار هذا الكتاب غضب مسلمي أمريكا وقالوا أن المؤلف يسيء إلى كافة العقائد الإسلامية ، وعلقت السيدة «أميرة شريف» من مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية عن الكتاب بقولها : «إنه كريه و مثير للاحتقان وغير لائق تماما للأطفال أو لأي شخص» . .

بينما مؤلف الكتاب «وين بيل» نفى أن يكون الكتاب عدوانيا وقيل لقد بيع منه عشرة آلاف نسخة ويتوافق رأي شبكة «سي ان ان» الأمريكية مع المؤلف وتؤكد أن الكتاب يصور حقيقة تاريخية وأنه واقعي ويختص بالخاطفين الـ ١٩ الذين جاءوا إلى هنا وقتلوا آلاف الأشخاص . .!

نعود فنقول : «حين يكون العالم أمريكيا» : سوف يجيد تلقين مبادئ الكراهية عن الإسلام والمسلمين خاصة عند الأطفال . .!

وحين يكون «الكاتب أمريكيا» : وحده يحق له أن يؤلف كتبا تؤلّب صدور المجتمعات على الإسلام والمسلمين . .!

ولكن «حين يكون العالم إسلاميا» : فعلى المسلمين نسيان مجازر أمريكا في العراق والأفغانستان والباكستان وفي كل بقاعات العالم الإسلامي مهما غدت الحجج والأعذار . .!

وحين يكون «الكاتب إسلاميا عربيا» : فإن أي كتاب يصور

مشاهد عنف أمريكا ومجازرها مع المسلمين وفي أوطانهم ؛ فإنه يعّد إرهابيا ويستحق النبذ والفناء الأبدي . .!

وليس عليه أن يبدي اعتراضه على الوضع ؛ ففي اعتراضه جريمة يعاقب عليها القانون بينما الأمريكي المسكين حين يتبنى قضية بالاعتراض فإنه فقط يدلي بوجهة نظره الخاص تجاه الوضع . .!

ومات الخاص والعام عندنا . .!

فياله من عالم متناقض ذاك الذي تديره سياسة أمريكية . .! وهي سياسة قائمة ما بين «تحيا الديمقراطية» و«تحيا المصالح» . .! وهذا التناقض ليس بالشيء الجديد على واقع العربي والإسلامي بل يؤكده مسلمي أمريكا الذين يعانون صنوف التفرقة والنظرة العدائية التي تلاحقهم من قبل غير الإسلاميين في أمريكا ، وهي النظرة نفسها تفشت في باقي دول أوروبا التي وضعت يدها على قلبها وما تزال مرعوبة من تضاعف عدد المسلمين خلال سنوات الهجرة السابقة ؛ ولهذا بدأت التدابير والخطط لزعزعة الهجرة وفرض قوانين غريبة على حظر «الحجاب» و«النقاب» مرة وسماحه بهما مرة أخرى ، ومنع «الذبح الإسلامي» حينا و«المآذن» حينا آخر ، وكأن التعاليم الإسلامية لعبة يلهو بها زعماء أوروبا . .! وتلك الخطوات المترددة من قبلهم للمنع ما هي إلا خوفا على مفهوم «الديمقراطية» التي بهت ضوؤها بسبب المواقف المتناقضة وها هم يلمعونها ؛ كي لا تتكشف حقائق أخرى خافية . .!

والعدائية تجاه أمريكا من قبل العرب والمسلمين تكشفت بعد مآسي العراق والأفغانستان ويمكن القول هنا أيضا لا لوم على أمريكا حين تحرض تلقين الحقد والبغض بدورها تجاه المسلمين وذلك لتمنع

السبل على أجيالها القادمة ، على الطفل الأمريكي أن يفكر في الإسلام أو يتعرف عليه عن قرب خشية التأثر بتعاليمه والدخول فيه ، ويبدو أن النتيجة جاءت عكسية فبعد الحادي عشر من سبتمبر عكف فضول الكثير من الشباب الأمريكي على تعرف الإسلام والإقبال عليه كتخصص للدراسة في جامعاتهم أو في جامعات مختلفة حول العالم ، هذا من ناحية الأمريكية ، بينما من ناحية زعيم القاعدة «أسامة بن لادن» الذي رحل عن ذكرى العاشرة بعد أن غيبّه الموت ، فإن حضوره الرمزي قد حقق هدفه الأسمى في قلوب كافة المسلمين حتى المعترضين على سياسته وهو تفتيح عيون العرب وأفئدتهم على الخطر الأمريكي وبالتالي كراهية كل ما له صلة بأمريكا ومهاجمة سياستها في محافل عدة ، في حين يبدو أنها في حالة تردي مذ الهجمات فاقم من الإحساس بالضعف انتقال أمريكا من أزمة لأخرى وكانت بعض هذه الأزمات نتيجة مباشرة للحادي عشر من سبتمبر بدءا من الأزمة الاقتصادية الأولية وانتهاء بالفشل الذريع في الحرب العراق وأفغانستان ، حتى أن المؤرخ الثقافي «جيف ميلنك» وصف عن هذا بأنه «كارثة أبدية» الأمر الذي أدى إلى تآكل الثقة في مؤسسات الدولة . .

ويبدو أن الكون نفسه تبرأ من أمريكا ولا نية له أن يكون أمريكيا مطلقا . .!

وتعيش حاليا الأوساط الأمريكية قلقا ذا وقع شديد ؛ فقد تنبأ «جيرالد سيلانتي» وهو كاتب وباحث وعالم أمريكي متخصص باسم علم المستقبل ، تنبأ من محطة الإخبارية الأمريكية الشهيرة «فوكس نيوز» قائلا : «ستقع ثورة بهذا البلد الولايات المتحدة الأمريكية ولم

يحن وقتها بعد ولكنها على الطريق ، إن هذه الثورة ستقترن بأعمال شغب واسعة النطاق واعتصامات وانتفاضات ضد الضرائب والبطالة والجوع . .! وسيكون وضع الطعام على المائدة أكثر أهمية من وضع الهدايا تحت شجرة الميلاد . .! والدولا ر الأمريكي سينهار وسيفقد حتى حدود ٩٠ بالمئة من قيمته في المستقبل القريب المنظور وستتدهور مبيعات محلات التجزئة وأن الولايات المتحدة في الطريق كي تتحول إلى دولة متخلفة وأن الوضع سيكون أسوأ من حالة الكساد الكبرى في ثلاثينات القرن الماضي» . .!

والمعروف عن «جيرالد سيلانتي» أنه يحظى باحترام وثقة المجتمع الأمريكي في الأوساط العلمية وخارجها ، وطالما توقعاته السابقة حدثت فعلا كتوقع انهيار الاتحاد السوفياتي وتوقع انهيار سوق الأسهم في أمريكا منذ العام ١٩٨٧م ، وتوقعاته لا علاقة لها بالفلك والأبراج بل تستند على أسس علمية وبخصوص تنبؤاته عن أمريكا أثارت وما تزال ذعرا عاما فهي توقعات قريبة جدا تقع ما بين ٢٠١٢ أو ٢٠١٤م . .

إذن خيبات مريرة متوقعة تنتظر أمريكا ، العالم في تغير جذري ليس على مستوى التاريخ وحده ، بل تخطت التغييرات المستوى الظواهر الطبيعية ، هناك شعوب تغتال بالمدافع والرشاشات والطائرات وهنالك شعوب تغتالها العواصف والبراكين والزلازل والفيضانات وما بين غضب الآلات وغضب الطبيعة كان الإنسان . .

وما بين غمضة عين وانفتاحتها يغير الله من حال إلى حال . .!

تمثال الحرية في بكين حُبلى..!

كلنا يعرف تمثال الحرية ، أكثر الأعمال الفنية شهرة على صعيد العالم ، هذا التمثال أول ما خطر ببال المحترف «فريدريك باتولدي» في نموذج مصغر عرضه على «الخديوي إسماعيل» عام ١٨٦٩م إبان افتتاح قناة السويس في ذلك الوقت ، وأراد المصمم بأن يكون التمثال رمزا لحرية الملاحة في العالم ولكن الخديوي حين وجد أن أثمانا باهضة تستدعي إنشاء هذا التمثال بما لا يتوافق مع الأزمة المالية وقتذاك تنازل عن الفكرة شاكرا المصمم على حسن نيته . .

ولكن هذا التمثال أصبح من نصيب القوة العظمى أمريكا ؛ حيث قدمته فرنسا لها هدية تذكارية بهدف توثيق العلاقات بين البلدين بمناسبة الذكرى المئوية للثورة الأمريكية ، وحيث نجد سيدة الحرية في إحدى يدها المعانقة السماء مشعلا يرمز إلى الحرية وبالأخرى حاضنة كتابا نقش عليه بأحرف رومانية تاريخ مهم في حياة الأمريكيين «٤ يوليو ١٧٧٦م» في موقعه المطل على خليج نيويورك . .

ونسخت تمثال الحرية في كثير من الدول ، ولكن في بكين لها نكهة خاصة ، متباينة عن الآخرين ، ولكن الغريب في الأمر أن الصين التي اشتهرت ببصمتها في التقليد طبق أصل ، أبدلت نهجها في التقليد - نسخ لصق - هذه المرة ، ربما كي يكون لها طابع في الحرية

مختلف عن باقي الدول ، بما أن تمثال الحرية هو رمز الأعم للحريات ، جاء تمثال الحرية البكيني أقصر قامة مع بطنها المنتفخ بوضوح صارخ وكأنها امرأة حبلى . .!

وليست دهشتي وحدها أثيرت من تمثال حريتهم ، حيث كما شاهدت من وقت قريب صورة أحد الصينيين وهو منتصب بخفة بالقرب من سيدة الحرية ، واقف بالقرب من قامتها القصيرة ويده تستقر على بطنها المنتفخة بدهشة . .!

فهل يا ترى بكين تترقب ولادة حرية من رحم أرضها دون أن يغيب عن فكرنا أن الصين اليوم باتت تخطو بثقة نحو الرقي والازدهار الملحوظ على مستوى العالم . .؟!

أم أن مفهومها أعظم هي أن تلد تمثال الحرية حرية أخرى تجاري وقائع الحياة التي يحياها العالم اليوم . .؟!

نرجّح بكل حبور الكفة الأخرى ، فالعالم حقا بحاجة إلى دفق حرية حديثة ، تساير فكر هذا العصر وشبابه ، فتمثال الحرية الأمريكية لم تقدم شيئا للعالم سوى لموطن وجودها ، تماهت فيها القوة العظمى الأمريكية لبث زعامتها كالإخطبوط في وئد حريات الآخرين ؛ لتختلي بمقر سيادتها على العالم وتكون هي العميلة ورأس التخطيط والتدبير ، وهي الباني والهادم حسبما يفضي مزاجها والآخرون تابعين في مرتبة عبيد أو تحت حذائها وهو وضع يحلو لها جدا . .!

العرب اليوم يتوقون إلى حرية أصيلة تهفو إلى تطلعاتهم وتبني قصور أحلامهم ، حرية تحفظ لهم كيانهم وكرامتهم الإنسانية ، حرية مسؤولة تلائم قيمهم و مبادئهم ترسو بهم إلى شموخ الكون . .

يعوز العرب حرية وليدة ، تشرق أشعة سنتها الأولى في أرض

عربية ، لسانها عربي ، عقلها عربي ، قلبها عربي ، لا أمريكية ولا بكينية ، بل عربية عربية عربية حتى النخاع . .

ولا نريد تماثيل حرية بل نريد وبقوة حرية تحيا معنا على الدوام ، حرية تتنفس من هوائنا ، حرية تأكل وتشرب معنا ، حرية تحزن لترحنا وتبتهج لفرحنا ، حرية لا تميز بين صغير وكبير ، حرية تساوي بين الرجل والمرأة بما يحفظ رجولة الرجل ويصون كرامة المرأة ، حرية ، تكون عربية المنشأ لا مستوردة من أقاصي غرب لا تفهمنا ولا نفهمها ، حرية عربية اليد واللسان والقلب والعقل بحماسة الشاعر «مختار اللغماني» حين هتف بها بحسه العربي المخلص النبيل في «حفريات في جسد عربي» : «أشهد أني عربي حتى آخر نبض في عرقي / عربي صوتي / عربي عشقي / عربي ضحكي وبكائي / عربي في رغباتي الممنوعة في أهوائي / عربي فيما أشعر / عربي فيما اكتب . .»

حرية تنشق من أرض عربية وبلسان عربي كما أنشدها «سيد مكاوي» في «الأرض بتتكلم عربي» : الأرض بتتكلم عربي الأرض الأرض الأرض . .

نريد حرية كهذه الأرض التي تتكلم عربي . . .

إمبراطور المهرّجين
على حبل الفضيحة..!

لعل ثمة إجماع يشمل الجميع بأن عام ٢٠١١م هو عام الفضائح وسقوط إمبراطوريات ما أكثر ما طال مكوثها على عروشها المخملية حتى كاد المرء منا بل كادت السنوات أن تتصدأ من ثقل وجودهم بينما هم لم يفتهم أبشع وأشنع وأعتى الوسائل لتلميع صورهم في واجهة العالم . .!

وها هي بريطانيا العظمى تُسقِط في الوحل فضيحة إمبراطور الإعلام «روبرت مردوخ» اليميني وصديق المحافظين الجدد والذي كان يجر بقوة لقب «إمبراطور الإعلام» باحتكار وذلك لامتلاكه أكبر وأهم الصحف وشبكات التلفزيون العالمية في أوروبا والولايات المتحدة واستراليا ، بل وصلت إمبراطوريته مؤخرا إلى حدود التركية بضمه لمحطة «تي جي آر تي» التلفزيونية . .!

«مردوخ» المسيطر على ٤٠ بالمئة من الصحافة البريطانية ، والذي كانت له علاقات واسعة جدا بكافة الأقطاب المهمة حول العالم ، والرجل الذي يرفع ويسقط كيفما شاءت إمبراطوريته المرشحين بالانتخابات ، ها هو اليوم هو الساقط ، وهو المأكول ، وليمة سائغة في أفواه قروش العالم بعد تفجر فضيحة التنصت على ضحايا أبرياء من عامة الشعب ولعل أهمها فضيحة الضحية المقتولة «ميلي دوللر» التي

قتلت في عام ٢٠٠٢م وقد أثار الكشف عن أن مخبرا تابعا لحساب «نيوز أف ذي وورلد» قام بمحو رسائل الهاتف الخليوي للفتاة المفقودة للإيحاء لأقربائها والشرطة بأنها على قيد الحياة . .!

وأكثر أهداف شبكة تنصت «مردوخ» كانت تنصب حول ضحايا جرائم القتل والجنود الذين سقطوا في حربي أفغانستان والعراق ، بينما تضيف أمريكا الهائجة هي الأخرى على مشجب فضائح إمبراطورية «نيوز أف ذي وورلد» ضحايا الحادي عشر من سبتمبر لفخاخ التنصت البشع في حق الأبرياء . .!

وفي أثناء جلسة الاستماع في البرلمان البريطاني قدم «مردوخ» خالص الاعتذار لأسر ضحايا التنصت عن «الأخطاء الفادحة التي وقعت» مرفقا اعتذاره بوعد تعويض جميع الضحايا . .!

ما أسهل اعتذار الجاني بعد اهراق بحر من الدماء . .!

وماذا يفعل هذا الاعتذار المتأخر جدا بعد وقوع الأذى النفسي والجسدي بالأشخاص الأبرياء بل غالبا ما يعد الاعتذار وفي ظرف كهذا و في مثل هذه الحالة جريمة شنعاء في حق كل من دفع باهضا ثمن تلك التلاعبات اللاأخلاقية في سبيل سبق صحفي ، أو إثارة خبر أو جني ثروة على حساب جثث أشخاص - لا ذنب لهم - سوى أنهم كانوا صيدا ثمينا في صالح هؤلاء الجشعين ، فارغي الضمير والإنسانية . .!

ومن ناحية أخرى تعد فضيحة إمبراطورية «مردوخ» الآيلة للسقوط في صالح مصالح جهات عديدة ليس فقط من قبل أولئك الذين طعنوا من قبل إعلام «مردوخ» المتزعم لانتهاك الحريات والمطاردة والتنكيل والتنحي خلف الشمس من مسؤولين وصحفيين ومرشحين ومشاهير

بل أكثر المستفيدين صادري الصحف الأخرى ، وكأن قول «المتنبي» يستدعي نفسه : مصائب قوم عند قوم فوائد . .!

لكن الأصل في هذه المصيبة - الغنيمة المجانية - عند البعض والتي هبطت عليهم هبّة من السماء هي ألا يتباهوا ولا تشملهم الفرحة طويلا لسقوط هذه الصحيفة الأكثر مبيعا والأشهر طوال ١٦٨ عاما بل أن يضعوا في عين اعتبارهم قواعد وأصول الإعلام الجيد ، ولعل من أشدها أهمية ولا يقوم إعلام نظيف دونها : «النزاهة» نزاهة الجهة الإعلامية والعاملين فيها ، فمن يضع «النزاهة» خارج مراميه المرامي عينها سوف تقذفه في زمن ما إلى قدر غير محمود العواقب . .!

معادلة «النزاهة» هي أنظومة مكتملة يستدعي حضورها في كل وطن يطمح على أرضه الثابتة أفرادا نزيهين يستمدون نزاهتهم من قوانين نزيهة تصدر في حقهم ، يساندهم إعلام نزيه في كل ما يقدمه لهم ؛ كي تتعامق جسور الثقة إلى المجتمع النزيه بكافة أطيافه ، وكل هذا من أجل وطن نزيه هو ملك للجميع ولكافة الأجيال . .

ولتقلص مفاهيم النزاهة وتخلخلها هي من أكثر الأسباب التي كانت وراء سقوط إمبراطورية مردوخ ، الذي على ما يبدو حوّل الإعلام إلى حلبة سيرك تزعمها ، زعيم أولئك المهرجين الذين يتضاحكون ، يتباكون ، يرقصون ، ويعلنون الحداد حسبما هي أحوال العامة المتفرجين ولنيل رضاهم ولنيل رفعة وشهرة شعبية تبنى على أساس من الغش والخداع وابتزاز وانتهاك الحقوق واستغلالها وتهويم وتضخيم وتواري وكشف حقائق حسبما مزاج سائسها . .!

وليس بعيدا عن هذا المعنى ما أشاره الروائي «عاموس عوز» في مقطع في روايته «قصة عن الحب والظلام» حين تحدث عن العلاقة ما

بين القارئ السيئ والصحفي اللاهث قائلا : «القارئ السيئ مثله مثل الصحفي اللاهث ، يتعامل دائما بنوع من الريبة العدائية ، بنوع من الكراهية المتزمتة دينيا ، القويمة أخلاقيا مع الإبداع ، الاختلاق ، التحايل والمبالغة ، إلى ألعاب اللف والدوران إلى الكلمات ذات الوجهين وإلى الموسيقى وإلى الإيحائي إلى الخيال نفسه ، قد يتكرم وينظر أحيانا في عمل أدبي مركب ولكن شريطة أن نضمن له مسبقا المتعة «التخريبية» الكامنة في ذبح بقرات مقدسة ، أو المتعة المحمضة التي تنطوي على التقوى التي أدمن عليها كل مستهلكي الفضائح و«الاكتشافات» على مختلف أنواعها بحسب قائمة الطعام التي تقدمها لهم الجرائد الصفراء» .

في بلد يكون إعلامه قاصما لحقوق وحريات المعدمين من العامة فكيف إذن ستغدو قبضة كبريات سياسات أخرى على من هم «لا تهش ولا تنش» كما نرددها بالعامية في البلد نفسه . .؟!

في قرن من الزمن غدت «الثقة» فقاعة صابونية تنفقئ في وهلة لن يثق فيه الإنسان حتى بظله اللصيق به في غدوه ورواحه ، حتى الظلال لا تستأمن يا جماعة ، فراقبوها جيدا . .!

من أيقظ الأميرة اللندنية النائمة..؟!

من أيقظ الأميرة اللندنية النائمة . .؟!

هكذا يخض بنا التساؤل في عوالمنا العربية والسؤال مطروح مع علامات الاستنكار والدهشة وكثير من الصدمة . .! فنحن كشعوب عربية نعد بريطانيا أو أي وطن ذا كيان أوروبي بأنهم يرزحون على أرض خصبة ما تفجره من خيرات ، إنما هو للجميع بلا استثناءات ولا امتيازات ، فهي دول أرسلوا قواعدهم مذ البدء على طوب الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق يحصل عليها ويتمتع بها حتى عامل نظافة في شارع عام . .

ولكن يبدو أن في جوف تلك الأرض دفنت أميرة كانت نائمة بفعل سحر الساحرة وكان لابد من إيقاظها ، وحين أيقظوها اندلعت أوضاع هي الأسوأ في تاريخ لندن ، ما كانت لندن بل انجلترا كلها ناهيك عن العالم الخارجي تتوقع ذلك في أوان وقوفها كمصلح من أزمات الشعب العربي مع جلاديها على مقاصل الدم والاستبداد ومطالبة حقوق مشروعة . .!

لمن يدقق النظر سوف يجس وجه التماثل بين الأوضاع في لندن وشرارة الأولى لأحداث الشغب كما - يأنس البعض تسميتها - في اتجاه متواز مع أحداث ثورة الياسمين التونسية حكاية «البوعزيزي»

تتوافق ضمنيا مع حكاية الشاب اللندني ووراء كلا الجريمتين «الشرطة» وإن تفاوتت أصول الخناق . .!

أي بصريح العبارة : ما كان في خدمة حماية الشعب غدا مع مرور الوقت في خدمة إبادة الشعب . .!

ولأن هذه الأحـداث هي الأسـوأ من نوعـهـا حـدا برئيس وزراء البريطاني «ديفيد كاميرون» إلى قطع إجازته في إيطاليا وإعداد خطاب متوعد لمعالجة ما أطلق عليه اسم «المجتمع البريطاني المتحطم» والخطاب يحلل القضية ويقدم حلولا وهي كالتالي :

١- نفى أن تكون التوترات الحاصلة على أرض الواقع :

- مبعثها عرقي . . مع تقديم الدليل : أن من قام بها هم خلطاء من البيض والسود والآسيويين . .
- أو تخفيضات التقشفية : والدليل أن أنها كانت موجهة إلى المتاجر في الشوارع وليس إلى البرلمان . .
- أو الفقر والدليل : بأنه أمر يسيء إلى الملايين من الناس الذين لن يفكروا أبدا في جعل آخرين يعانون هكذا مهما غدت مشقة الصعوبات التي أثقلت كاهلهم . .

٢- زعم أن نحو ١٢٠ عائلة بريطانية لا تحترم السلطة مشيرا بشكل خاص إلى الأولاد الذين بدون قدوة يمثلها أحد الذكور في العائلة على أنهم عرضة لـ«الغضب والسخط» . .!

يرى «كاميرون» أن سلوك الأفراد هي المسؤولة عن القيام بأعمال الشغب كما وضّح خطابه : «إن هذا يتعلق بأشخاص لا يكترثون للخطأ والصواب ، أشخاص لديهم قانون أخلاقي منحرف ، أشخاص يعانون غيابا تاما لضبط النفس» . .

وتعريف السلوك وفق «د . تشاد هلمستتر» مؤلف كتاب «ماذا تقول عندما تحدث نفسك» هو : «السلوك هو ما نفعله أو ما لا نفعله» فالسلوك ممارسة تصرف ، كيف نتصرف . .؟ أو كيف لا نتصرف . .؟

وعليه المذنب هنا هو السلوك الذي قام بفعله الإنسان ، ولأننا في مجتمع بريطاني متحضر في التخاطب مع مواطنيه فهو في خطابه تنحى عن استخدام ألفاظ بذيئة أو تقليل من شأن مخاطبيه بألفاظ كـ «جرذان» أو «جراثيم» أو حتى «صراصير» وهم حريصون على إيجاد حلول جذرية وعميقة وذات فعالية طويلة الأجل تمتد إلى قرون عديدة ، لهذا تم إحالة ملف المشكلة إلى رئيس البحوث بمركز دراسات السياسية ذي النزعة المحافظة في لندن والذي في إشارة مبدئية قال : «لا يوجد حل سهل لهذا ؛ لأن العديد من المشاكل متجذرة» . .

ولتحليل ومعالجة هذا السلوك توصل «ريان بورن» بقوله : «نعتقد أن الحلول تكمن في تقوية وتعزيز وحدة العائلة عبر تغيير النظام الضريبي من أجل تحفيز الناس على أن يتزوجوا ويبقوا متزوجين» مضيفا : «إن العديد من الأطفال يعيشون بدون قدوة يمثلها أحد الذكور داخل العائلة ، الأمر الذي يؤدي إلى السلوك السيء» . .

هذا الحل على صعيد الحياة الاجتماعية للأفراد في المجتمع الواحد يضمهم وطن واحد انطلاقا من مفهوم إذا صلح الفرد في أسرته صلح في مجتمعه والحاصل الأهم هو صلاح وطنه الكبير ، وهذا الصلاح يُرمَم من الجذور حين يكون الانسان طفلا مازال يحبو على أرض هي وطنه والتي عينها تكون ممشاه بقدمين ثابتين عندما يغدو كبيرا . .

أما القطاع الثاني ولا يقل أهمية عن الأول هو قطاع «التعليم» قائلا : «إن المدارس ينبغي أن تمنح حرية أكبر في تقرير ما تعلمه بدلا

من أن تحضر في منهاجها تعليمي وطني . .»

تسليط المعالجات ومناهضة الحلول من خلال قطاعات مهمة «الأسرة / التعليم» من الأهمية الهائلة ففي هذه مجتمعات تتشكل شخصية الإنسان وكيانه ، وهي من تخرج من رحمها كائنات بشرية في توافق أو على عداوة مع المجتمع وهذا يعود طبقا لسياسية تعاطي هذا المجتمع مع أفراده على أصعدة كافة . .

بينما الفواصل الساخرة في الأحداث اللندنية هي آراء بعض – حكام العرب – وأصدقائها من الدول التي تتواصر فيما بينها في الحدود أو اللغة على رأسهم ملك ملوك أفريقيا – المغيب سيرته حاليا في أنقاض الهروب – «معمر القذافي» الذي علق قائلا : «إن الوضع في لندن لا يمكن احتماله وإن على رئيس الوزراء الانجليزي ديفيد كاميرون أن يتنحى ويسمح للشعب الانجليزي أن يحكم نفسه بنفسه . .»!

بينما الرئيس «بشار الأسد» – المبيد لشعبه برشاش الشبيحة والرؤوف على شعوب غيره – أشار : «بأن الأوضاع في لندن من اعتداءات الشرطة على المواطنين الانجليز لا يمكن السكوت عنها محدثا المجتمع الدولي بأخذ موقف صارم تجاه تجاوز الأمن الانجليزي على المواطنين المدنيين . .»!

وطهران التي تؤيد – قمع الشعب السوري في ثورة أحرار سوريا – أدلى للبريطانيين نصيحة وهو تجنب استخدام القوة في قمع احتجاجات لندن . .!

وكأن قول الشاعر يستدعي نفسه :

أشد عيوب المرء جهل عيوبه

ولا شيء بالإنسان أزرى من الجهل

الحصيلة مما جرى هو تباين سبل العلاج والتعاطي مع مشكل الأحداث ما بين العرب والأوروبيين واختلاف أهداف الرامية وراء تلك المعالجات . .

كما أن الوضع البريطاني تحمّل قضيته وحده ولم يعلقها على مشاجب الآخرين كما فعلت معظم القيادات العربية التي من أبرز مهامها هو توجيه اتهامات إلى جهات خارجية وتعليقها على رقابهم ، تلك الفبركات التي ضجر منها وشبع حتى التخمة الإنسان العربي فقط من أجل تبرير ضعفها وخنوعها عن مواجهة ما ارتكبته من آثام جسيمة غائرة التأثير في حق شعوبهم هم مسؤولون عنهم كرعيةّ . .!

وليست وراءها رؤساء أو مسؤولين باعثها إشغال الأفراد عن حقوقها وقضاياها الحقيقية كأسلحة الحروب الصامتة التي سار عليها معظم الرؤساء الذين يعرفون أنفسهم . .!

لم يُخلق بعد وطن بلا خدوش لكن لكل مسؤول عن وطن أسلوب مختلف في تطبيب تلك الخدوش ومن البريطانيين اعتبروا . .!

الوعي «كافر»..!

الجوع . . الجوع «كافر» . .!

احتكم واتفق وتعاضد وناشد ورافع واصطف الجميع على فتوى وحكم وشرع أن الجوع «كافر» ولم يحدث أن أعترض أحد والجميع أدانه . .!

ديانة «الجوع» واحدة على مر العصور والقرون . . كافر . . كافر . .! هذا الجوع الذي نهش البشرية عبر الحقب بمآسي وويلات في أثناء الحروب العالمية الأولى والثانية حيث كانت تلك الدول تستنزف جل قدراتها في الحروب والتقتيل وتوسيع ممالكها والحفاظ على عروشها ومستعمراتها . . هو الجوع نفسه الذي نراه اليوم يتمدد كشبح مخيف ومهول في دول العربية في اليمن والصومال والسودان ومصر وموريتانيا ولم تخلو منها الدول النفطية . .!

حكاية الجوع . . من لا يعرف حكاية الجوع . .؟! تتباين الأسباب ولكن الجوع واحد ، هناك أسباب توجعنا مرارة ؛ فجوعها بسبب قلة الموارد . . وهناك أسباب توجعنا بشكل أعمق ؛ فجوعها بسبب الفساد والظلم والطبقية والعنصرية . . وهناك أسباب تجعل وجعنا يلعن ويتعاظم هيجانا وغضبا ؛ بسبب الحروب والانتقامات التي امتصت الدم البشري حتى خلفّته جيفة . .!

لكن أيّ انفعال يصلح حين يتفشى الجوع في إحدى الدول العظمى الغنية عالميا . .؟! فحين نعلم أن الجوع يضرب أطفالا في اليمن أو الصومال أو السودان نتوجع ونتألم ونضيق ولكن لا يصل لحد أن نستنكر خاصة إذا ما عدنا لتاريخ هذه الدول المتطاحنة بالحروب والويلات . .!

ولكن أن يتمركز الجوع نفسه عند أطفال أمريكا أو ألمانيا أو بريطانيا يجعلنا نستنكر وبقوة . .! وسأضع دائرة حول «بريطانيا» لا لأن الجوع يضرب عظام أطفالها فقط بل لأن ثمة أسباب أخرى نوضحها في نهاية المقالة . .!

في مدينة «لندن» سادس أغنى مدينة في العالم هناك صبية جياع ويعتمدون على وجبة واحدة رئيسية يوميا ومنهم من تسقط باقي وجباته في اليوم إن لم يتحصل عليها من قمامة أو خانه التأخير فسبقه الجائعون إليها في «لندن» وحدها أكثر من ١٣ ألف طفل بريطاني يتسابقون على وجبات الطعام التي تقدمها المدارس أو يصطفون أمام جمعيات خيرية لسدّ رمق الجوع . .!

في «لندن» رغم الجوع وتفاقم سوء الأمن الغذائي وارتفاع الأسعار وتفاقم حالات سرقات الأطعمة من قبل الأهالي لإطعام صغارهم ، تعمل الحكومة على تخفيض الأموال اللازمة لهذه المؤسسات لشراء الطعام . .!

فقد كشف مسح للمؤسسات الخيرية العام الماضي أن واحدة من كل ثلاث من هذه المؤسسات قد وقعت ضحية للتخفيضات الحكومية على موازناتها ، وعليه اضطر ثلثا هذه المؤسسات إلى تقليص وجبات الطعام لكي تستمر في أنشطتها . .!

وتقول «شارلوت وليامز» التي تدير مؤسسة ستيشن هاوس والتي توفر خدمات الرعاية للطفولة : «نحن في قلب العاصفة فقد تعرض الآباء العاملون لتقليص ساعات عملهم والكثير منهم فقد عمله ، وترتفع تكاليف الغاز والماء والملابس للحد الذي اضطر فيه الكثيرون الى تقليص ميزانية طعامهم للحصول على الضروريات الأخرى» . .

نعم هناك «كساد اقتصادي» وهناك أيضا «لا مبالاة» وهناك «بذخ» على حساب الفقراء . .! فمن شهد احتفالات الملكة «اليزابيث» لاحتفالات اليوبيل الماسي لجلوسها على عرش بريطانيا يدرك حجم البذخ الذي رصف من ميزانية الحكومة على هذه المناسبة والأمر ليس هناك فقط ، بل الملكة حصلت على زيادة ضخمة من راتبها سيتضاعف إلى ٣٦ مليون استرليني من ٣٠ مليون . .!

رغم كل تلك الفظائع أعلاه تدعو الملكة الحاشية حولها إلى التقسيط والتقشف مراعاة للأحوال الكساد الاقتصادي . .!

ومن ناحية أخرى نجد دوقة كامبردج «كيت ميدلتون» زوجة الأمير وليام تبيت في الشارع في تظاهرة مع المشردين الذين يفترشون الشوارع البريطانية للنوم ، وسبق أن شارك دوق كمبريدج الأمير «وليام» في حملة مماثلة العام الماضي وكتب أحد المسؤولين في المؤسسة الخيرية آنذاك أن الأمير «وليام» اعتزم المشاركة في الحملة من أجل رفع الوعي في هذه المشكلة الاجتماعية وفي محاولة لإدراك موقف ومعاناة المتشردين المضطرين للنوم في شوارع العاصمة البريطانية . .!

فهل يكفي أن نتشارك نحن - أصحاب - الممالك والقرار والقانون في رفع مستوى الوعي أم الأولى أن نرفع من مستوى أفعالنا لدعم حقيقي وواقعي ومقنع يستفيد منه المعدم ولا يكتفي بالشعور به . .؟!

فأي «وعيٌّ» هو هذا في حيّز الأقوال فقط وهناك ملايين الجوعى يفترشون الشوارع قرب حاويات القمامة . .؟!

أنه بلا شك «وعيٌّ» كافر . . كافر . .!

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفتى الأسود صاحب السكاكر..!

في ٢٦ من فبراير كان الفتى المدعو «ترايفون» عائدا إلى منزله فرحا بسكاكره التي اشتراها من محل قريب ولكن فرحته لم تكتمل فقد أردم بالرصاص من قبل المدعو «جورج زيمرمان» الذي كان يتولى دوريات المراقبة في الحي الذي يقيم فيه في منطقة سانفورد السكنية بضاحية أورلاندو . .

«ترايفون» فتى أسود في السابعة عشرة من عمره هاجت أهالي فلوريدا ليس بسبب مقتله وحدها بل لأن قاتله «زيمرمان» في ٢٨ من عمره وهو من أصول اسبانية ما يزال طليقا ولم يسجن كونه عزا جريمته إلى الدفاع عن النفس . .

وهو ما حدا إلى تنظيم تظاهرات يومية في فلوريدا حاملين صور المقتول «ترايفون» مع سكاكر تنديدا بالتمييز العنصري والمطالبة بالعدل في القضية التي ما تزال ملابساتها غامضة ، وهذه التظاهرات امتدت إلى نيويورك وهو الأمر الذي جعل «أوباما» بكامل تأثره يقول عن القضية : «اعتقد أن علينا جميعا أن نفحص ضمائرنا لنفهم كيف يمكن لمثل هذا الأمر أن يحصل وهذا يعني أن علينا النظر في القوانين» . .

ويعني أوباما بالقوانين تلك التي تم سنها رغم الجدل حول قانون تم التصويت عليه في عام ٢٠٠٥م في فلوريدا بدعم من اللوبي الأسلحة

والقانون الذي يطلق عليه مؤيدوه اسم «دافعوا عن أنفسكم» ومعارضوه «افتحوا النار أولا» يسهل اللجوء الدفاع عن النفس . .!

قضية هذا الفتى الأسود يعيد خضّ شكوك عديدة ما تزال شائكة رغم كل شيء في تاريخ الولايات الأمريكية عن مدى أبعاد «التمييز العنصري» ليس على مستوى القضايا والمؤسسات وحدها بل بين أفراد المجتمع الأمريكي بين بيضهم وسودهم رغم التطورات السلوكية التي طفت على السطح في التعامل فيما بينهم ورغم ترشيح رئيس أسود من قبل الشعب . .

ولعل تلك الشكوك يؤكدها على الأقل مؤلفات كتابهم أو كل من يقيم أمريكا من أو أوروبا من أصل أفريقي . . وفي وقت قريب صدر كتاب فرنسي يدعى «نحيب الإنسان الأسود» لمؤلفه «آلان مابانكو» أستاذ في جامعة كاليفورنيا وكان كتابه ردا على كتاب عالم الاجتماع والمفكر الفرنسي «باسكال بروكنر» الذي كان بعنوان «نحيب الرجل الأبيض» . .

يقول «آلان مابانكو» في مقدمة كتابه : «أنا أسود ، هذا يبدو على وجهي وأخوتي السود الذين أصادفهم في باريس ينادونني : أخي . . فهل نحن بالحقيقة أخوة؟ وما الذي يجمع بين الأسود من جزر الإنتل وآخر من السنغال ، وأسود من مواليد الدائرة العاشرة في باريس إذا لم يكن سواد البشرة الذي يتم اختزالهم فيه . .؟»

بالمعنى هو ينبذ الهوية الأفريقية الشائعة على أنها «هوية سوداء» وهذا ما تؤكده أيضا الكاتبة النيجيرية المقيمة في أمريكا «شيماماندا نغوزي أديتشي» قالت في إحدى حواراتها : «اللون الأسود قد عنى أشياء كثيرة وهذا هو الذي ما أزال أقاومه - النظريات البالية التي تأتي

مع اللون الأسود – وحين أقبلت أتذكر أن شخصا ما قال لي ، رجل أسود خاطبني قائلا : «أيتها الأخت» فكرت : «هل أنت مجنون؟ لست أختك» ثم أضافت بقولها : «إذا كانت هنالك أشياء جيدة تتعلق بالولايات المتحدة لا اعتقد أنها بـ»انتمائنا لجماعة واحدة» . .

ثمة أشياء تتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية لا اعتقد أنها موجودة في أي مكان آخر هذا ما أكدته «شيماماندا» خاصة وهي تذكر أن لحظة مجيئها أمريكا عرفت أول مرة أنها سوداء ، ولم تكن واعية بعرقها من قبل وجرى ذلك في مخزن للكتب حيث أقبلت إليها امرأة وقالت لها بصوت قصير وحاد : «ألم تري القسم الأفريقي – الأمريكي؟»

الحشد الجماهيري ما يزال ناقما في شوارع فلوريدا وأحياء نيويورك وهو تجمهر لابد منه ليس لنيل التعاطف إلى القضية فقط بل لأن الحق غدا في هذا الزمن الشحيح بالعدل لا يستدعى سوى بالقوة والقوة وحدها ، وهذا ما أكده «مالكوم إكس» – أشهر مناضلي السود في الولايات المتحدة الأمريكية – : «لقد تعلمت باكرا أن الحق لا يعطى لمن يسكت عنه ، وأن على المرء أن يحدث بعض الضجيج حتى يحصل على ما يريد» . .!

الزنجي الذي قتل نفسه

لا تزال الذاكرة التاريخية تذكر حالات اضطهاد الزنوج في أمريكا مذ عقود سابقة ، وقد ألقى «أليكس هايلي» في كتابة «الجذور» تلك الحقبة القاسية في حياة السود فلقد عانى الزنوج من سرطان العنصرية ممارسات همجية ، خلفّت شعبا من الجوع والعنف والبطالة والقسوة من على يد البيض فلا ممتلكات خاصة لهم ويعد تواجدهم في أماكن نظراؤهم من البيض جريمة قانونية حتى مسمى «عائلة زنجية» لم تكن موجودة ضمن طبقات السود فحق للسيد الفصل بين الزوج وزوجته وفصل الذرية عنهما . . ومن تلك التربة القاسية برعمت أشواك زنجية كان لها صوتها الدامي فظهر «مالكوم اكس» أشد السود غضبا في أمريكا وربما انفقأت جمرة الغضب والأسى في داخله حينما كان طالبا في نهاية المرحلة الثانوية وطلب منهم أستاذهم أن يتحدثوا عن أمنياتهم في المستقبل وتمنى مالكوم أن يصبح محاميا غير أن الأستاذ نصحه ألا يفكر في المحاماة ؛ لأنه زنجي وألا يحلم بالمستحيل لأن مهنة المحاماة مهنة غير واقعية له وأن عليه أن يعمل نجارا . .! وكانت كلمات الأستاذ قذيفة مرارة وقسوة على وجدان مالكوم فالأستاذ شجع جميع الطلاب على ما تمنوه عدا صاحب اللون الأسود ؛ ففي نظره لم يكن مؤهلا لما يريد . .

ولعّل كلنا يذكر «مارتن لوثر كينج» زعيم الزنوج الأمريكي في خطابه الشهير «إني أحلم» حين قال : «إنني أحلم بيوم يعيش فيه أطفالي الأربعة في شعب لا يكون في الحكم على الناس بألوان جلودهم ولكن بما تنطوي عليه أخلاقهم» وفي كتاب «تأملات في الإنسان» تناول الناقد المرحوم «رجاء نقاش» تفصيلا بسيطا عن جنود زنجيين أبلوا بلاءً في الحرب العالمية الثانية ولعبوا دورا كبيرا في كسب الحرب وذات يوم عادت كتيبة زنجية إلى أمريكا بعد أن أسرت جماعة من الألمان ، وفي أمريكا كان الأسرى الألمان يتناولون طعامهم في المطاعم أما الجنود الزنوج فكانوا يذهبون إلى المطبخ ، وقد احتج الزنوج على ذلك وانتحر جندي زنجي تعبيرا عن الاحتجاج . . وعبّر النقاش حين كتب ذاك المقال في عام ١٩٦٣م أن مأساة العنصرية الزنجية ما تزال قائمة في مناطق ولايات الأمريكية . . فهل كان أليكس هايلي ومالكوم اكس ومارتن لوثر والزنجي الذي قتل نفسه وغيرهم حين عايشوا وعبروا عبر المأساة الزنجية كانوا يتوقعون أن زنجيا يدعى «باراك أوباما» من الممكن أن يتصدر عرش أمريكا يوما ما . .؟

«باراك أوباما» هو أول وجه أسود يدخل البيت الأبيض من باب الرئاسة فهل سيكون طوق نجاة لطبقته من السود وهل سيتحقق في عهده حلم «مارتن لوثر» في العيش بحرية مع أبنائه دون أن تتدخل لون جلودهم في ذلك أم يتبع سياسة «بين بين» كونه من أب أسود مهاجر وأم بيضاء . .؟!

نجاح أوباما ليس له علاقة بي..؟

لعل الجميع يذكر مقولة زعيم الزنوج الأمريكي «مارتن لوثر كينج» في خطابه الشهير «إني أحلم» حين قال عبارته الأشهر : «إنني أحلم بيوم يعيش فيه أطفالي الأربعة في شعب لا يكون فيه الحكم على الناس بألوان جلودهم ولكن بما تنطوي عليه أخلاقهم» . .

وهذا الحلم العظيم طالما ضجّ كأمنية في صدور جميع الزنوج عبر العالم خاصة الأمريكيين منهم ؛ فالتاريخ وحده هو من يدرك بكل سعاته حجم معاناتهم ، ليس في الأراضي الأمريكية وحدها بل على مستوى الدول الأوروبية الأخرى ، وقد دفع الكثير منهم الثمن الباهظ لذاك التفريق العنصري ، فقد حكي عن جنود زنجيين كانوا قد أبلوا جسارة في الحرب العالمية الثانية ، ولعبوا دورا كبيرا في كسب الحرب وذات يوم عادت كتيبة زنجية إلى أمريكا بعد أن أسرت جماعة من الألمان . . وفي أمريكا كان الأسرى الألمان يتناولون طعامهم في المطاعم ، أما الجنود الزنوج فرحلوهم إلى ناحية المطبخ ؛ كي يقبعوا فيه مع طعامهم ، وقد احتج الزنوج على ذلك وانتحر جندي زنجي تعبيرا عن الاحتجاج ، إنه احتجاج لا يختلف - في نظري - عن احتاج «البوعزيزي» حين اشغل فتيله ثورة الياسمين ، احتجاج من جسد رأى في الموت كرامة تفوق عن مقدار كرامة بشريته في عالم من البشر . .!

يعد اليوم «باراك أوباما» هو الزعيم الأسود الأشهر في تاريخ العالم، فاق مكانة ما كان ليحلم بها في زمن غابر أي إفريقي، ولولا أولئك الأفارقة الذين دفعوا الأثمان الباهظة مع مرور عبء الزمن لما وصل «أوباما» اليوم إلى رئاسة دولة بوزن أمريكا . .

هو أفريقي، لكن ما حقيقة دوره مع أفريقيا . .؟ هل غيّر من تاريخ قارته السوداء . .؟ هل يحظى ذو البشرة السوداء اهتمامات رئيس أقوى دولة في العالم تأثيرا على أصعدة عدة . .؟ بل ماذا استفاد السود من وجود «أوباما» في البيت الأبيض . .؟!

أسئلة هاطلة لا يتردد صداها في مقال الكاتبة فقط، بل لها أثرها الأعمق في صدى العالم اليوم . . ففي فترة أخيرة عبر مؤيدو الرئيس «أوباما» عن إحباطهم من أن أول رئيس أمريكي من أصول أفريقية لم يعبأ بما فيه الكفاية بالقارة السوداء، وهذه الانتقادات التي أشارها المنتقدون للرئيس «أوباما» يرى البعض أن مبعثها نابع من أن اهتمام الرئيس للأفارقة كان أعمق قبل أن يغدو رئيسا للولايات المتحدة، فقد عرف عنه سابقا الزيارات الكثيرة لموطن أبيه في كينيا، ناهيك عن تبني قضايا القارة السوداء حينما كان عضوا في مجلس الشيوخ، ومن الواضح أن «أوباما» قد لاحظ انتقادات الموجهة له، مما دعاه إلى القول في أثناء زيارته إلى «غانا» في حملة عام ٢٠٠٩م أمام البرلمان المحلي: «إن مؤشر النجاح الحقيقي ليس ما إذا كنا سنقدم دعما متواصلا إلى أفريقيا، بل ما إذا كنا شركاء في بناء القدرة على إحداث التغيير» . .

لكن في المقابل ثمة ثلة ترفض تلك الانتقادات الموجهة للرئيس حجتها أن سياسة «أوباما» دعمت الأنظمة الديمقراطية وقلّصت من حجم المجاعات، كما أنه ساع في تطوير مبادرات صحية لمكافحة الإيدز

غير أن انشغالاته العديدة مع أحداث العالم هي من ضيّقت زيارته إلى الأرض الأفريقية . .

ويبدو أن ليست القارة السوداء هي وحدها آخر اهتمامات الرئيس الأمريكي بل إن من يتابع الحياة الأسرية للرئيس خاصة علاقته مع شقيقته ، مما شك سيجس البون الشاسع في مستوى الحياة بين الطرفين ، فشقيقة أوباما «مايا» لا تعيش كما تعيش الكونتيسات المرفهات حين يكون أحد أفراد العائلة أو المقربين له ثقله في حكم العالم ، فهي لا تزال تمضي كل يوم إلى وظيفتها في جامعة هاواي للتربية والتعليم ولا تسكن في قصر منيف بل في شقة متواضعة خلف محطة وقود تقع على أحد شوارع هونولولو السريعة ، وليست من تلك الأنماط التي تلهث خلف الشهرة أو ضجة عدسات المصورين بل يبدو عليها الامتعاض عندما يطلب منها الوقوف بمحاذاتها من أجل التقاط صورة وتردد قائلة بين فينة وفينة كلما وجّه لها سؤال عن شقيقها الرئيس «أوباما» : «نجاح أوباما ليس له علاقة بي» فعلى الرغم من مساندتها له في أثناء حملاته الانتخابية إلا أنه لم يتكاثر في داخلها رغبة الظهور أو تسابق دائرة الثراء . .

وكل ما يجمعهما هو كم الذكريات الطيبة مبعثها أم واحدة خلفتهما وعلاقة جيدة على مستوى التواصل الاجتماعي فقد كان «أوباما» أخا حازما جيدا لأخته حين ضمهما سكن واحد إلى أن تزوجت الأخت واستقرت في منزل زوجها . .

علاقة «أوباما» مع العالم لا تخلو من توابل القيل والقال لكن سيرته مع الأخت غير الشقيقة تثير الكثير من الدهشة ؛ ففي أثناء الثورات العربية كشف الشعب العربي مدى تمتع أسرة الرئيس والمقربين

منه وحاشيته وكل ما له صلة بالرئيس في وطنه بالثراء الباذخ وأسطورة الذهب والماس والعقارات في أرجاء العالم ، بينما رئيس بثقل «باراك» تعيش شقيقته حياة أقرب إلى الكفاف ولم تفكر للحظة أن تأخذ بنصيبها مما يقذفه السلطة ويغري في زمن كزمننا الجشع . .

وقطعا «مايا» ليست كـ«ليلى الطرابيسي» أو «سوزان مبارك» كالفارق ما بين المشرق والمغرب ، وما بين الثرى والثريا . .!

نعِمْ «أتسوشي» بِئْس «بريفيك»..!

مفهوم «التضحية» في سبيل الوطن ليست مغنى أو نشيدا نردده في صدورنا أو نجاهر به كشعار عن وطنيتنا ، فالتضحية لوطن هو أمنا وأبانا ومهبط أجدادنا وحكايا تاريخنا وحدود جغرافيتنا الوطنية إن لم نعزز حبنا له بفعل نبيل وأصيل فكأن لا حب ولا وفاء ولا انتماء حقيقي . .!

ويتباين مما لاشك دورنا كمواطنين في كل وطن مهامات الفعل كوظيفة ، كأداة ، كمصدر ، كتطوير ، كابتكار ، كرقي ، كإخلاص من وعن وإلى وعلى وبـ«الوطن» . .

وثمة نماذج براقة يفخر رحم الوطن بإنجابهم ، وتضحياتهم لا تقل أصالة لأرض احتوتهم ولعل المواطن الياباني المدعو «أتسوشي واتنابي» خير مثال كمواطن وكإنسان نوى من ذات نفسه أن يقوم بدور جسيم وحساس لإنقاذ وطن من نكبات تهدد أرضه واستقراره وأمن أفراده المقيمين فيه ، فهذا الرجل فدى نفسه من أجل إغلاق مصنع فوكوشيما النووي دون أن يبال بما سيتعرض له من جرعات كبيرة من الإشعاعات النووية التي تمنعه مستقبلا من القيام كأي رجل بمهامه الاجتماعية كـ الزواج والإنجاب بل وتقلل من عمره الافتراضي . .

يقول «أتسوشي» : «أنا شخص وحيد وشاب ، وأشعر بأنه من

واجبي المساعدة على تسوية هذه المشكلة» والواضح أنه قام بهذا العمل عن عزيمة صادقة : «أعتقد أنني في مهمة لتوفير الطاقة الآمنة لليابان وأنا فخور بذلك» ويعمل هذا الوطني النبيل في المجمع النووي منذ أكثر من عقدين من الزمان كعامل صيانة ، ولم يأبه لتحذيرات أهله والمحيطين به عن خطورة الوظيفة التي انتسب لها ، لكن «أتسوشي» تقدم للوظيفة عن اقتناع تام ومارس عمله عن حب ولفرط إخلاصه أنه أثناء أزمة الكارثة التسونامي والمفجر النووي قضى أسبوعا في معسكر النازحين مترقبا كرجل مسؤول النداء من رؤسائه للعودة إلى العمل ولا يقين يستملكه سوى حب محض خام لوطنه . .

ومن حكاية بطل «اليابان» إلى «النرويج» مهبط جائزة نوبل للسلام نفغر الضوء على شخصية خلفت بقسوة مئات القتلى وأحدث ضجة هائلة في الكيان الأوروبي قبل الإسلامي ، واثبت أن ليس وحدهم المسلمون وراء كل جريمة إرهاب بل في كل صوب من الكون ثمة من في قلبه إرهاب العالم ، إنه المدعو «أندرس بريفيك» الذي يعدّ نفسه قائدا معاصرا لـ«فرسان الهيكل» أصولي مسيحي حصر أعداء أوروبا حسبما رأيه في ثلاثة : الماركسية والإسلام والتعددية الثقافية . .!

وغرض التفجيرات التي قام بها الرجل جاءت كفعل اعتراض على الهجرات المتدفقة من قبل المسلمين لدول أوروبا ، ويبدو أن بعد قيام هذه العملية اعترف «بريفيك» في حوار أجراه كسؤال وجواب مع نفسه ، وكان من ضمن ما قاله : «إذا توقف تدفق المهاجرين المسلمين إلى أوروبا أو إذا ما اعتنقوا المسيحية فإني سأسامحهم على جرائمهم الماضية ، وإذا رفضوا القيام بذلك طواعية حتى عام ٢٠٢٠م ؛ فإنها

ستكون نقطة اللاعودة ؛ فإننا سنمسحهم جميعا ولا نبقي منهم أحدا . .»

وهذا الاعتراف المنكّه بلغة الوعيد إن دل على شيء فهو انتصار ساحق لتأثير الإسلام والمسلمين في الدول الأوروبية ويبدو أن قلقا عميقا بدأ يتدفق بصوت مرتفع في أفئدة الأوربيين والديانات الأخرى من تأثير هذه القوى الإسلامية . .!

لكن ما غاب عن هؤلاء أن ديننا الحنيف أشار إلى مبدأ مهم مذ أعلن الله - عزّوجل - لنبينه الكريم على نشر الإسلام في جاهلية قريش جهرا أن «لا إكراه في الدين» . .

لكن كيف يمكن مخاطبة عقلية انغمست حتى النخاع في أفكار يهودية فـ«بريفيك» استقى بطولاته من كتاب لكاتبة يهودية «تعريب أوروبا أو أسلمة أوروبا» ضمخت الكاتبة سطورها عن مدى جسامة الأخطار التي تنجم عن كثافة هجرة المسلمين لأوروبا دون أن تسقط من سطورها المزعومة دور «نتنياهو» وسياساته للشعب الإسرائيلي هذا الشعب الذي يجب مساندته في مواجهة خطر الإسلام والزحف العربي الذي يجتاح قطاع العالم الأوروبي . .!

والغريب حقا أن هذا «اليمين» هو نفسه كان ينظر بوضاعة لليهود في غابر الأزمان على أنهم أشخاص غير قابلين للدمج في المجتمعات الغربية ، ويبدو أن السهم عينه مصوب تجاه المسلمين اليوم في المحيط الغربي . .!

والأكثر غرابة أننا طوال قرون نسعى إلى استعارة مفاهيم «الديمقراطية» و«السلام» و«حرية الرأي والمعتقد» و«مبادئ التعامل مع البشرية والعالم» من دول أوروبا . . طوال تلك القرون ونحن في وهم أن

مثل هذه المبادئ التي قضى تاريخ البشري يصارع من أجل ربق نيلها ، ما تزال تطحن تحت نير النار والدم من أجل أن تلمع واجهتها للغرب أنهم ليسوا وحدهم من أرسوا الديمقراطية والحرية في قطاعات ديارهم ، ولكن يبدو أن الحال واحد ، يبدو أن الفقاعة انفقأت ، فأوروبا نفسها لا ديمقراطيات وحريات على بلاطها وهي نفسها ملتوية الذراع من إسرائيل ، كيف لا فهناك في أوروبا من حقك الشخصي أن تلعن وتقذف بأقذع السباب رؤساء أوروبا ووزرائها وتنتقد بشراسة لاعبيها ومشاهيرها لكن حذاري ، حذاري ، حذاري . . أقولها بالثلاث أن تهمس شيئا في حق إسرائيل أو في حق الجالية اليهودية ؛ لأن كلامك قد يفهم في غير سياقه ولأن التهمة جاهزة «العداء للسامية» بل قد يحدث لك أسوأ مما حدث مع «جون جاليانو» كبير مصممي دار أزياء «ديور» التي طردته من داره ؛ لزعم يهودية أنه شتمها . . أي عاد السامية . .!

هل لنا في ختام المقال أن نقف مع قول «جان بول سارتر» حين اعترف بعد سنوات قضايا كسندباد رحال في أرجاء العالم : «إذا أردنا أن نفهم هذه الدنيا ، القليل منها فقط ، فمن الضروري أن نتخلص من الضغينة» . .

والكاشف جدا أن «أتسوشي» كان قلبه مشرقا كالشمس حين ترك دنياه من أجل قضية وطن ، والواضح كفلاش في نفق مظلم أن «بريفيك» فاته تنقية قلبه المتفحم فورّط نفسه ووطنه في قضية مستعارة من اليهود . .!

لو أنهم في منطاد واحد..!

صرّح الروائي السويدي «هيننغ مانكيل» صاحب أكثر الروايات البوليسية مبيعا في العالم عن رد فعله تجاه «أندرس بريفيك» في مجزرة يوتويا بالنرويج قائلا : «مهما كتبت من قصص خيالية فإن الحقيقة تبدو هي الأسوأ ، إذا استخدمت الجانب الشرير من عقلي لأكتب مثل هذا الحدث وعن رجل يمشي متمهلا في معسكر صيفي هادئ وبهدوء يقتل شخصا بريئا وراء آخر ، فإن القارئ سيعتقد أن هذا غير ممكن على الإطلاق وقد يعتبره سخفا» . .

مضيفا أن شخصية «بريفيك» هي شخصية مملوءة بالكراهية وتعاني من حالة نفسية سيئة واضطرابا نرجسيا هائلا ، لكننا نستطيع القول بأن في أوروبا نماذج جيدة لبشر وزعماء مروا عبر تاريخها وفي قلوبهم ثمة كوة مضيئة عن الإسلام والمسلمين في أوروبا وخارجها على سبيل المثال لا الحصر نذكر الرئيس الأمريكي في عهود عتيقة «توماس جيفرسون» هو أكثر رئيس أمريكي ارتبط اسمه - كما قيل - بالإسلام والمسلمين وكانت لديه نسخة من القرآن الكريم يستمد منها بعض القوانين الأمريكية ، و«جون آدامز» وهو رئيس أمريكي سابق هذا الرجل نعت الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه «أعظم الساعين في التاريخ إلى الحقيقة» وفي الوسط الأمريكي لا يفوتنا ذكر الرئيس

الأمريكي «بيل كلينتون» الذي دعا الصائمين في عهد لمأدبة إفطار كسبيل لتوثيق أواصر الصلة بين المسلمين والمسيحيين في أمريكا، وغدت من بعهده تقام بصفة سنوية ورغم تحفظنا على غاية سعي هؤلاء الرؤساء لضخ روح الإسلام في المحيط الأمريكي بين المسلمين لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نسقط التناقض الفاغر بين موقفي كل من «جورج بوش» و«توني بلير» اللذان يعلنان على الملأ احترامهم للإسلام وعملهم ببعض آيات القرآن الكريم إلا أن كلاهما شنّا في وقت ما حملة ضد الإسلام بمسمى «شن حرب صليبية ضد الإسلام» . .! ولازالت عبارة الممثل الهوليوودي «جورج كلوني» تدوي في أذني حينما قال: «جورج بوش وتوني بلير ورايس سوف يتبرأ منهم التاريخ ذات يوم» تبرأ منهم يا «جورج كلوني» تبرأ وانتهى . .!

ولعل الصحفية البريطانية «لورين بارث» وهي الأخت غير الشقيقة لزوجة الرئيس الوزراء البريطاني «توني بلير» والتي أعلنت إسلامها منذ وقت قصير، لعلها لم تبالغ حين أكدت عن نظرة الغربيين إلى الإسلام مشيرة أن نظرة الغرب إلى المسلمين نظرة خاطئة فهم يعتقدون أن المرأة المسلمة ما هي سوى فقيرة وملفوفة بعباءة سوداء ولا تملك رأيا في المنزل ولا تعمل أي شيء . .!

«لورين بارث» إعلامية مشهورة في الأوساط الإعلامية عبر العالم التي اعتنقت الإسلام بعد سنوات قضتها في فلسطين زارت خلالها كل من مصر ولبنان والأردن، والتي غدت تبدأ يومها بالصلاة وتنهيه بالصلاة وتخرج من المنزل محجبة بعد إشهار إسلامها . .

الطامة التي تعانيها العقلية الغربية كبريفيك وغيره أن هذه الثلة متعفنة بالأكاذيب التي روجتها الصهاينة ومتعصبون من الغرب عن

الإسلام والمسلمين ، أنهم ضحايا مغفلون لمهرجي الإعلام الرخيص الذين ينكب عملهم على ترويج إشاعات مغرضة عن ثقافة الإسلام بأنهم متوحشون ويعانون من أزمة امتصاص الدماء البشرية غير الخاضعة لحكم الدين الإسلامي ، أنهم يعتقدون أن الإسلام مكهرب بأفكار تقتضي هدم كل ما لا يمت شعائر الإسلام . .!

أشار مرة «جورج واشنطن» وهو أول رئيس أمريكي بقوله : «إن أمريكا مفتوحة لاستقبال المظلومين والمضطهدين من جميع شعوب والديانات» رغم أن هذا التسامح تقلص تدريجيا في أعقاب هجوم الحادي عشر من سبتمبر ووحدهم المسلمون هم من دفعوا الثمن . .!

وياله من حلم عتيق مفرط الجمال . .!

ويبدو أن هذه العبارة رسخت كمعنى في أيام «قرطبة» كما عرضه فيلم وثائقي يحمل عنوان «الخروج من قرطبة» الذي يحكي عن أعظم فصل في فصول التاريخ الأوروبي ألا وهو إسبانيا المسلمة ، لمدة تزيد على ٨٠٠ سنة ، كانت أجزاء شاسعة من شبه جزيرة أيبيريا تحت الحكم الإسلامي ، وتعد تلك الفترة من الأندلس كما يسميها الإسبان من أصول إفريقية وحتى يومنا هذا حقبة سادها «التسامح» حيث عاش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون معا وبسلام في معظم الوقت تحت لواء «العيش المشترك» وكأنهم في منطاد واحد - الضرر يصيب والخير يعمّ - الجميع بلا استثناء ؛ فيا زمان الوصل في أندلس . .!

العقلنة الأوروبية في زمن مضى ظلت راسخة في أن الإرهاب هو أصل نابع من دين مسمى الإسلام ، لكن بعد تفجيرات أوسلو لعل النظرة الأوروبية استبدلت شطرها من اليمين إلى اليسار وإن بنسبة ضئيلة كحفنة أمل لنا نحن - المسلمين - من تهم كل دمار مبعثه مسلم . .!

ما ينقص أوروبا وكل الذين تشوهت عقلياتهم عن الفكر الإسلامي نقول لهم ثمة أمثلة كنيزك وامضة لأشخاص عرفوا الإسلام وفهموا حقيقته ومن هذا الفهم والمعرفة اقتبسوا ثمرة الدين الإسلامي واشهروا إسلامهم بكل فخر ، وما أكثرهم من زعماء وسياسيين ومشاهير في الفن ورياضيين وأطباء وعلماء ورجال دين ومفكرين وأناس بسطاء كـ«السموأل يحيى» أهم عالم توراة ومؤلف كتاب «إفحام اليهود» ، «يوسف إستس» قسيس أمريكي سابق ، «كيتس إليسون» عضو في كونجرس الأمريكي ، «إتيان دينيه» مفكر ورسام فرنسي ، «دانيال مور» شاعر وكاتب أمريكي ، «محمد علي كلاي» وأشهر على علم في ملاكمة الوزن الثقيل ، «مالكوم إكس» . . وغيرهم الكثيرون الذين استوطنوا الإسلام عن قرب فجسّ صميم قلوبهم . .

نبوءة «يوئيل ماركوس»..!

أشار الصحفي «يوئيل ماركوس» بأن : «الزمن لا يعمل في مصلحة إسرائيل ، سيحل الوقت الذي يبدأ الجمهور يفهم فيه أن حكومته لا تحكم ، بل تحارب من أجل استمرار وجودها» . .

ما يجري في واقع العالم العربي من تأجج الضمير العربي ، وثائرة الشعوب في نيل حياة أكثر استحقاقا لكرامتها الإنسانية ، كل هذه الصحوات تكون كالطعنة المسمومة في تاريخ إسرائيل التي طوال تلك القرون وهي تزرع ألغام الفتن والحروب والغاية تبرر وسائلها الدنيئة في كل بقعة يمس وجودها اللاوجود . .!

وإذا ما كانت الانتفاضات التي تصدت لها إسرائيل وقمعت وجودها حتى على عوالم افتراضية كانتفاضة الأولى والثانية التي شحذت الهمم الشباب العربي على الفيس بوك ؛ فإن محاولاتها للتنكيل بها لم يمنعها عن فرض انتفاضتها الثالثة التي تتكاثف جذوة حماستها يوما بعد يوم ، وارتفاع أصوات الشعب الفلسطيني في حق تقرير مصيره بإقامة دولة مستقلة عاصمتها القدس ناهيك عن الصلح الذي أجرته مصر بين فتح وحماس ، وما أثمرته من فتح معبر رفح وهي خطوة نددتها السلطات الإسرائيلية بشدة . .

هل الزمن ضد إسرائيل حقا . .؟

سؤال فضفاض بحجم ضخامة العنف الإسرائيلي ضد الإنسانية، ولكن على ما يبدو أن رعاياها أو المنتمين تحت بلاطها أدركوا ومازال الكثير منهم يدرك أن إسرائيل تعمل لمصلحة وجودها فقط بغض النظر عن الوسائل التي تمارسها لفرض هذا الوجود، ولمن تابع قضية ضرب التي تعرضت لها المناضلة اليهودية الأمريكية «راني أبيليا» من المنظمات اليهودية الأمريكية الداعمة «أيباك» في الكونغرس الأمريكي وذلك لأنها قاطعت خطاب رئيس الوزراء الإسرائيلي «بنيامين نتنياهو» فقد استفزتها عبارات «نتنياهو» عن إسرائيل والديمقراطية مما حداها إلى الصراخ في وجهه قائلة : «أوقفوا جرائم الحرب الإسرائيلية» وقالت إن نتنياهو يزعم بأن حدود عام ١٩٦٧م ليست قابلة للحماية وبينما ترى هي بدورها بأن الاحتلال والجوع في غزة ليسا قابلين للحماية . .

وعلى إثره رقدت الناشطة في المستشفى في واشنطن، والمعروف عن أبيليا أنها بعد زيارتها لغزة قررت أن تكرس حياتها في أنشطة حركات الاحتجاج ضد جرائم الحرب الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، كما أنها كانت ضد منظمة «أيباك» لأنها تتبع سياسة القضاء على رأي الآخر وإسكاته . .!

وتشدد على ضرورة ممارسة ضغط اقتصادي على إسرائيل وملاحقة زعمائها، وهو رأي يتفق تماما عما أشارت إليه الممثلة الأمريكية وسفيرة النوايا الحسنة للمفوضية العليا لشؤون اللاجئين «أنجلينا جولي» التي انتقدت إسرائيل أثناء حربها الأخيرة على غزة وصرحت آنذاك بأنه على العالم أن يتحد ضد إسرائيل، وموقف الروائي البرتغالي «جوزيه ساراماغو» الذي رأى أن إسرائيل التي مورست عليها القمع في زمن «هتلر» في أنها تمارس هذه الوحشية نفسها على من حولها، وحين

صرح بهذا في وجهها قبل وفاته منعت إسرائيل بيع كتبه ، وهو لا يبتعد كثيرا عن رأي الروائي الياباني «هاروكي موراكامي» وخطابه الذي ألقاه في القدس ٢٠٠٩م عندما استلم الجائزة الأدبية الرفيعة في دولة إسرائيل ، و قد طولب «موراكامي» بعدم قبول هذه الجائزة بسبب العنف الهائل الذي كانت إسرائيل ترتكبه بحق المدنيين العزل في قطاع غزة ، بيد أنه آثر الذهاب لتسلم الجائزة و ألقى خطاباً أدان فيه العنف الإسرائيلي قائلا عبارته الشهيرة في الخطاب : «عندما يكون هناك جدار صلب شاهق و بيضة تتكسر عليه فإني سأقف دوماً إلى جانب البيضة» وغيرهم الكثيرين من كتاب ورجال أعمال ومشاهير في مجالات عدة انتقدوا الصهينة الإسرائيلية وسياستها ولكن الملاحظ ، أن معظم هؤلاء من الغرب ومنظماتها الحقوقية العالمية ، الذين رجحوا كفة الإنسانية على كفة المصالح الذاتية ، فلا يغيب عن الكثيرين سياسات القمع والملاحقات التي يتعرض لها كل من وقف بجسارة ضد إسرائيل . .!

ولا تغيب وحشية سياسة إسرائيل عن الكافة ففتاوى الحاخامات تسمح بقتل غير اليهود سواء كانوا رجالا أم نساء أم أطفالا حتى الدواب التابعين لهؤلاء يعاملون بالمثل ، ولأن سياستها في القتل صارمة فاليهودي الذي يقف ضد مصلحة إسرائيل أو حين يكون فاعلا في مناهضة جهة أخرى مضادة فإنه سيدفع الثمن هذه المناصرة بأبشع الطرق والوسائل ، كما فعلت مع «لوقا إلياف» سكرتير عام حزب العمل الإسرائيلي الذي جاء في كتاب له اقترح فيه فكرة إقامة دولة فلسطينية مستقلة وأن تعيش بسلام جنبا إلى جنب مع إسرائيل في أراضيها ، مما حدا بالصهاينة إلى عزل الرجل من منصبه وقامت

الجماهير بقذفه بالبيض والطماطم في كل مكان ، وحرم من دخول المعابد والمنتديات العامة عقابا له على ما كتبه في صالح فلسطين ، وكما نهجت سياسة الضغط عينها مع «جولدستون» و«بني مورس» ليجعل الأخرين يغيران موقفهما لصالح الصهيون الإسرائيلي . .!

نبوءة «يوئيل ماركوس»..!

مما لا شك فيه أن موقف الناشطة اليهودية الأمريكية «راني أبيليا» موقف شجاع جدا كاشفة بذلك عن عقلية يهودية مغايرة، وهو موقف يصدق على حقيقة نادرة طالما سار على دربها الكثيرون حين اثبتوا أن ثمة فارق فاغر ما بين «اليهودية» و«الصهيونية» في معاني تعاطيها للإنسانية والقيم والأخلاقيات وتباين نظرتهما للآخرين من البشر على اختلاف أجناسهم وأديانهم، و«أبيليا» هي نمط من الآلاف الذين يرفضون رفضا تاما لكل ما تنتهجه الصهيونية الإسرائيلية من انتهاكات في حق الشعب الفلسطيني والآخرين من العرب والمسلمين، وقد أشارت إلى شيء مهم من خلال اعترافها الذي لا يقل جسارة عن موقفها الصمود حين قالت: «نحن جيل شاب من اليهود الذين لن نصمت ولن نسمح لرؤساء الحكومات الإسرائيلية بالتحدث، ونرى أن بإمكانهم أن يتحدثوا فقط في المحكمة الدولية، فهي التي تحاكم مجرمي الحرب..»

ويبدو أن نزعة التحرير اجتاحت روح الشباب اليهودي الذي يرفض بشدة سياسة التابع والمتبوع التي حرصت سياسات التربية الصهيونية انتهاجها، وقد اثبت ذلك في المظاهرات التي احتشد فيها آلاف الإسرائيليين حاملين أعلاما إسرائيلية وفلسطينية طالبين بحق

الفلسطينيين في إقامة دولة ضمن حدود ١٩٦٧م تحت شعار «نعم لدولة فلسطينية ونتنياهو يقودنا إلى الكارثة» ويبدو أن المستقبل سيفرز تطلعات يهودية شابة متباينة تماما عن رؤى الصهاينة ومخططاتهم ، فإذا ما كان جيل العرب العتيق كان ميالا إلى التشاؤم والخضوع والهزيمة ، فإن جيل الشباب العربي الآني أثبت للعيان وللأجيال التي ولت أن الأزمنة قابلة للتغيير كما البشر والعقول وتطلعاتهم . .

نعيد السؤال تارة أخرى : هل الزمن ضد إسرائيل . .؟

يرى الصحافي «فيليب استيفنز» في «الفاينتشال تايمز» بأن «نتنياهو» قاد إسرائيل إلى عزلة دولية ، وأفرزت علاقته المشروخة مع «أوباما» ما يشبه الفراق بينه وبين أوروبا ولم تستطع كل من فرنسا وبريطانيا من إخفاء استياءها وفقدت ألمانيا بحكم أسباب تاريخية صبرها معه ، وجاءت نقطة التحول في فبراير الماضي عندما أيدت هذه الدول قرارا أصدره مجلس الأمن يشجب توسع «نتنياهو» في بناء المستوطنات غير الشرعية وأيد ١٣ من إجمالي ١٥ عضو في مجلس الأمن هذا القرار . .

وليس هذا فقط بل ثمة أعداد هائلة من اليهود يرغبون في الحصول على جوازات سفر ثانية للهجرة إلى أوروبا بعيدا عن الجحيم السياسي التي قبعت فيه إسرائيل نفسها في فلسطين ، وبحثا عن الأمان الشخصي والوطني المفتقد في ظل عدم وجود ثقة واحترام بين اليهود وزعمائهم الذين يعتبرونه فاسدين وعالة على القيم اليهودية التي خطفتها الصهيونية ، خاصة من المهاجرين اليهود الروس الذين قرر معظمهم الاستقرار في روسيا بعد نبذهم للصهينة الإسرائيلية الفاسدة ، وبعد تلاشي الأحلام الوردية في حياة مخملية بالتوظيف

والعيش الرغيد في ظل إسرائيل ، ويبدو أن الولايات المتحدة الأمريكية غدت هي اليوم ، لجيل اليهودي الجديد «أرض الميعاد» هاربين أسرابا إليها . .

ولعل الزمن الآتي سيثبت لنا صدق نبوءة «يوئيل ماركوس» وهو زمن تخشاه إسرائيل بشدة وهي تعرف جيدا رغم كل محاولات الصمود الخسيسة اللامشروعة والخالية من الإنسانية التي تقترفها أن وحدها شجرة الغرقد تنحاز لها كما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن الرسول - ﷺ - قال : «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبدالله ، هذا يهودي خلفي ، تعال فاقتله إلا الغرقد ، فإنه من شجر اليهود . .

ولو رغبت إسرائيل نصيحتي ؛ فإن من مصلحتها زراعة أشجار الغرقد عوضا عن كثافة بناء المستوطنات التي تلتهم الأراضي الفلسطينية ببطن كالحوت لا يعرف للشبع طريقا ، لكن يبدو أن غرور - شعب الله المختار - كما وهمّت نفسها المستبد تأبى النصح ؛ وذلك شأنها الخاص . .!

جنود على أرجوحة الجوع..!

في خبر تداولته معظم الصحف العربية منها والأجنبية عن ضباط من الروس اضطرتهم ظروف الحرب على تناول طعام الكلاب وكان يقدم لهم على شكل حساء ، بعد أن تم استبدال الملصق الأصلي بملصق آخر على العلب كتب عليه لحم بقر عالي الجودة . .!

أحالني هذا الخبر إلى دور الكبير الذي تحملته قوات الشرطة الخاصة في اليابان أثناء أزمة البلاد من تسونامي الزلزالي ، ناهيك عن دورهم الخطير والشجاع والنبيل للبعض منهم في معمل المفاعلات النووية حين قاموا بجسارة لاستكشاف مدى تأثيره مع علمهم المسبق بأنهم سيكونون وليمة للموت . .

وفي تاريخ القديم في زمن غزوات - الرسول صلى الله عليه وسلم - قاتل المسلمون في غزوة بدر وهم صيام في شهر رمضان وغزوات أخرى كان الرسول عليه السلام والصحابة الكرام يضطرون إلى ربط خجر على بطونهم اتقاء لشر الجوع

معاناة جنود الحروب والأزمات الطبيعية في كافة الدول وفي كل زمن كانت شاقة ومؤلمة في معظمها ، فالجندي هو درع الذي يحمى به الوطن لهذا فهو أول من يضحي بجسده في سبيله . .

وفي قراءة لرواية الكاتبة الألمانية «هيرتا موللر» الحاصلة على جائزة

نوبل للآداب عام ٢٠٠٩م في روايتها «أرجوحة النفس» عرضت وصفا عميقا ودقيقا لمعنى معاناة الجنود في حروب دامية ، تقتل الإنسانية وتهدر الكرامة البشرية في سبيل أهداف لا غاية منها سوى تحقيق استعلائية يقوم بها بعض الزعماء من أجل دخولهم معترك الخلود على حساب الآخرين . .!

في روايتها وهو عبارة عن سرد لسيرة ذاتية لأحد الجنود المشاركين في تلك الحروب ، فلقد حمل السوفييت ذنب الجرائم النازية للأقلية الألمانية وبأمر من السوفييت قيد خلال الحرب اعتبارا من الأول من كانون الثاني / يناير عام ١٩٤٥م كل الرومانيين من أصل ألماني الذين كانت أعمارهم تتراوح بين ١٧ و٤٥ سنة إلى معسكرات العمل الشاق لـ«إعادة بناء ما دمرته الحرب» ليعملوا فيها كعبيد خلال فترة تصل إلى خمس سنوات ، كما كانت هناك قوائم يقتاد البشر على أساسها إلى التجمعات في محطات القطار ومنها إلى المجهول في عربات كانت مخصصة في العادة لنقل الدواب ثم تستمر الرحلة فيها أسابيعا وغالبية تلك المعسكرات تقع في أوكرانيا . .

في تلك المعسكرات التي افتقدت حتى أقل درجات البيئة الصحية التي من الممكن أن يحياها آدمي على أرض البقيعة والتي تشي للمرء أن تلك الثكنة البشرية المتكتلة من رجال ونساء الذين سخروا كأيدي عاملة لإعادة الإعمار يعيشون في زرائب أشبه بزرائب الخنازير . .! في جو معتم في درجة صقيع تصل إلى ٣٠ تحت الصفر كان ثمة ملاك يدعى «ملاك الجوع» الذي لم يكن يهبط فجأة بل كان قابعا في ثكنات تلك المعسكرات في أغطية الأفرشة المقملة بالقذارة ، في الأواني الحديدية الصغيرة الفارغة دائما إلا من لقمة وسخة لا

تؤكل ، في الطابور الصباحي وهي ترص أجساد هزيلة ترتجف من البرد والجوع ، ماذا يمكن أن يقول المرء عن الجوع . .؟!

الجوع في كل الأديان كافر وعلى كل بقعة يخلّف جرائما ، بدءا من حياة الغابة عند الحيوانات ، تلك السياسة التي لا يمكن لنا سوى أن نقرها شئنا أو أبينا ، فالأسد زعيم الغابة لن يتخلى عن حصته من فخذ غزالة من أجل مراعاة المشاعر الحيوانية التي لا وجود لها في قانون الكون عند هذه المخلوقات التي خلقت بلا عقل مفكر ، وهذا ما يجعلها ربما في مقام أعلى من الإنسان الذي يتخلى عن مشاعر وقلبه وضميره الإنساني ليتحول إلى جنس آخر أشبه بوحش ، من أجل أن يحصل على حصته مما يسكت جوعه الذي لا يعرف للصبر دربا حينما ينتفخ ، فيغطي على بقية الأعضاء ليحولها إلى لا شعور من أجل عين لقمة تشبع . .!

يضعنا هذا أمام شواهد التاريخ وما أكثرها . .!

تحدثت «جيسيكا ويليامز» مؤلفة في كتابها عن حقيقة «الجوع» العالمي فذكرت أن الإحصاءات الدقيقة تشير إلى أنه يتعرض للجوع ٨٠٠ مليون شخص كل يوم ، بينما يعاني ٢ مليار آخرون من سوء التغذية المزمن ، في حين يموت ١٨ مليون شخص سنوياً من أمراض مرتبطة بالجوع ، ناهيك عن أنه يعاني ٢ مليار شخص في العالم من نواقص المغذيات الدقيقة والتي تؤدي إلى مشكلات صحية مزمنة ، وترتبط حوالي نصف وفيات الأطفال دون الخمس سنوات بسوء التغذية ١٠ مليون طفل كل سنة مؤكدة أن منظمة الصحة العالمية WHO قررت أن الجوع وسوء التغذية هما من بين أخطر المشكلات التي تواجه فقراء العالم .

ماذا عن حالة «المجاعة» التي أعلنتها الولايات المتحدة رسميا في الصومال . .؟! وهي دليل قاطع على تفشي نسبة عالية من معدلات سوء التغذية عند الأطفال وعلى ارتفاع نسبة الوفيات التي تصل إلى وفاة كل شخصين بين كل من عشر آلاف مواطن في اليوم الواحد . .!

إن جوع هؤلاء الفقراء التصق بهم كتوأم مذ جرت دماء الحياة المعوزة في شرايينهم الجافة ولعل الجوع الأفريقي في كافة أصقاعه الخالية إلا من الفقر والأمراض وجوع مستديم يرافقهم في حلهم وترحالهم ، عكف تفكيرهم في هذه الحياة مذ طلقة الولادة إلى شهقة الموت على رغيف كتب عليه من هيئات إنسانية لحقوق الإنسان ، هذه الهيئات وجدت لأن ثمة إنسانية خالية مما يسمى بالحقوق . .!

وهي وحدها احتفالية خارقة أن يجد أحد هؤلاء قوت يومه دون أن تقرصه قرصات الجوع المهلكة التي تقلبه في شتى الفصول على حال واحدة وحلم واحد يتكرر ولا ينتهي كهيئة سرمدية ، جوع هؤلاء الذي يدفع الملايين الممتلئين بكل شيء سوى جوع من نوع آخر يفتقدونه حد الخواء العميق ، إنه جوع الروح وهو علة خلقت مع الذين ولدوا ومعلقة من الذهب في أفواههم من فرط الامتلاك وزخم الامتلاء حتى نفذت أرواحهم من كل شيء سوى آفة الحسد والبغض إلا فيما ندر عند حفنة نادرة ما تزال ضمائرهم حية . .!

فالجوع البشري كاسح منذ طفولة الزمن إلى أرذله ، يذكرها هذا بقضية المحقق في رواية «فيكتور هوغو» المسمى بـ«البؤساء» الذي طارد «جان فالجان» على مدار سنوات لتثبيت العدالة ؛ لأن جوع هذا الرجل سرق في لحظة جوعه الكافرة قطعة من الخبز أدانته كمجرم فار من يد العدالة ، ويا لها من عدالة . .!

وهنالك جوع يجعل الغضب يثور من عقاله كما ثارت ثائرة الشعب في عهد الملكة فرنسا طالبين الخبز ولكن رد فعل الملكة صبّ البنزين على الغضب حتى تأجج في هياج ملعون حين علقت بسذاجة جاهل عن أحوال الشعب ومعاناته : «ولماذا الثورة إذا لم يجدوا الخبز ؛ فليأكلوا البسكويت» . .!

هذه الثورة الفرنسية ويضاف إليها ثورة الحرب الكبرى بين عامي ١٩١٤ - ١٩١٨م التي كانت وقائعها بشعة فكل طرف من الأطراف أدى إلى تجويع الآخر عن طريق الحصار ، بينما ثورة آذار / مارس التي بدأت بأحداث شغب في العاصمة سببها قلة الطعام مما جعل الجنود الروس يتمردون والذين كان يفترض بهم قمع ذلك الشغب وظهرت حكومة مؤقتة أدت إلى تنحي القيصر عن العرش . .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد وفي أول ديمقراطية حقيقية في تاريخ العالم اضطر اليونانيون من رجال ونساء وأطفال إلى استهلاك اللحم البشري ، وكان هؤلاء الناس- الذين أكلوا لحوم البشر هم الفقراء- ممن كانوا من ضحايا الحرب الذين تعرضوا إلى حصار في شمال اليونان ، إذ أنه بعد أسابيعِ من الهجوم عليهم ، نفد كل الغذاء الموجود في مدينتهم المحاصرة وتفشّت الأوبئة فيما كانت تصطف خارج الأسوار قوات التحالف لأثينا القديمة ، إنها ثورات كانت من أجل إشباع شهوة البطن وهي شهوة إن افتقدها الإنسان فسوف تموت كافة أحاسيسه وانفعالاته سوى امتلاكها مهما كانت السبل والطرق ، ففي أرض الجياع لا قوانين عدا قانون إرضاء شهوة الجوع المستفزّ حتى آخر رمق ، ما أكثر الجرائم التي يخلفها الجوع ، وما أكثر ضحاياه في بوتقة قاتليه ومقتوليه . .!

جنود على أرجوحة الجوع..!

وللجوع سيرة مغرية ؛ لأنه يعي كخبير كيف يجعل العالم والإنسانية كافة تُخلص التفكير فيه كقضية أساسية ، لا يمكن في حال من الأحوال ومهما كانت الظروف إسقاطها من قائمة الحياة . .

وليس وحده انعدام الأمن الغذائي يشكّل أزمة جوع ، بل ثمة جياع من نوع آخر . . جوع التشفي من الجنس البشري كالمجازر التي يقترفها الجنود في حق البشرية كما فعل جنود الأمريكان في السجون العراقية وفي الأفغانستان وفي معاقل الغوانتانامو وغيرها من معاقل التعذيب والعنصرية والوحشية ضد إنسانية الإنسان ، في وجه ذاك التعذيب حيث ينتصب الإنسان خصما أمام إنسان مثله ولا اختلافات بينهما سوى لعله في لغة أو دين أو وطن ، وهذه الاختلافات هي مبعث أكثر الصراعات البشرية في الكون ، وكم فات أسياد هذه الدمى البشرية التي تتعارك من أجل صنم مسكون بنوازعه المريضة ، الوقوف على حقيقة قوله تعالى ﴿جعلناكم شعوبا وقبائلا لتعارفوا﴾ لا ليتحاربوا ولا ليمصّوا دماء بعضهم بعضا . .!

فلدى هؤلاء جوع سحق إنسانية الإنسان وعنف هؤلاء نابع من عوامل عدة أهمها الغربة والضغط النفسي ، والعنف الموازي للتسلية وقتل الضجر ، وماسوشية التي تتمثل في متعة التشفي بالآخر كما

جوع «هتلر» حين قذف اليهود في أفران يهوديا بعد آخر و«نيرون» الذي احرق بجوع حقده المجنون تاريخ روما ، كما «القذافي» الذي قفّص شعبه في أقفاص الجرذان ، كما «علي عبدالله صالح» الذي بهت حين استيقظ شعبه بعد أن كان وأعوانه يهبون لهم «القات» كهدايا يمجّه عقولهم نهارا وليلا لغفلة الحياة والحقوق ، كما «بشار الأسد» الذي استبدل مهاماته من رئيس دولة إلى «جزار» يقطع أطراف أبناء شعبه ليكونوا وليمة طازجة بدم ساخن في جرف الأنهار . .!

هؤلاء الجنود حكايتهم مع الحياة في اختلاف متواز ومتناقض فما قبل الحرب ليس كما بعد الحرب ، والعديد منهم افتقد بعد الصراع الدامي الذي وجد نفسه في دوامته ورائحة الدماء والجثث المآل من الحياة تماما ، فاقدين بما يسمى ببارقة الأمل في حياة نقية . .

والبعض يقضي حياته في كوابيس تكبس على مناماته في أحلام مؤرقة دربها مسدود إلى حلم مسالم ، وهناك من تجردهم الحروب من انتمائهم الإنساني ، وقلّ أن تغفر لهم الحياة القاسية التي عايشوها ومارسوا تبعاتها مع من شاطروهم مساحات الدامية كاعتراف أحد الجنود الذين رماهم القدر للمشاركة الإجبارية تحت ضغط الهلاك في إحدى النزاعات وهو ما يزال طفلا لم يتجاوز الثامنة من عمره وقتذاك : «أنا خائف اليوم ، ولا أدري عائلتي ، وليس لدي مستقبل ، فحياتي ضائعة وليس لدي ما أعيش من أجله ، ما عدت أستطيع النوم ليلا ؛ إذ أظل أفكر في تلك الأشياء الفظيعة التي رأيتها وفعلتها عندما كنت جنديا» . .

وللصهاينة سياسية مختلفة يقرها فتاوي «حاخاماتهم» والتي من أبرز موادها «القتل البشري» التي تسمح بقتل غير اليهود سواء أكانوا

رجالا أم نساء أم أطفالا كما أصدرها «مردخاي الياهو» : «اقتلوهم وجردوهم من ممتلكاتهم ، لا تأخذكم بهم رأفة ، لا تتركوا طفلا ، لا تتركوا زرعا أو شجرا ، اقتلوا بهائمهم من الجمل والحمار» . .!

ولا تترقبوا شيئا يدعى رحمة من سجل الصهيون فحتى وزراءهم لم يشفع لهم حين تدخلوا في قرار تنازل عن ما يخص الأراضي الفلسطينية ، حيث أبيح بقتلهم بما يناسب ومصلحة اليهود ، أي أنها تمارس سياسات «تصفية» تجاه كل من يجسر ويتحدى الوقوف في وجهها . .!

أي أن جنود اليهود منذ أعلنوا التحاقهم بالصهيونية تخلوا عن كل مفردات التي تمت الإنسانية بصلة تجاه الآخرين كما أشار الممثل الأمريكي «ميل جيبسون» وهو معروف بمواقفه الجريئة وصداماته مع اليهود مذ فيلم «آلام المسيح» : «الصهاينة هم منبع الدمار في العالم وأتمنى لو بإمكاني محاربتهم كالجنود» فالسياسة الصهيونية قائمة على التشكك حتى من الذبابة التي تطن فوق رؤوسهم ، إنه أشد أنواع الجوع بشاعة على أرض الخليقة وأمرّها . .!

وهناك جوع إلى الأمومة ، إلى الحب ، إلى الحنان ، تلك القيم الاجتماعية العميقة والمهمة كانفعالات طبيعية في حياة كل جنس بشري وافتقاد إحداها يؤدي غالبا إلى جرائم متفاقمة وبشعة ، لعل من أبرزها جرائم الاغتصاب والشذوذ والخطف وغيرها من أجل إيجاد إشباع لحاجات اجتماعية وئدت من بيئة الجاني في زمن ما دون وجه حق أو عززت فيه على نحو قسري كسلوكيات خاطئة اكتسبها من بيئة خطأ . .!

ثمة جوع آخر أيضا معنوي جوع الإنسانية إلى قيم نبيلة تشعرها

بكيانها البشري على أرض الواقع ، جوع إلى العدالة والكرامة والحرية والحب والعيش الكريم ، فثورات العربية من محيطها إلى خليجها لم تكن لجوع اللقمة وحدها ونقص ذات اليد بل كان جوعا نابعا من شعور الإنسان بالعار في وطنه الأم . .

وهناك من يبيع نفسه من أجل قطعة خبز ووحدها الحرة تجوع لكنها تأبى أن تبيع نفسها إشباعا لشهوة جوع . .!

هذا هو المبدأ الذي سار عليه هؤلاء ، أحرارا يطلبون حقا شرعيا وليس مسلوبا ، خلق لهم ولكن قطع عن الوصول إليهم . . ثمة وحوش بشرية عبء على الإنسانية الجمعاء لا همّ لها سوى إشباع أهواءها حتى التخمة على حساب حقوق الآخرين وقسطهم من الكرامة والسلام والعدل والخير العميم . .!

وتاريخ الثورات الحالية شاهد عيان على جنود لم يثاروا مع شعوبهم من أجل لقمة بل من أجل حياة يستحقونها كما يستحقها أي إنسان عزيز له حقوق ، إنه جوع غني بالكرامة ، فياله من جوع مشّرف . .!

كاتب طريق

عندما نلمح خربشات على جدران أحد الشوارع في حي أو منطقة أو مدينة ما ندرك خير إدراك أن ثمة أشقياء من الأشخاص حاولوا ممارسة الفضفضة أو نوعا من التمرد على تلكم الجدران من خلال تسجيل حكاياتهم العابرة وعلاقاتهم القريبة ، لتكون الجدران عينها لوحة يسقطون عليها أحاسيسهم المتباينة ، ولتكون نوعا من مشاطرة العامة لتلكم المغامرات . .

الكتابة على الجدران يعده البعض فوضى ، أو حالة مرضية ، أو تشويها أو تعديا على حقوق الأفراد والمجتمع على حد سواء ، ولكن تاريخ الثورات العربية قدّست هذه الفوضى ، وهي قدسية مارسها الصغار والكبار على حد سواء ؛ لأن الكتابة والرسم على تلك الحوائط التي تداولت شعارات عديدة كانت تهدف إلى كسر القيود والتمرد الجمعي بل مضاعفة الحس الوطني النبيل بين فئات المجتمع التي تضامنت مع بعضها البعض ، وكانت تلكم الجدران هي آذان تسمع هتافاتهم ، هي أفواه تستصرخ شعاراتهم ، هي أنوف تتبارى لتشتم أكسجينا نقيا ، هي أحلام حافلة بالعدالة والكرامة والحرية نحو مستقبل طالما اغتيل مئات المرات في أزمنة الطغيان والاستبداد . .

في وقت ما في بيروت التي طحنت تحت نير الحروب الأهلية جاء

في كتاب «حرب الشعارات» التي صدرته دار النهار اللبنانية للنشر عام ١٩٧٨م للصحفية اللبنانية «ماريا شختورة» التي قامت بجمع الشعارات التي شهدتها الجدران اللبنانية خلال الحرب ويضم الكتاب صورا لمئات الكتابات الجدراية خلال حرب عامي ١٩٧٥ م - ١٩٧٧ م وتختلط فيه الشعارات السياسة للقوى المتحاربة وكتاباتها ضد بعضها البعض بالبذاءات الأخلاقية الفردية . .

وربما لتاريخ مدينة بيروت المرير دفعت بعض الفنانين التشكيليين خلال سنوات أخيرة إلى تبني مشروع رسم جدرانها التي شوّهتها الحروب ، الجدران التي عجنت من دم الأبرياء لتكون رسومات أولئك الفنانين مشروعا لتلوين أحلام متفحمة ، أحلام وئدت لعلها تعود لتناهض أرواحا جديدة لأجيال تحلم بمستقبل أكثر أمانا حتى في حضرة جدرانها . .

ولكن الأبهى حقا حين تكون الرسوم على الجدران حقنة تقلّص من ممارسات الإجرام واللصوصية ، ففي حي «سانتا مارتا» في البرازيل وهو حي الإجرام واللصوصية تحوّل من حي مشبوه إلى حي فني ، فلقد استطاع فنان من طلاء الحي وتلوينه بألوان قوس قزح ، اعتقد أن هذه البادرة مهمة للقضاء على اللصوص والإجرام ، فالألوان خاصة المبهجة تلعب دورا حيويا مهما في إعادة تشكيل المزاج الإنساني . .

ومثله ما قام به الفنان الكولومبي «ستنك فيش» منذ العام ٢٠٠٠م برسم لوحات جميلة وفريدة من نوعها على جدران مدينة «بوغوتا» ويتميز هذا الفن عن غيره كونه رسم وجوها من صور كان قد التقطها خلال جولاته في المدن . .

ولعل هذا الأمر يتفق تماما مع دراسة نشرتها مجلة «ساينس

الأمريكية العلمية» أن عدد الأشخاص الذين يلقون القمامات في الشارع أو يسرقون يرتفع إلى أكثر من الضعف في الشوارع المشوّهة جدرانها بالنقوش أو الرسوم ، بل رأى البعض أن ثمة نظرية تعرف باسم «النوافذ المكسورة» التي تذهب إلى وجود زجاج مكسور أو نقش أو رسم على الجدران أو قمامة الأحياء يزيد من استعداد الأفراد لارتكاب المزيد من المخالفات والجرائم الصغيرة . .

ولعل «كتاب الطرق» أولئك الذين خربشوا على الحوائط ، وجدوا في ظاهرة حوائط «الفيس بوك» و«تويتر» وسيلة ناجعة للتعبير لتحوله من كاتب طريق في عالم واقعي إلى كاتب طريق في عالم افتراضي ، لكل حائطه الخاص يخربش فيه ما يشاء ، وبحرية مطلقة وفي كل الأوقات ، بل البعض يتماهى في حريته حتى يسقطها على حوائط الآخرين ؛ متمردا ، نزقا ، حالما ، كيفما كان عبوره ثقيلا ، خفيفا ، غير مرغوب به ، عبقا كشذى النرجس ، ولكن الأعظم في المسألة برمتها أن صاحب كل حائط مسؤول عن نظافة حائطه عن كل ما يخدش شخصه ، فبكبسة زر واحدة يستطيع أن يفرض رغباته في قبول أو رفض كل ما يعبره من عابرين في عالم فضفاض الرغبات والأهواء والتطلعات . .

أما عن أنواع «الفيسبوكيين» فسيكون لنا فيه حديث آخر فضفاض . .

العالم في قبضة «المبتدعين» و«الديليت» و«ممكن نتعرف»....الخ!

«الفيس بوك» عالم افتراضي لم يكن لنا يد في اختراعه وابتكاره ولكن - دون شك - لنا يد في تسخيره بما يخدمنا ومثلنا وتطلعاتنا ، ذاك العالم الذي يكون من معين اختراعنا وابتكارنا نحن . . عالم يغدو جديدا لنا ويليق بنا . .

في حملة رائعة وما أكثر الحملات الحافلة بالروعة على حوائط الفيس بوك تجشمتها جوقة مميزة من الفتيات المصريات لمحاربة الإباحية في الفن تحت شعار : «أنا واحد مش صفر سأكون إيجابيا وأقاطع كل ما يخدش حيائي» . .

إنها حملة تسعى إلى التصدي للإباحية ومقاطعة كافة وسائل الإعلام المختلفة التي تهدف إلى ترويج الفن الرخيص سواء على الفضائيات أو الإنترنت سواء كانت أغنية أو فيلما أو مسلسلا أو برنامجا أو إعلانا أو حتى لفظا أو صورة أو إشارة بعد أن غدت هذه المواد تذاع بمنتهى اليسر وتعرض بطريقة غير لائقة مطلقا ، والطامة الكبرى أن من الفئات التي تتفرج عليها هم الصغار والمراهقين . .!

الصغير الذي يخدش براءته ويمتص نقاؤه الطفولي ، بينما المراهق الذي يعرف أكثر مما ينبغي وبأسلوب غير تعليمي بالدرجة الأولى وما يترتب على هذا من ضغوطات نفسية تترجم معظمها إلى جرائم . .!

وجاءت فكرة هذه الحملة كما قالت الباحثة الإعلامية «نرمين توفيق» المسؤولة عن الحملة : «فكرت في إنشاء هذه الحملة في عام ٢٠٠٩م وذلك بعد أن رأيت «بوستر» في الشارع لفيلم معروض بشكل غير لائق ، وقتها فكرت مع نفسي كدارسة للإعلام أن أقوم بعمل شيء مفيد لتوعية الجمهور . .»

وفي الحديث عن حوائط الفيس بوك التي تعددت توجهاتها وأنواعها إلى أحزاب وقوميات وفكريات وأدبيات ومجموعات تحمل عناوين غريبة ومدهشة وذات نزعات أكثر غرابة ، كل هؤلاء لا يشكل أدنى غرابة أمام أشخاص استحدثوا حوائط خاصة لترويج أفكارهم البذيئة الفئة الأولى تندرج تسميتها بـ«أريد سالب» / «أريد موجب» وأغلب تلكم الحوائط خاصة بالشوّاذ الذين يراكمون كمجموعات تحت أسماء مستعارة معظمها ، ناهيك عن غيرهم من الفتية والفتيات الذين عرضوا أنفسهن سلعا لمن يشتهي وكأننا في بازار لعرض الأجساد . .!

وفئة أخرى يمكن تسميتها «ممكن نتّعرف» لا هم لها سوى اصطياد معجبين وكأنهم في سباق للقنص ، وبمجرد أن تقوم بإضافة أحدهم حتى تعلن رسائلك الخاصة عن رسالة منهم بلا سلام أو كلام سوى رقم هاتف وعبارة واحدة اختلفت لغتها وتذكيرها وتأنيثها ولكن تحتمل الدلالة نفسها . .!

الفئتين الأولى والثانية لقد نسخوا أنفسهم في داخل وخارج الجدار الفيسبوكي ، الزمن في عبور ممتد والأمكنة في تبدل دائم بينما هذه الفئات لا أهداف ولا تطلعات حقيقية في الحياة وكأنهم عقول فارغة سوى من لوثات منحطة التي تضعهم في مرتبة الدونية ولا أمرّ من أن تكون البقرة في الشارع أو الدودة التي تستحث خطاها على

الأرض أعلى مرتبة من هؤلاء ، إنها على الأقل تقوم بوظائفها الطبيعية على أتم وجه على نقيض الآخرين الذين اختاروا الطرق الملتوية على حساب حياتهم المستقيمة . .!

الفئة الثالثة تمثلت في هيئة شيطانية مصغرة ولكن عواقبها جبارة «الفتن» تلك التي توغر الصدور تحت مسميات عدة ولكن أهدافها وضيعة تحتمل معنى واحد فقط نشر الفتن بين المذاهب والطوائف ليس على مستوى البلد الواحد بل كل البلدان القريبة والبعيدة منها فنار الفتنة تأكل الأخضر واليابس ، وإذا ما كانت «الفتنة أشد من القتل» فإن هؤلاء بالنسبة لهم أن «الفتنة أفضل وسيلة لهدم العلاقات الإنسانية وأواصر الاجتماعية والدينية» فهم أعداء الإنسانية بل كل ما يمت لصالح الإنسانية . .!

الفئة الرابعة «الغوغائيين» أو أصحاب ترويج الإشاعات على من هب ودب ، فهم بلا شاغل وشاغلهم الناس ، وهؤلاء لا في العير ولا في النفير ، فما يعرضونه على حوائطهم يخص الآخرين أكثر مما يخص كيانهم ، فهم غائبون لإحياء الآخرين والترويج لهم ، لقد فاتهم أنهم يتنفسون من أجل نشر جرعة فضيحة عن الفنانة المدعوة «س» أو خبر طلاق عن الفنان المدعو «ص» والحياة تسير على الوتيرة نفسها من الصباح حتى المساء . .!

أما «المبتدعون» فحكايتهم حكاية . .! وعلى كل حائط لهم رابط أو حشد من الروابط في ظاهرها مصلحة الدين ، يضعون تلك الروابط دون التأكد من صحة شيخها في الإفتاء أو صحة الحديث أو التفسير نفسه عن المعنى المعروض ، والعامة ما بين التحليل والتحريم فالأم ترى «الباروكات» من الفتن والمحرمات وابنتها تقول إن الشيخ الفلاني أجازها . .!

بينما مجموعة «الديليت» أولئك الذين حين تسمح لهم بالدخول من باب استقبالك ، ما إن يضعوا أقدامهم حتى يتجنّس المكان بهم ، تضيفهم في البدء ؛ لأنك تحترم إنسانيتهم ولكن تضطر فيما بعد إلى حذفهم بلا أسف ، وهكذا هم في كل حائط وحائط من حالة إضافة إلى حالة حذف ولا يستسلمون لو قدر لهذه العزيمة أن تلمّ في نصرة الأمة في زمن ما لفعلت عزيمتهم العجائب ، لو . .!

أما عن «الفئات المناهضة» في الحياة الفاعلة أولئك الذين لديهم خير فائض يبثونه بين حين وحين هنا وهناك ، عند هذا وهذه وذاك وتلك هم بشر لا يمكن تصنيفهم على حسب مواهبهم أو مهنهم أو حتى مكانتهم في المجتمع أو حتى أعمارهم ، فيكفي إنهم «فاعلون» ، «خيّرون» ، «حريصون» على رقي الفرد والمجتمع والعالم في تواصل إنساني حميم ، بل الأهم والأهم على «احترام» أنفسهم وعقولهم ومشاعرهم والآخرين ، هذه الفئة التي يمكن القول إنها تحاول قدر طاقاتها على الاستفادة من ابتكار «الفيس بوك» كما في كل اختراع لهم نصيب من الإبداع فيه ، وهؤلاء كالشهب حين يطلّون ، كالغيمة حين تحبل خيرها في موسم قحط ، كالنحلة في خفتها ، كالنملة في همتها ، رائعون وكفى . .

وهم أكثر الفئات للأسف تعرضا للحذف من قبل الجهات المسؤولة ، للأسف الشديد . .!

فليت السيد «مارك زوكيربرغ» حين حرص على مصالح إسرائيل وذلك بحذف صفحة الانتفاضة الفلسطينية ، أن يكون لديه ولو أدنى حرص على حذف كل ما يلطخ إنسانية الإنسان ، ولكن على ما يبدو لا من آذان تسمع ولا من قلوب تعي . .!

لو أحظى بفرصة تسلق
«برج خليفة» كـ«توم كروز»..!

عادة نعتزم الذهاب إلى السينما لأن ثمة فيلم نرغب في مشاهدته لسبب ما أو بطل مشهور بعينه ينال إعجابنا الشخصي، بالنسبة لي حضوري لمشاهدة فيلم مهمة مستحيلة «بروتوكول الشبح» ليس عائدا إلى مدى حبي لمتابعة أفلام من نوع الأكشن، وليس لأن «توم كروز» بطل الفيلم هو المفضل لدي بل رجوعا إلى ما سمعت به عن هذا الفيلم والضجة الهائلة التي أخذ نصيبه منها بشكل جيد جدا حتى عبر مواقع التواصل الاجتماعية، ناهيك عن استطلاعات آراء النقاد والمتابعين . .

ووقوفا عند رأي المتنبي في بيت شعري كثيرا ما له قيمة من نوع ما في داخلي ويقول فيه : «خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به» ومازلت أثق بهذا البيت الشعري وقلّ ما أحيد عنه . .!

هذا الفيلم ما يزال طازج العرض في شاشات العرض السينمائية والإقبال عليه بشكل مكثف، وقد تولى مهرجان دبي السينمائي الدولي افتتاح عرضه في دورته الثامنة بحضور طاقم التمثيل والإخراج والإنتاج مع جمهور محلي وعالمي لمشاهدة العرض العالمي الأول للفيلم قبيل انطلاقه في صالات السينما بأرجاء العالم ويبدو أن حدث مجيء النجم السينمائي العالمي «توم كروز» الذي خطف الأضواء في حفل

افتتاح مهرجان دبي السينمائي تسبب في تزاحم و إغلاق شوارع رئيسية في دبي ؛ إذ توافد المئات من المعجبين به نحو مقر المهرجان مسببين اختناقات مرورية شديدة ، ودبي يحق لها أن تحتكر عرض الأولي للفيلم والبطل كون الفيلم جاء يخدم دبي بالأخص معلم من معالم دبي «برج خليفة» هذا البرج وهو أطول ناطحة سحاب في العالم ، ما أعطى الفيلم الذي شاهدته سبقا ومهمة مختلفة وليست مستحيلة قطعا مع خدع التقنيات الحديثة . .!

نحن نحيا في زمن الأكشن الحقيقي ، هناك بقاعات في خضم مشاهد عنف وصخب و أكشن حقيقي في زلازل وبراكين وعواصف وفيضانات وحروب ودماء تسيل بضمير بارد ، اعتقد أن المشاهد سواء العربي أم الأجنبي ما عاد يلتفت لمثل هذه المهمات ولا لكون «أمريكا» : الوطن الذي يوفر للكون السلام . .!

لست هنا معنية بعرض مشاهدات الفيلم كمعظم القراءات والمشاهدات التي عرضتها صحف مختلفة عن الفيلم وتلك المقالات بحد ذاتها - من وجهة نظري - تشبع فضول المشاهد التواق الذي فاته حضور العرض فهي تكفّي وتوفّي ، بل أجزم أنه بمهارة خياله ومباركة تلك القراءات المفصّلة سوف يغدو الفيلم في عقله أكثر أكشنة ومغامرة ، لكني في المقالة اعرض بنات أفكاري عن فيلم سمعت عنه الكثير وشاهدته ففكرة الفيلم «مهمة مستحيلة : بروتوكول الشبح» تضع أمريكا في كفة الإنقاذ البشرية أولئك الذين كانوا سيتبخرون لولا فريق عملاء مهمة مستحيلة بقيادة «إيثان هانت» وهو توم كروز نفسه ، لتلقي اللوم في تدمير العالم على «روسيا» وهذا ترميز قوي للحرب الباردة الدائرة بينهما ، وكما نعرف فالأفلام الأمريكية دائما تثقب في وجدان

المشاهد كيفما كان نوعه وجنسه ودينه أن السلام على الأرض بيد أمريكا وحدها وأن بقية دول العالم سواء روسيا وهي الغريمة الكبري أم دول الإسلامية وهم غرائم فحكايتها مع أمريكا حكاية تضليلية طويلة ، فهؤلاء - المهووسون - هم إرهاب العالم وهم من سوف يكونون مبعث تدمير الكون الشامل عن طريق إطلاق «الأسلحة النووية» والتي قد تحطم الكون في دمار شامل ، لكن لا داعي للقلق مطلقا فأمريكا لديها عملاء وهم حريصون أشد الحرص وفي تمام الوعي بألا يحدث ذلك أبدا . .!

مازلنا بحاجة إلى أفلام مصداقية تصور الواقع بروح الواقع لا وقائع مفتعلة تلّمع جهات معينة كأمريكا أو إسرائيل . .!

مازلنا نمنّي أنفسنا بفيلم يشفي غليلنا من إسرائيل التي تبذل الغالي والنفيس من أجل تلميع صورتها عبر شاشات العرض الممتدة ، وفوق هذا تظهر كمتفرج على عوالم الحروب والإرهاب وضخ دماء حارة بالقهر والعنف ككائنات تدّعي المسكنة . .!

مازلنا نترقب فيلما يصور الخليجي على حقيقته ليس مجرد ترف وبيئة صحراوية تهيم بها الجمال وخليجي ساذج ينبهر من كل ما هو أجنبي . .!

جاء على لسان «براندت» وهو الممثل «جيرمي رنر» قائلا في أحد مشاهد الفيلم : «هل يعني بأننا سوف ندخل برج خليفة في دبي أطول برج في العالم ونغير وضعية بنيته ؛ كي نفبرك لقاء شخصين فقط . .»!

مبعث فرح وفخر أن توظف معالم دولنا الخليجية و العربية في أفلام عالمية ، لكن نعود ونؤكد هنا أن مهمة مستحيلة لولا «برج

خليفة» لكانت مهمة عادية جدا . .!

ودبي في ذاكرة الفيلم كمشاهدات انصب على «برج خليفة» و«جمال سائبة في وسط طريق معبّد عبر صحراء مترامي» و«عاصفة رملية غطت الأخضر واليابس» و«غترة يستعين بها أحد الممثلين لتقي الجزء السفلي من وجهه من مفاجآت الرمال الهائجة» و«فتاتان ملفوفتان في عباءتين تجريان وسط زوبعة الرمال المتطايرة بجنون» و«٣٠ دقيقة قضايا فريق عمل» مهمة مستحيلة «لتصوير الأحداث الخاصة في مدينة دبي العالمية» . .

خرجنا من قاعة العرض التي كانت مظلمة كل إلى انجاز مهماته الحياتية منها واقعي ومنها افتراضي وأخرى على سبيل أمنيات ملهمة ، لكن المهمة الوحيدة التي كانت كاشفة للجمع هي مهمة عمال النظافة الهنود واقفين يعلو وجوههم أمارات الاستعجال حاملين أدواتهم بتحفزّ ، لإنجاز مهمة مستعجلة هو تنظيف قاعة العرض على أسرع ما يكون قبل دخول الدفعة الثانية لمشاهدة عرض برتوكول الشبح نفسه ، تركت المكان وفي قاع نفسي أتخيل - مشاهدا - مثلي قد يمني خاطره بالتالي : لو أحظى بفرصة تسلق «برج خليفة» كتوم كروز لا كي أحظى بلقب «نجم سوبر» تسلق أطول برج في العالم ، بل أحظى بشعور كوني حية معلقة ما بين الحياة والموت وسط ظرف ساحق وهو شعور يعايشه آلاف حول العالم بشكل يكاد يكون يوميا جدا . .!

ولكل منا خواطره الخاصة والغريبة والمدهشة والمجنونة ولأنها خواطر شخصية فلكل منا حرية ما يتخيله ، ولكن اعتقد أنها ليست بمهمة «مستحيلة» فقد تجاوزنا مراحل المهمات المستحيلات بزمن طويل ولكن قد يستحيل هذا التخيل من «بروتوكول شبح» إلى «بروتوكول تجاري»

وهو أن تغدو نجما ليوم واحد تتسلق قمة أعلى برج في العالم كبطل فيلم مهمة مستحيلة مقابل دفع مبلغ من المال خاصة ثمة بروتوكولات شبيهة كصعود آخر طابق في البرج نفسه لمشاهدة ذاك الجزء من العالم من فوق والتقاط صورة تذكارية . .!

مكتبة
t.me/soramnqraa

سجين لأنه عربي..!

في مقال جميل للكاتب الإماراتي «أحمد راشد ثاني» والذي جاء بعنوان «سجين اللغة الواحدة واللغتين والشقيقة»(*) يسرد في مقدمته اعترافا مؤلما : «للأسف أنا سجين اللغة الواحدة ولعلي أحس بضغط هذا السجن حين يتحدث أصدقائي عن اطلاعهم على مواد أو كتب باللغات الأخرى لا أستطيع الاطلاع عليها ، وبالتأكيد ، فإن الفجوة في حياتي بيني وبين التكنولوجيا وخصوصا : الهواتف النقالة والكمبيوتر ، تعود في جزء منها إلى ضغط ذلك السجن ، بل وأكثر ، فالمرء يحس نفسه معزول في بلد يزخر بعشرات الجنسيات وبالتالي اتفقت حياتهم على الحديث بلغة مشتركة ، هي في حالة دولة الإمارات ومنطقة الخليج الإنجليزية ، ولقد خسرت كثيرا من الصداقات نظرا لضعفي في التحدث بهذه اللغة أو غيرها ، وتكبد قلبي إخفاقات لا أظنها ستحدث لولا هذا الشؤم اللغوي» . .

غصّة الكاتب تذكرني بالغصّات التي شعرت بها ، كلما وقفت أمام المكتبة التي تقع في وسط «كارفور» في مركز منار برأس الخيمة

(*) مقال للكاتب «راشد أحمد ثاني» ، نشر في جريدة «الاتحاد الثقافي» ، العدد ١٧٢ .

وأنا أرى أمامي آلاف الكتب بلغات أجنبية متعددة، أقف بالقرب منها، لكن دون أن أدنو منها كثيرا، دون أن أجسها بيدي وأتملى في صفحاتها كأي قارئة فضولية، خشية أن يقترب مني البائع وهو يحييني بلغة اسبانية سلسة كاسباغيتهم الشهية ولا أعرف ببلاهة بأي لغة أرد عليه تحيته الشهية تلك..!

وأكبر الغصّات كانت في العام الماضي في معرض رأس الخيمة للكتاب وأنا عابرة بخفة بين ممراتها، لأجد أمامي جمهرة من الكتب مغلفة بشكل مثير لعين الرائي، اقتربت منها وحملت إحدى تلك الكتب كأني أحمل قطعة أثرية ثمينة، قلبت بشغف أوراقها الناصعة بالكتابة، آلاف الكتب متراصة على انتظار تتلهف من يمد لها يدا حانية ولكن لا احد سواي، لأن صفحاتها تتحدث باللغة الأوردية، ولم استغرب عدم وجود البائع متربصا مشتريه؛ لأنه يعرف جيدا أن تلك الكتب وضعت في مكان وبيئة خطأ، أم أننا نحن المخطئون..!

تجرعت يومئذ سؤالي المحطم وأنا والجة الجناح الإيراني تفاءلت خيرا حينما حياني المسئول فيه بلغة عربية دون أن يغادر صوته بحّة الحروف الفارسية، رددت تحيته بأفضل منها مع ابتسامة تقول له بأنها تأمل الحصول على مبتغاها، كتاب يتحدث عن إيران كمدينة وتاريخ وجغرافيا..

حوطني بابتسامة أكبر أشعرتني باطمئنان كبير بينما صوته يسحبني خلفه إلى كتاب ضخم عريض الصفحات وسميك الغلاف، متنوع، مليء بالصور، تحفة حقيقية تحكي بعمق عن إيران ومدنها وتاريخها وجغرافيتها وبشرها، يستعرض عنها كما أريد تماما، كما كنت آمل تماما، لكن ليس بلغتي بل بلغتهم هم..!

ولكن تلك الغصات لا تموت بل إنها ترافقني في كل معرض كتاب أي أنها «غصّات سنوية» ففي معارض الشارقة وأبوظبي لطالما جنبت زوايا الكتب المعروضة بلغات عالمية ، ينتصب بالقرب منها مترجمو اللغة ومتحدثيها بينما أمرّ عبرهم كسيرة الجناح والفؤاد واللغة . .

والغصة ليست على مستوى القراءة والتثقف الأدبي ، إنها قائمة وموجودة على كافة المستويات في كل الدول العربية أخصها بالخليج ، فالخليج غدت اليوم قبلة شعوب العالم المختلف ، متفتحة عليها من أصعدة عدة . . لكن ماذا أخذ منها شعبها . .؟!

هل ساهم هذا الاختلاط بكل تحدياته في إشكالية التغير . .؟ هل عرف أهل الخليج كيف يتكلمون اللغة الهندية والانجليزية والفلبينية والفارسية وغيرها من اللغات رغم التحاشد المستمر عبر تلك السنوات . .؟!

يحاول العربي أو الخليجي تحديدا إلى أن يخاطب الآخر بلغته ، حتى وإن كانت الحروف تخرج منه مكسرة ولا يفهم منها سوى الإشارات كأنه يخاطب أخرسا . .!

لأننا وبكل بساطة مطلقة نؤمن بتفوقهم علينا ، هذا التفوق الذي يشعر به كل عربي عندما يرمق بإعجاب أصحاب اللغات الأخرى ، والدليل أن كل شخص لديه أكثر من لغة ، هو شخص متفوق ، ولديه مستقبل ، في دولنا العربية من يجيد لغة يجيد حرفة . .

لكن بالمقابل هل الأجنبي مهما كان انتماؤه فرنسيا أو يابانيا أو ألمانيا فكر يوما ما ، رغم أن الكثير منهم مقيم في دول عربية إلى تعلم اللغة العربية ، أو محاولة إتقانها . .؟!

إنه لا يريد أن يتعلمها ؛ لأن اللغة العربية بالنسبة له لا تشكل تفوقا في دولته ، فماذا يفعل الفرنسيون أو الايطاليون أو غيرهم باللغة العربية . .؟!

لهذا على العرب كي لا يخسروا رهان التفوق ، عليهم بالانفتاح من خلال إتقان لغات العوالم الأخرى ، ومن كانت له لغة واحدة فهو سجين العالم . .!

العربي يشعر بالعجز في مدينة لا يتقن لغة أهلها ، لكن العكس بالنسبة للأجنبي في بلاد عربية فإن شعور العجز لا يكاد يطفو ؛ لأنه سيرى مترجما أمامه يحتفل به وبلغته ، ولأن على العربي أن يتنازل كي يتحدث معه بلغته والمفروض العكس لأنه في بلاد عربية ، حتى العمال الآسيويون نتحدث معهم بلغتهم ، ولم يحدث أن بادرونا بلغتنا العربية . .!

يكتب أدباء اللغات الأخرى بلغات عوالم أخرى ، يتسابق اليابانيون والصينيون الكتابة باللغة الفرنسية ، والاسبانيون والتركيون باللغة الانجليزية ، لكن هل سمعنا بأدباء من لغاتهم بادروا إلى كتابة رواياتهم باللغة العربية إكراما للشعب العربي . .؟!

لولا الانفتاح على مستوى الترجمة في الوطن العربي لما وصلنا شيء من لغات أخرى ، حتى الكتاب العرب المترجمون منهم حين يطلبون من كاتب لغات أخرى ترجمة أعماله إلى العربية ، تقبضه نعرة مفاجئة من الطلب ويعلق مندهشا أكثر منه مغتبطا : حقا ، لم أكن أعلم أن ثمة قراء من العرب يهتمون بقراءة أعمالي . .! ولا نكاد نحيط بمغزى تعليقه أهو سذاجة أم براءة أم ماذا . .؟!

إذن على العربي أن يخبئ مرارة تفوق اللغات الأخرى في قلبه ؛

كي يرمم عقدة النقص لديه، عليه أن يتعلم لغتهم؛ كي يأمن شرهم كما أمرنا بذلك رسولنا الكريم . .

ولعل الحكمة هو أن نحذو حذو مراهقة أخبرتني عنها زميلة مقربة، وهي واحدة من أولئك اللاتي جرفتهن حمى متابعة مسلسلات يابانية بلغتهم الأصلية، والجميل في هذه التظاهرة هي أن ابنة أختها المراهقة مذ أبهر لبّها هذه المسلسلات لا يفارقها معجم اللغة اليابانية مع كراس من حجم كبير، تسجل فيه كلمات باللغة اليابانية ثم تحاول فك طلاسمها من المعجم الذي بين يديها، ومن ثم تسجيلها ومحاولة حفظها في كراسها الخاص الذي بات لا يفارقها، ونجحت بالفعل في تحقيق معجزة إتقان بعض عبارات باللغة اليابانية والسر في تعلم اللغة هي أنها عزمت السفر إلى اليابان والعيش هناك، وهي تستعد لحلمها - بدأب لا ينقصه الهمّة - مذ هذه المرحلة . .!

ويختم الكاتب «أحمد راشد ثاني» مقالته بسخرية رائقة وبحلم من هو سجين لغة واحدة؛ فهو يريد أن يصاب بما يسمى بـ«متلازمة اللهجة الأجنبية» كالتي أصابت امرأة تدعى «سارة كولويل» كما حكى عنها في المقال، ففي صباحات أحد الأيام استيقظت ولسانها يتحدث الصينية بطلاقة، رغم أنها لم تزرها مطلقا . . كل هذا نتيجة صداع نصفي أثر في الدماغ بطريقة ما كما فسر العلماء جعلتها تتحدث بلغتهم، والجدير بالذكر أن «سارة كولويل» البريطانية لا يعجبها تحدثها باللغة الصينية ولطالما شعر البريطاني وأمريكي والفرنسي بالتفوق على الصيني المسكين الذي هو الآخر يعاني من عقدة الأوروبي . .!

بينما كاتب المقالة أمنيته أن يصاب بهذه العلة ولكن بشكل أشد

بـ«متلازمة لغات أجنبية» فأحلامه كثيرة لا تكتفي بلغة واحدة كي يصحو في الصباح يقرأ باليابانية صفحات من رواية لكاواباتا ، وعند الظهيرة يخرج إلى مقهى مطل على البحر كي يقرأ سونيتات شكسبير باللغة الانجليزية القديمة ، وليس لديه مانع أن يتحدث الفلبينية مع نادلة تدعى «بيتي» وهي أقدم نادلة في أبوظبي ، وأن يقرأ قصيدة الشاعر «ادغار آلان بو» بلغتها الأصلية ، وفاوست «جوته» باللغة الألمانية ولا تكف سلسلة أحلامه اللذيذة الغارقة في أدبيات اللغات الأخرى . .

ولي أنا الأخرى أحلام متعددة كأحلامه ولكن بطريقة أخرى ، حلمي أن أجلس مع الكاتب «باولو كويليو» وهو يحكي لي حكاية فيها الكثير من الحكمة بلغة عربية سلسلة . . وأن أتمشى مع الكاتب التركي أورهان باموق على أرض تركيا الخلاب ، بينما هو يحدثني بلغة عربية صافية عن آخر مشاريعه الكتابية . .

أن تفاجئني الكاتبة «ايزابيل الليندي» بكتابة رواية باللغة العربية وتطلب مني مراجعة كلماتها العربية . . وأن أثرثر مطولا مع الكاتبة «الفريدة يلينيك» على موقعها الالكتروني . . وأن يلقي الشاعر الأمريكي «تشارلز سيميك» قصائده الرائقة بحس عربي أصيل لا تشوبها شائبة . . وأن أستمع إلى تجربة الكاتب الصيني «داي سيجي» لإعادة تأهليه في الثورة الثقافية بصوته الصيني ولكن بلكنة عربية ، وأن أتوسل إلى الكاتبة «هيرتا موللر» أن تكفنا ذل انتظار رحمة المترجمين لأعمالها بلغتها ، وتقوم هي بهذه المهمة من أجل عيون قراءها العرب . . وأن أطالع مؤلفات «نيتشه» و«هاروكي موراكامي» و«جوته» و«بورخيس» و«مارسيل بروست» و«دوستويفسكي» و«كافكا»

وغيرهم ، دون أن تأخذني وسوسة عن مدى صحة الترجمات التي نقرأ بها أعمالهم العظيمة وأكون ممتنة لو أتابع في دور السينما فيلما لـ«انجلينا جولي» وهي تتحدث باللغة العربية وإلى . . . . لا آخره . .

والأحلام لا تنتهي أبدا ، فمن يطارد حلما كيف يرتاح . .؟!

اللغة الإنجليزية في ورطة..!

تناولت مرة في مقالة تدعى «سجين لأنه عربي» مبعث تفوّق اللغة الانجليزية في حياتنا نحن _العرب _من خليجنا إلى محيطنا، ولا نبالغ قط إن أشرنا بأن الخليج العربي يكاد يصبح الخليج الانجليزي نتاج تحدث أهلها هذه اللغة حتى فيما بينهم وأبناؤهم الصغار مما شكّل إشكالية جسيمة لا يمكن تفاديها مطلقا هو تزحزح مكانة اللغة العربية وتراجع أهميتها بين العرب . .!

وهل ثمة لوم على من جعل الانجليزية لغته الرسمية وهو مواطن عربي وفي وطن عربي . .؟! في وطن جعل اللغة الانجليزية لها الأولوية ولها الصدارة في كل شيء في الوظيفة وفي التعليم والتواصل ومن لا يتقنها فهو رجعي ومتأخر ويفقد ما يفقد من مؤهلات وطموحات تؤهله للرقي والتقدم في وطنه . .!

ليس هكذا فقط بل قمة القهر أن تذهب إلى مطعم عام فيقف أمامك العامل العربي ويستقبلك بتحية انجليزية مرموقة وحين يعرف أنك عربي تقل وهج التحية أو يختار الصمت غالبا وينسحب . .! أو عامل أجنبي يتقدم إليك ويضع أمامك قائمة الطعام بالإنجليزية وحين تطلبها بالعربية يعتذر بأن ليس لديهم قوائم طعام سوى بالإنجليزية ونحن في عقر دارنا العربي . .!

في هذا المجتمع العربي تكون مطاردا بهاجس عدم إتقان اللغة الانجليزية وتضطر إلى التسجيل في معاهد تعليم اللغة الانجليزية ؛ كي تتحدث بها مع عامل المطعم أو مع مسؤول العمل أو مع زائر أجنبي لبلدك يسألك بلكنته ومن العار ألا ترد عليه بلكنته الانجليزية وكأنك أنت الزائر العابر وهم الدائمون . .!

لكن لندع أزمة اللغة العربية جانبا فهي غائرة ومتمددة وكاشفة للجميع بالمقابل لنسأل أنفسنا هل تزّعم اللغة الانجليزية في صالحها بالمعنى الكلي . .؟! وما أبعاد التأثير وما نتاجه عليهم وعلى بقية اللغات . .؟!

وهذه الاستفسارات ناقشها وعرضها من زاوية عميقة قلّ أن جسها أو فكّر بها الآخرون ، فالباحث والكاتب الفرنسي «جورج ستينر» لاحظ وهو يتحدث عن اللغات أن اللغة الإنجليزية وبفضل انتشارها العالمي هي العامل الأساس في تخريب التعدد اللغوي الطبيعي وقد يكون هذا التدمير الأكثر استعصاء على العلاج بين الثورات الأيكولوجية التي يعانيها العصر ، ذلك أن اقتصار الإنجليزية على حقول التجارة العالمية والتكنولوجيا والسياحية لها آثار ضارة على الانجليزية نفسها . .!

فالحضور المطلق على وفق تفسير «ستينر» دائما يولّد تغذية سلبية لهذه اللغة والتوحيد اللغوي والثقافي يتولد منه الضجر والرتابة والاختناق فالفناء . .!

ويتابع تفسيره بأن مع انفراط لغة تنفرط إلى الأبد خيوط تواصل الإنسانية مع الأمل ، والتعددية لا تؤمن ثراء حياة الإنسان المعنوية والذهنية فقط بل تؤمن حياة أو الحيوات المجاورة . .

وهذا يشير إلى انعطافه مهمة وهي أن اللغة الإنجليزية فقدت خصوصيتها من هذا الشيوع وهذا كما وفق تنبؤات الباحث الفرنسي «جورج سيتنر» قد يتسبب في فنائها عبر حقب الزمن . .!

فإذا ما كانت اللغة الإنجليزية في ورطة الشيوع ، فإن اللغة العربية في ورطة الاندثار قبل أن تحقق شيوعها المستحق لهذا وجب أن تتكالب الجهود لصون اللغة العربية وحمايتها وهناك بالفعل جهود لا يمكن نكرانها أو التغاضي عنها كمبادرة مجلس محمد بن راشد للسياسات حيث تبنوا مبادرة تعزيز مكانة اللغة العربية ، وهي محاولة جادة لإعادة هيبة اللغة العربية ومكانتها التي تأثرت بشكل كبير جدا خلال السنوات العشر الأخيرة مما أدى إلى تراجعها مقارنة باللغات الأخرى وهو أمر لا يمكن تقبله والرضوخ له . .

وإذا علمنا أن ثلاث دول من أصل خمسة تمتلك حق «الفيتو» في العالم لا تجيد «الإنجليزية» يجعلنا نتساءل بقوة : لماذا نحن لا نرد الاعتبار للغة «الضاد» إذن ونفرض شرعية ممارستها كلغة مهمة في كافة أرجاء العالم . .؟!

مما لا شك حفنة من الرأسماليين استجلبوا ثقافة الاستهلاك إلينا وداسوا على هويتنا العربية حين أجبرونا أن نتحدث مع عمالهم بغير لغتنا ونحن في عقر دارنا . . ومن هنا اقترح أن تفرض المؤسسات الحكومية المختصة على كل موظف يأتي للعمل في بلداننا أن يأخذ دورة تأسيسية في العربية ؛ حفاظا على لغتنا العربية من التهميش والتكسر والألفاظ الدخيلة . .

وعندما يتاح الأمر سيغدو سهلا ومقبولا من قبل الجميع . . من ذلك قابلت منذ فترة قريبة في مدينة دبي بائع «صيني» في إحدى

المحال التجارية وعندما سألته بالإنجليزية عن سعر البضاعة ردّ عليّ بلغة عربية نقية وفصيحة فاجأتني جدا وحينئذ بادرته بالسؤال عن كيفية تعلمه واتقانه اللغة العربية بذاك الثراء والوضوح ، فأجابني بأنه تعلم اللغة العربية في إحدى معاهد تعليم اللغة العربية في الصين على نية السفر لدولة عربية كي يباشر عمله كبائع - سبحان الله - فلماذا لا نتيح لهؤلاء العمال وغيرهم فرصة لتعليم اللغة العربية في بلداننا أو تعليمها في بلداهم قبل استقدامهم كعمال أو كموظفين . .؟!

ومن هذا الموقف خرجت بقرار مهم هو أنني لن أتحدث سوى بلغتي العربية في أي مكان أكون فيه وأصادف أجنبيا في بلدي فهو الزائر لا أنا . .!

وكما يقول «ابن خلدون» : «غلبة اللغة من غلبة أهلها» استشهد بهذا وذاكرتي على خبر ذيع مؤخرا عن تعزم أمريكا على تعليم اللغة الصينية في مدارس طلابها بعد أن أظهرت الأخيرة تفوقها الاقتصادي الساحق . .!

يا ترى متى سنكف عن تخضيع هوياتنا لمبدأ الغلبة والقوة . .؟! ومتى نسعى إلى فرض هيبتنا لمجرد أن ذلك حق إنساني ووجودي وحضاري في كل بقعة نكون فيها . .؟!

غرفتي الافتراضية الأصغر ؛ هنا أنقل للعالم الصغير ما
تسكبّه عليّ غيمة عابرة :

www.lailal2222.blogspot.com

قناة الكاتبة على تلجرام

t.me/halami

الفهرس

غرفة حريم السلطان	7
- نساء هلأ لوين . .!	9
- فصول في نساء «إشراقة»	14
- العصابة الوردية في الهند . .!	19
- تدبير منزلي . .!	24
- المرأة اليهودية بين معول التلمود وجرافة الحاخامات . .!	29
- إنهن نساء أولئك الملثمين . .!	35
- حكاية الجنس اللطيف في اليابان	40
- أسئلة في رجولة مقموعة وأنوثة متحررة . .!	47
- أسئلة في رجولة مقموعة وأنوثة متحررة . .	53
غرفة المؤامرات	59
- العرب من وجهة نظر يابانية . .!	61
- ديمقراطية تتنفس بهدوء على طريقة «جين شارب» :	66
- قالوا : «الاتحاد الخليجي» فبكى «التعاون الخليجي» . .!	73
- خليجنا ليس واحد . .!	77
- تساؤلات عن العزلة العمانية . .!	81
- تساؤلات عن العزلة العمانية . .!	87
- الزمن يا زمن . . هارون . . وأمريكا . . وما حدا أدي!	93
- خانوا أسماؤهم . .!	98
- حدوتة مصرية . .!	101

- رعب إخواني في ردهات الفن المصري . .! 105
- وأعلني الصرخة في وجوههم حرية 110
- تبرؤ الكتاب الأخضر من القذافي بعد المفاوضات . .! 114
- عاهة صينية تجتاح عشاق القذافي . .! 122
- من «عادل إمام» إلى «دريد لحام» . .! 129
- القبائل الكوكبية 135
- ركب الفوضى حصان الحرية . .! 139
- مشاعل الربيع العربي 141
- الطريق إلى الدولة الحديثة معبّد باللون الأحمر . .! 147
- مادة «احتلوا» . .! 151
- شبيه البيه . .! 155
- اللحظات الحاسمة في حياة الزعماء . .! 158
- وصايا إسكندر المقدوني 162
- دولة دكتور جيكل ومستر هايد 166
- هويتنا العربية والمجتمع . .! 171
- هويتنا العربية والفرد . .! 175
- هويتنا العربية والروبوت الآلي . .! 179
- ليلى في مهب هويات 183
- صيني مع شاي كرك وهندي مع شاي أخضر . .! 190
- وجه «نائل البرغوثي» مبللا بالشمس يبتسم 194
- كائنات تحت الصفر . .! 199
- هاشل : «بلى تستطيع ذلك» 204
- مونولوج عابر عن ثورات الربيع العربي 208

- كيف انتقّم من عدوّي . .؟! 212

غرفة المفاعلات النووية 215
- حين يكون الحاكم مثقفا . .! 217
- «مانسا موسى» ملك كان يرتحل بالذهب ويعود بكنوز الكتب 223
- طريق المثقف هو إنتفاضة عمالية . .! 226
- طريق المثقف هو إنتفاضة عمالية . .! 232
- طريق المثقف هو إنتفاضة عمالية . .! 236
- المثقف «التوي» بين بائع آراء وغاسل أدمغة . .! 241
- مثقف نخبوي وأميّ ابن شارع . .! 245

غرفة التعذيب 249
- ما من موهبة تمر بلا عقاب . .! 251
- حيونة الإنسان . .! 255
- أنا القانون . .! 260
- اعتقلوا جوجل . .! 263
- تعطيل الحواس . .! 268
- سجون أضيق من حنجرة ومقابر أوسع من وطن . .! 272
- لعبة «التكفير» . .! 278
- أيها الفم إنك فوّهة الجحيم . .! 281

غرفة في البيت الأبيض	285
- نوابيل ومعلوف يتحدثان عن أوروبا واختلال العالم . .!	287
- هيمنة أمريكا واختلال العالم . .!	293
- القومية واختلال العالم . .!	299
- الأقليات واختلال العالم . .!	303
- الجمهورية الأوروبية الإسلامية . .!	307
- «لماذات» مشروخة في الحنجرة . .!	311
- حين يكون العالم أمريكيا . .!	315
- تمثال الحرية في بكين حبلى . .!	321
- إمبراطور المهرجين على حبل الفضيحة . .!	324
- من أيقظ الأميرة اللندنية النائمة . .؟!	328
- الوعي «كافر» . .!	333
- الفتى الأسود صاحب السكاكر . .!	337
- الزنجي الذي قتل نفسه	340
- نجاح أوباما ليس له علاقة بي . .!	342
- نِعْم «أتسوشي» بِئس «بريفيك» . .!	346
- لو أنهم في منطاد واحد . .!	350
- نبوءة «يوئيل ماركوس» . .!	354
- نبوءة «يوئيل ماركوس» . .!	358
- جنود على أرجوحة الجوع . .!	361
- جنود على أرجوحة الجوع . .!	366
- كاتب طريق	370

- العالم في قبضة «المبتدعين» و«الديليت» و«ممكن نتعرف» الخ! 373
- لو أحظى بفرصة تسلق «برج خليفة» كـ«توم كروز»! 377
- سجين لأنه عربي . .! 382
- اللغة الإنجليزية في ورطة . .! 389

مكتبة
t.me/soramnqraa

HAWAJIS GHURFAT ALALAM

مقالات
ESSAYS

حين يكون العالم أمريكياً، سوف يجيد تلقين مبادئ الكراهية عن الإسلام والمسلمين، خاصة عند الأطفال! وحين يكون الكاتب أمريكياً، وحده يحق له أن يؤلف كتباً تؤلب صدور المجتمعات على الإسلام والمسلمين!

ولكن، حين يكون العالم إسلامياً، فعلى المسلمين نسيان مجازر أمريكا في العراق وأفغانستان وباكستان وفي كل بقاع العالم الإسلامي، مهما غدت الحجج والأعذار!

وحين يكون الكاتب إسلامياً عربياً، فإن أي كتاب يصور مشاهد عنف أمريكا ومجازرها مع المسلمين وفي أوطانهم، فإنه يُعد إرهابياً ويستحق النبذ والفناء الأبدي! وليس عليه أن يبدي اعتراضه على الوضع، ففي اعتراضه جريمة يعاقب عليها القانون، بينما الأميركي المسكين حين يتبنى قضية بالاعتراض، فإنه فقط يدلي بوجهة نظره الخاص تجاه الوضع!

ومات الخاص والعام عندنا!

فياله من عالم متناقض ذاك الذي تديره سياسة أمريكية. وهي سياسة قائمة ما بين "تحيا الديموقراطية" و"تحيا المصالح"! وهذا التناقض ليس بالشيء الجديد على واقعنا العربي والإسلامي، بل يؤكده مسلمي أمريكا الذين يعانون صنوف التفرقة والنظرة العدائية التي تلاحقهم من قبل غير الإسلاميين في أمريكا. وهي النظرة نفسها تفشت في باقي دول أوروبا، التي وضعت يدها علي قلبها وما تزال مرعوبة من تضاعف عدد المسلمين خلال سنوات الهجرة السابقة. ولهذا بدأت التدابير والخطط لزعزعة الهجرة وفرض قوانين غريبة على حظر "الحجاب" و"النقاب" مرة وسماحه بهما مرة أخرى، ومنع "الذبح الإسلامي" حيناً و"المآذن" حيناً آخر. وكأن التعاليم الإسلامية لعبة يلهو بها زعماء أوروبا! وتلك الخطوات المترددة من قبلهم للمنع ما هي إلا خوفاً على مفهوم "الديمقراطية" التي بهت ضوؤها بسبب المواقف المتناقضة وهاهم يلمعونها كي لا تتكشف حقائق أخرى خافية.

المؤلفة

ISBN 978-614-419-423-2

مكتبة
t.me/soramnqraa